مطبوعات المجمع العلمي العراقي

مؤرخ العراق ابن الفوطي

بحث في أدوار التاريخ العراقي من مستهل العصر العباسي إلى أواخر العصر المغولي

تأليف

محمد رضا الشبيبي

الجزء الأول

مطبعة التفيض بغداد

١٣٧٠ - ١٩٥٠

مطبوعات المجمع العلمي العراقي

مؤرخ العراق ابن الفوطي

بحث في أدوار التاريخ العراقي منذ مستهل العصر العباسي إلى أواخر العصر المغولي

تأليف
محمد رضا الشبيبي

الجزء الأول

مطبعة التفيض بغداد
١٣٧٠ - ١٩٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

خالجتني فكرة البحث عن تأريخ العراق في العصر المغولي ، ثم عن سيرة مؤرخ العراق في العصر المذكوركمال الدين عبدالرزاق بن أحمد المشهور بابن الفوطي **(٦٤٢ - ٧٢٣)** بعد الظفر بقسم من معجم له في التأريخ وكان ذلك عام **(١٣٣٧ - ١٩٢٠)** في دمشق الشام ، فاذا هو معجم يعنى المؤلف فيه بهذه الناحية الغامضة من تأريخ العراق أكثر من غيرها بكثير وقد حالفه التوفيق في حفظ قسط كبير من تأريخ العصر الذى عاش فيه ولذلك عنيت بدراسة الجزء المذكور ، فهو أصل لا يستغنى عنه في معالجة تأريخ العراق بعد استيلاء المغول على البلاد .

لاحظت وأنا أعنى بالبحث عن تأريخ العراق بعد زوال الدولة العباسية فائدة التوسع في تاريخ الدولة المذكورة واعداد بحث قائم بذاته في هذا الموضوع ليكون كالمدخل لما أنا بسبيله من البحث في هذا الكتاب عن عصر المغول وقد اخترت له هذا العنوان (الدولة العباسية من بدايتها الى نهايتها) وهو فيما أرى بحث لا يستغنى عنه في تعليل كثير من الحوادث التأريخية الغامضة واكتناه أسرارها وحل معمياتها وما أكثر الغموض والابهام في نصوص المؤرخين وفي أصول التأريخ !

ان هذا الكتاب من حيث مجموعه بحث في أدوار التأريخ العراقي من مستهل العصر العباسي الى أواخر عصور المغول وفي طبيعة كل عصر من العصور المذكورة وأظهر مميزاته ، ودراسة في سيرة المؤرخ المعروف بابن الفوطي وفي رسالته وآثاره التأريخية وما الى ذلك من الأبحاث . وكان معجم ابن الفوطي الذى ظفرت ببعض أجزائه في طليعة الأصول المعول عليها في هذا الباب .

اتضح لي بعد التأمل فيما انتهى الينا من معجم ابن الفوطي انه من تلك الأصول التي يصح الركون اليها في تأريخ العراق والشرق بأسره في الفترة المظلمة التي بدأت بانحلال الدولة العباسية واستيلاء المغول على العراق وعلى ما جاوره من الأقطار وظهر لي أيضا أن هذا المعجم خير مرجع لمن يعنى بدراسة سيرة ابن الفوطي نفسه فانه تحدث فيه كثيرا عن شؤون حياته وأحواله الخاصة وعرض لنا طرفا صالحا من سيرته ، وقد أشار الى ما زاوله من مهن وأعمال ومن جملتها الاشراف على خزائن الكتب في بغداد ومراغة وغير ذلك من الأعمال التي عهد بها اليه ، وكان ذلك على الغالب باشارة من أستاذه نصيرالدين الطوسي الفيلسوف المشهور ، وكان هذا الفيلسوف يعنى كثيرا بشؤون تلميذه المذكور ٠

وتعددت أغراض ابن الفوطي من وضع معجمه هذا ، وفي مقدمتها ـ على ما يبدو لنا من التأمل في أسلوب المؤلف ـ انه قصد التحدث به عن صلاته ورابطته بأصدقائه ومشايخ اجازاته ورؤسائه ، وذلك خلال مدة حياته الطويلة ، فعددهم والحالة هذه كثير جدا وقلما خلت صفحة من صفحات الكتاب من حديث له عن نفسه أو عن بعض صلاته بمن اتصل به من مختلف طبقات الناس ، وقد ساعده على ذلك ما جبل عليه من نشاط وما فطر عليه من جد واجتهاد ، فقد كان كثير التنقل والأسفار في ممالك المغول وخصوصا بين العراق وأذربيجان أو بين أذربيجان وأران (قفقاسية) وبلاد فارس وما الى ذلك ، وكانت معارفه تتجدد ومعلوماته تتسع بمرور الأيام ٠

أضف الى ما تقدم انصرافه الى حرفته ، وهي الوراقة ونسخ الكتب والاشراف على المكتبات وتنسيق خزائنها وتدوين المذكرات فكان جل وقته في حله وترحاله مستغرقا في الكتابة والتدوين على الأسلوب الذي نراه في معجمه المذكور ، وكان يستصحب عددا كبيرا من الدفاتر المعدة للكتابة أينما كان ، ومما عني بالاشارة اليه في معجمه هذا ما حذقه من فنون وعلوم ٠ ومن ذلك علم التأريخ والأنساب وأصول التعليم وتنظيم المكتبات والعناية بتحقيق الأصول المخطوطة والتنقيب عن النسخ المختارة من المؤلفات ٠ وقد عني فيه كذلك بذكر كل من يلقاه أو يلقونه شيوخا وطلبة ورؤساء وزوارا وأضيافا عناية تامة ، يتخلل ذلك كثير من الملح والفوائد الاستطرادية والأحاديث التأريخية ، ولا نبالغ اذا قلنا : انه لا يجاري في الاطلاع على شؤون ممالك المغول ، من أقاصي الصين وبلاد الترك الى

بلاد الروم وفارس والهند سياسيا وجغرافيا وثقافيا ، ولم يقتصر ذلك على تأريخها فى عصره ـ وهو عصر المغول فى منتصف القرن السابع الى صـــدر القرن الثامن ـ بل هو الخبير بتأريخها وشؤونها فى كل العصور ، ولا يقل عن ذلك اطلاعه على أحوال بقية الممــالك الاسلامية أو ملوك العالم الاسلامى ، ففى كتابه شذرات عن الأندلس والمغربين الأقصى والأدنى فالديار المصرية والشامية الى الجزيرة العربيـــة ، ومرد ذلك الى اجتهاده والى طبيعة أعماله فى الدولة وقربه من الوزراء والأعيان ورؤساء الدواوين •

معجم شيوخ أو سيرة من السير الخاصة

يعنى ابن الفوطى فى معجمه كما قلنا بكثير من شؤونه الخاصة فهو لا يترجم لكثير ممن ترجم لهم الا لأنه حدثهم مرة أو اجتمع اليهم أخرى أو عامل أحدهم تارة أو اتصل بهم لأمر ما ، ولرؤسائه ومشايخه وأصحابه وأنداده فى الدراسة نصيب وافر من المعجم فكأن الكتاب من بعض معاجم الشيوخ • وهذا النوع من المعاجم لا يعنى بتصنيفه الا أئمة المحدثين والمؤلف معدود من هذه الطبقة ، ولك أن تقول : انه معجم خاص بأعيان عصر المغول على اختلاف طبقاتهم ، وقل اذا شئت : انه سجل أو مذكرة أو سيرة من هذه السير الخاصـــة •

ومن مميزات المؤلف اذا تحدث عن سيرته أو سيرة من يتحدث عن ســـيرتهم فى كتابه أن يسترسل استرسالا يخرج به عن مألوف المتزمتين من أهل العلم فى كثـير من الأحيان ، فهو لا يعرف الجمجمة والغموض بل يعشق البيان والوضوح ، وقد أعلن عن أسرار وجاهر بأمور خالف بها عادة أمثاله ، بل هو فى هــذا الشأن الى رجال الأعمال وأرباب الدواوين أقرب منه الى غيرهم من سائر طبقات الناس •

معجم فى الادب

ومن أساليب المؤلف فى معجمه هذا أنه اذا ترجم لكاتب أو شاعر دعم أقواله بنبذة من ترسله أو شعره ، وكذلك يفعل اذا ترجم لأحد المتصوفة ، وهو من أكثر المؤرخين عناية بالتصوف والمتصوفين فى عصره وغيره من العصور ، بل يمكن اعتبار المعجم موسوعة فى الأدب والتصوف والفلسفة والتأريخ •

من ذلك ومن فصول أخرى ستراها فى مكانها من كتابنا هذا[1] تعلم ما أسلوب

---

(١) أنظر الباب الاول من أبواب هذا الكتاب •

ابن الفوطي في تأليف معجمه ، وهو أسلوب طريف يدل على أن صاحبنا وهب ذكاء وقادا وملاحظة دقيقة وذاكرة قوية ومضاء شديدا في أداء رسالته التأريخية .

في سبيل الدراسة

مضى علينا في سبيل هذه الدراسة أثر ظفرنا بهذا الأصل المخطوط في المكتبة الظاهرية أكثر من ثلاثين عاما فقد كنا ظفرنا به في شتوة سنة ١٣٣٧ هـ - كما مر - في أثناء التنقيب عن بعض الأصول النادرة في الخزانة المذكورة ثم قفلنا الى العراق وكان مرجعنا في الدراسة بعد ذلك مذكرة لخصت فيها على عجل بعض ما يعنيني تلخيصه من الكتاب وهي مذكرة خفيفة لا تفي بالمرام ، ولذلك تعددت محاولاتنا منذ ذلك الحين في سبيل استنساخ الكتاب على الأصل المخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق الشام ، لأن استنساخه ضرورة لا معدى لنا عنها لمواصلة هذه الدراسة وتجويدها على وجه يليق بهذا العصر عصر اليقظة الفكرية ، فلم تسعفنا الأقدار بذلك الى أن حلت سنة (١٣٥٨ هـ ١٩٣٨ م) وفيها رغبت وزارة المعارف الى المجمع العلمي العربي بدمشق في استنساخ الأصل المذكور ، وما هي الا مدة قصيرة حتى وافانا المجمع في السنة المذكورة بنسخة مصورة بواسطة أحدث الآلات الناسخة ، وهكذا تمكنا من الوصول الى غايتنا المنشودة وحفظت تلك النسخة في المكتبة العامة التابعة لوزارة المعارف في بغداد . ومنذ ذلك الحين استنسخت عليها نسخ عدة لبعض خزائن الكتب العامة والخاصة ، وتجرد لدرسها غير واحد من العراقيين المعنيين بدراسة المخطوطات والتنقيب عن الأصول ، وتقع النسخة المصورة المرسلة الينا من دمشق في ثلاثة أجزاء مع أن حجم الأصل لا يزيد على جزء واحد ، ولنا على نسخة الأصل ملاحظات من حيث التشويش أو التلفيق الطارىء عليها ، وهو تلفيق أفسد النسخة وأوقعنا كما[1] أوقع غيرنا في أوهام كنا في غنى عن الوقوع فيها

---

(١) طرأ على أوراق الجزء الرابع من المعجم تشويش قلب كيان الكتاب رأسا على عقب وأوقع الناقلين عنه في أوهام منكرة ومن ذلك ما وقع لمؤلف هذا الكتاب في نقل نسب « علاء الدين عطا ملك الجويني » عند ذكرنا له في مقدمة كتاب الحوادث الجامعة - والأولى أن يقال مقدمة الاصل المغفل الذي اختير له هذا الاسم اذ لم يبت في اسم هذا الكتاب ولم يتعين مؤلفه على وجه قطعي الى الآن - وقد نشر في بغداد سنة (١٣٥١ - ١٩٣٢) وجاء في تلك الكلمة انه « علاءالدين أبو الطيب بن عربشاه الخراساني » وهذا وهم منشؤه التلفيق الطارىء على أوراق المعجم ، والصواب أن نسب علاء الدين كما نجده في مكانه من معجم ابن الفوطي « علاء الدين أبو منصور عطا ملك بن محمد بن محمد بن علي ابن احمد بن اسحاق بن أيوب بن الفضل بن الربيع بن يونس وزير الرشيد بن المهدي ، صاحب الديوان » .

هذا هو الوجه الصحيح في نسب الجويني كما جاء في المعجم فليصحح بموجبه الخطأ الوارد في مقدمة الحوادث الجامعة وقد أثيرت بشأن هذا النسب معركة تأريخية أثارها صفي الدين محمد بن علي بن الطقطقي صاحب الآداب السلطانية وسيرد عليك ذكرها في موضعه من هذا الكتاب .

كما ستراه في بعض الفصول الآتية •

أصل يعول عليه

كان وجود هذا الأصل على مقربة منا عونا لا يستهان به على المضي في البحث بل كان معولي عليه وعلى تلك الرسالة الملخصة عنه في جل ما نشرته أو كتبته بعد ذلك عن مؤرخ العراق المذكور وعن عصره أو عصر المغول في العراق وعن معجمه المشار اليه • ومن ذلك رسالة عنوانها (مؤرخ العراق ابن الفوطي) وبحث عن واقعة بغداد وعوامل زوال الدولة العباسية ، وكلمة كتبت لتكون مقدمة لأصل تأريخي مغفل نشر في بغداد سنة (١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م) منسوبا الى مؤرخنا المذكور وعنوانه (الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة) استندنا في كتابتها الى معجم ابن الفوطي ، ويجد القارىء في خاتمة تلك المقدمة وعدا صريحا من كاتبها بنشر دراسة له في هذا الباب •

بين الاقدام والاحجام

طولبت وما زلت أطالب بانجاز ذلك الوعد • ولكنني كنت أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، فاننا لم نظفر بما يكفي لاشباع البحث وتجويده من الأصول القديمة ، وما ظفرنا به لا يتعدى سدس الكتاب على أكثر تقدير • فان عدد أجزاء المعجم يتراوح من الستة الى الثمانية ، وما زلنا في سبيل التنقيب عن تلك الاجزاء المفقودة ، فأين ذهبت ؟ وهل يصح اليأس من الظفر بها في زوايا الكتب وخزائن الآثار ؟

تحفة من البنجاب

تعرضت تصانيف المؤلف ومن جملتها معجمه الآنف الذكر لشتى الآفات ومنيت بالنقص والتلف ، وهما نقص وتلف تركا في النفس ما تركاه من ألم ومرارة ، وقد شرعنا ، بعد الظفر بالجزء الرابع في المكتبة الظاهرية ، في البحث عن بقية الأجزاء في خزائن كتب مصر والشام والعراق وتركية وايران ونحن نحاول سد ذلك النقص فأعيانا البحث ولم نعثر في خزائن الاقطار المذكورة على ما يشفي الغليل • بيد أن اليأس لا يجد سبيله الى النفس فيما نحن فيه ، ولذلك إتجهنا الى خارج هذه الاقطار للبحث عن ضالتنا المنشودة •

وما هو الا أن تم انشاء المجمع العلمي العراقي في خريف سنة (١٣٦٦ هـ ١٩٤٧ م) حتى جعلنا من مهامه التنقيب عن الاصول المخطوطة التي عنى مؤلفوها بالبحث عن تأريخ

العراق ومن ثم فوتحت بعض الوكالات العراقية الرسمية بذلك ومنها الوكالتان القائمتان فى الباكستان والهند وأحيطتا علما بالغاية من تأليف هذا المجمع وبقيمة ذلك المعجم والعناية المبذولة بجمع شتات أجزائه ، وقد أسفر هذا الاتصال بالديار الباكستانية عن نتائج باهرة • فقد ظهر أن خزانة جامعة لاهور تضم الجزء الخامس من معجم ابن الفوطى المذكور ، وهو كسابقه نسخة الأصل ، وقد اشتمل على حروف عدة ، وهو يترجم لعدد كبير من الأعلام •

ومما يبعث على الغبطة مضافا الى ذلك فطنة بعض الباحثين من الباكستانيين الى قيمة المباحث التأريخية التى يعالجها ابن الفوطى فى معاجمه ، والى طرافتها ونفاستها ، فعنى من عنى منهم بدراسة هذا الاصل الجديد ـ كما فعلنا نحن بصنوه القديم ـ وتوفروا على تحقيقه والتعليق عليه بما يدل على أدب جم وعلم غزير ، وتسنى لهم نشر الجزء المذكور تباعا فى مجلة يصدرها معهد من المعاهد العلمية فى جامعة لاهور وتسمى (أورينتل كالج ميكزين) وقد وصل الى المجمع أكثر أعداد تلك المجلة التى عنيت بنشر الكتاب مهداة من وزارة المعارف الباكستانية ، فاذا هى جوهرة نفيسة وحبة كريمة من حبات هذا السمط المتناثر بين الهند والشام والحجاز ، وقد كانت الفائدة بهذه الهدية المشكورة كبيرة جدا • وألفينا الجزء الخامس مادة تأريخية لا ينضب معينها سواء ما اتصل منها بحياة ابن الفوطى مؤلف الكتاب أو بتأريخ العراق أو بالتأريخ العام ، فهو لا يقل شأنا عن سابقه • وبالعثور على هذا الجزء فى الخزائن الباكستانية أصبح لدينا جزءان هما الرابع والخامس من أجزاء هذا المعجم النفيس •

السر في الاصول

لم يكن لنا مناص من المضى فى دراسة هذا الجزء الجديد كما فعلناه بصنوه القديم ، ومن مهام المؤرخ الثبت افراغ الوسع فى التنقيب عن الأصول وبذل الجهد فى تحقيقها ، فسر التأريخ فى الأصول ، ومتى ضاعت ضاع معها التأريخ ، وقد رأيت كيف كان الخير فى الروية والأناة ، ولو نزلنا على رغبة الراغبين قبل هذا فى نشر الكتاب على علاته لفاتنا وفاتهم علم كثير ، ومن صبر ظفر كما قال الأولون •

من هذه المراحل التى مررنا بها فى أثناء هذه الدراسة التأريخية مرحلة مرحلة ، يتضح لك أننا كابدنا عرق القربة فى التنقيب عن البقية الباقية من آثار ابن الفوطى فى

خزائن الكتب ، فان اكثر تصانيفه ـ وقد أجمع المؤرخون على كثرتها وطرافتها ـ ضاعت واندثرت فلم نحصل بعد الجهد الجهيد الا على جزءين من معجمه وعلى بعض الأصول المغفلة التى نسبت اليه ، ظفرنا ببعضها فى الشام وببعضها فى البنجاب ، ولم نعثر على شيء من مؤلفات هذا المؤلف العراقى فى العراق .

كنوز ضـــائعة

ولسائل ان يسأل : لماذا ضاعت كتب ابن الفوطى وتصانيفه الكثيرة ؟ مع أن تصانيف المؤرخين أو المؤلفين المتأخرين من معاصريه أو القريبين من عصره قد وصلت أو وصل الينا كثير منها ، ومن هذا القبيل تصانيف ابن الجوزى وغيره من المؤرخين .

من رأينا فى الجواب عن هذا السؤال : ان الفتن التى وقعت فى سلطنة أبى سعيد المغولى فى تبريز وغيرها من حواضر المغول ـ وكانت فتنا عميـا احترقت فيهـا مدارس كبيرة وخزائن كتب عظيمة ـ قد أتت على كتبه ، وكان كثير منها فى دور الكتب والمعاهد العلمية التى أنشأها صاحبه أوشيخه ـ كما كان يسميه ـ رشيد الدين الطبيب فى (الربع الرشيدى) المشهور ، ولا يخفى ان ابن الفوطى صنف كثيرا من كتبه وهو مقيم فى الربع المذكور الى جانب صاحبه رشيد الدين وزير المغول ، فهو مستودع كتبه وآثاره . وهناك ـ على ما يبدو لنا ـ أسباب أخرى لها دخل فى تلف كتبه وذلك لأنها كتب روعيت فيها الأمانة وتجردت عن الملق والرياء وقد خرج مؤلفها على المألوف من العادات والأوضاع فلم يحجم عن تسجيل الحقائق التأريخية الواقعـة فى عصره ولو مست مصالح الرؤساء والزعماء ، فهو مثلا يؤرخ موجة من موجات الفكر والنحل الغريبة التى طغت فى عصر المغول ، وهو يترجم لبعض الفلاسفة المتحاملين على الاسلام ولأهل البدع والآراء الشاذة والعقـائد المدخولة ، كمـا يترجم لأرباب الفنون من المطربين والمغنين ، والظاهر أن مجاهرته بما جاهر به من هذا القبيل لم تكن محتملة عند بعض القوم ، ولذلك انطوى من ا نطوى من الزعماء على انكار اسلوبه المذكـور ، وسعى بعضهم فى اتـلاف بعض تصانيفه أو افسادها كما فعلوا بتصانيف شيخه رشيد الدين التى كتب على كثير منها التلف والضياع فى الفتن المذكورة

هذا وقد انتقلت الأمة من بعد هذا العصر الذى عاش فيه ابن الفوطى الى مرحلة مظلمة من مراحل الخمول والسبات العميق ، تغلغل فيها الجهل والجمود وطمست معالم

الحضارة العراقية ، وهي مرحلة طويلة امتدت الى العصور الأخيرة وفيها تباعدت الشقة بين السلف والخلف وتقطعت الأقران والأسباب على وجه لم يسبق له مثيل حتى مسخت سجايا الأمة وماتت فيها روح الاعتزاز بمجدها الغابر وحضارتها العظيمة ، وفي هذه المرحلة الأخيرة خمل ذكر كثير من الأعلام النابهين وعفت آثارهم لقلة العناية بالتأريخ وحفظ الآثار ، وكان في مقدمتهم مؤرخنا المذكور .

مؤرخنا الظافر

لماذا ظفر مؤرخنا المذكور بهذه العناية من كاتب هذه السطور ؟ جوبهنا غير مرة بمثل هذا السؤال ، والحقيقة أن المميزات التي يمتاز بها مؤرخنا على غيره من المؤرخين كفيلة بالجواب .

نشأ ابن الفوطي في عصر من عصور الانتقال دالت فيه دول قديمة وقامت على أنقاضها دول جديدة ، ويعتبر ابن الفوطي مؤرخ العصر الذي دمرت فيه موجة الصحراء التترية معاهد العلم والثقافة ومعالم الحضارة الاسلامية في تركستان وما وراء النهر وبخارى وسمرقند وخراسان وبلاد فارس وامتدت غربا الى بغداد والموصل وحلب والجزيرة وانقرضت بسببها الدولة الخوارزمية ودولة الاسماعيلية في الشرق والدولة العباسية في بغداد والأيوبية في الشام ، وهو عصر يشعر المؤرخون بلهفة الى الوقوف على ما غمض من أحداثه أو ضاع من أخباره أو اندرس من آثاره بعد أن التهمت تلك الفتن ما التهمت من تصانيف المصنفين وأتلفت ما أتلفت من أسفار العلماء والمؤلفين ، فتضاءلت الهمم وانكمش الباحثون الى أن نشأ هذا المؤرخ المجتهد وسار على طريقته الجميلة في البحث والدراسة والحفظ والرواية والتدوين والتأليف وجمع الأصول وانشاء المكتبات وأربى على المتقدمين في الابداع والتجديد وطرافة البحوث والأساليب ، ولولا عنايته بهذا الشأن لفقدنا جانبا كبيرا من تاريخ الحضارة الاسلامية بسبب ما عانته هذه الاقطار في عصره من الفتن والحروب .

بعد المقارنة

قد يقال مثلا : ان ابن الأثير وسبط ابن الجوزي والسلطان أبا الفداء والمقريزي والذهبي وابن كثير وابن الطقطقي وآخرين من المؤرخين ، قد أرخوا هذه الفترة . أرخ بعضهم أولها في عصر (جنكيز) ـ كابن الأثير ـ وألحق جلهم آخرها بأولها ، فأخبار دولة المغول وغزواتهم مدونة في الكامل وفي كتاب العبر ، والخطط ، والسلوك ، ومرآة

الزمان ، وتاريخ الدول الاسلامية للذهبي ، وفي البداية والنهاية ، وناهيك بها وبأمثالها من تواريخ مبسوطة . أجل قد يقال ذلك ولكن في هذا الباب يصح ان تتمثل بقــول القائل : « لكن في الخمر معنى ليس في العنب » ، أي أن البون شاسع بين الطرفين .

من رأينا بعد المقارنة بينه وبين عدد من المؤرخين أن ابن الفوطي مؤرخ موهوب يعتبر التاريخ فنا من الفنون الرفيعة لا يخلط بينه وبين السياسة ، ولهذا المؤرخ رسالة تأريخية لا شك فيها فهو المؤرخ الذي لابس أحداث عصره واندمج اندماجا كليا في الجيل الذي عاش فيه ، وقد شاهد ابن الفوطي بأم عينه وقائع المغول ، وحوصرت بغداد ثم أخذت واسر فيمن أسر من أبنائها وهو حدث السن وحمل الى عاصمة التتار حيث نشأ وأقبل على طلب العلم في تلك البلاد وأتقن عدا لغته لغات عـدة : منهـا الفارسية والتركيـة والمغولية[١] ونظم الشعر في بعض هذه اللغات ، ولعله المؤرخ العراقي الوحيـد الذي طالت أيامه وطارت شهرته في دولة المغول فشاهد أعظم ملوكهم وأقطاب دولتهم في أعظم عصورها وأزهى أيامها ، وذلك من أول سقوط بغداد على يد الطاغية (هولاكو) الى أواخر عصور هذه الدولة (الايلخانية) .

طوف ابن الفوطي في بلاد المغول وزار أشهر حواضرهم وبواديهم واتصل بمن اتصل بهم من ملوك وملكات وحكام وأمراء واجتمع بمن اجتمع بهم من أساطين العلم والفلسفة والثقافة ، أضف الى ذلك أنه خالط الناس على اختلاف طبقاتهم وعني بالكتابة عن شتى الطبقات المذكورة ، واقبل اقبالا منقطع النظير على التصنيف والتدوين وتسجيل الحوادث ووصف الصور والمشاهد وصفا دقيقا يدل على ذوق لطيف وطبع شريف[١] .

وصف مؤرخنا المذكور مظاهر الحياة العامة وخصائص العمران والاجتماع ومجالي الحضارة والثقافة في عصره ورسم لنا من ذلك صورا حية .

صيغ « التمريض » وصيغ « التأكيد »

ومن هذه الناحية ونحوها ظفر ابن الفوطي باهتمام المؤرخين والباحثين وخاصة في هذا الجيل ، فليس بمؤرخ من عني بتسجيل المواليد والوفيات وقضايا العـزل والنصب وأيام الفتن والحروب فحسب ، واكثر من ذلك ليس بمؤرخ من اقتصر على حكاية الاخبار

---

(١) اللباب أو مختارات من مجمع الآداب (٢٤ ، ٦٣) من نسخة الاصل المخطوطـة وهي رسالة للمؤلف .

(٢) مؤرخ العراق ابن الفوطي رسالة لمؤلف الكتاب .

والأقوال أو وقف عند حدود النظر في الكتب والأسفار .

ما أبعد الفرق بين قولهم « يحكى » و « يروى » و « يقال » و « قيل » ـ وما الى ذلك من صيغ « التمريض » والتوهين المعروفة في مصطلح الحديث والتاريخ ، وهي الصيغ التي يكثر ورودها في كتب المؤرخين المتأخرين ، وبين قول القائلين « رأيت » و « شافهت » و « شاهدت » الى غير ذلك من صيغ « التأكيد » والتوثيق كما نراهـا في معجم مؤرخنا المذكور !

ومن ها هنا جاء تفوق ابن الفوطي في فن التأريخ ، والى ما تقدم في هذه الصفحات مرد العناية في التعريف بهذا المؤرخ العراقي الجليل المتفوق على غيره من المؤرخين وذلك بعد اندراس ذكره وضياع آثاره أكثر من خمسمائة عام مع أنه من أجدر المؤرخين ببقاء الذكر لولا عصور الجهل والظلام .

صلة المؤرخ بطبقات الامة

كان ابن الفوطي وثيق الصلة بالطبقتين الحاكمة والمحكومة في عصره على حـد سواء وقد خالط المستخدمين والعمال والمتصرفين وذلك بحكم كونه أحد الذين تقلدوا أعمالا شتى في دولة المغول ، وان كانت صبغة أعماله المذكورة ثقافية أو علمية في الغالب، ولا نبالغ اذا قلنا : ان اكثر خلطائه وأصحابه الذين يسكن اليهم ويأنس بقربهم ويستعين بهم هم من هذه الطبقة أعنى رجال الادارة والأعمال ، وقد عرف كثيرا منهم معرفة تامة ووقف على أحوالهم وشؤونهم فأحبهم وأحبوه ، وذاعت شهرته في محافل القوم وتمكن من الاتصال بدواوين الدولة العليا بدون تكلف أو حجاب ، ومن هذه الناحية ظهرت عنايته في معاجمه بما كتبه عن رجـال الادارة والسياسة والفنون في عصره ، وامتازت هذه المعاجم بأسلوبه هـذا على كثير من معجمات التأريخ التي قصرت عنايتهـا على طبقة معينة من الناس ، فمعاجم ابن الفوطي والحالة هذه من الأصول التي يعتمد على مراجعتها في تأريخ العراق وتأريخ الدولة المغولية في هذه البلاد .

وقف عدد من مؤرخينـا جهودهم على سير رجال الحكم ، أو عنوا بأخبـار طبقة خاصة من الناس فقط ، وقليل منهم من عنى بشؤون العامة وطبقاتهم من زراع وصناع ومهنة ومحترفين ، كأن طبقة العامة لا شأن لها في الحياة مع أنها حجر الزاوية في بناء المجتمع . وفي طليعة القوم عناية بهذا الشأن صاحبنا ، ابن الفوطي ، اذ تكثر في معجمه تراجم أصحاب الأعمال من تجار وأصحاب حرف وفنون عمليـة ، وهم طبقة الشعب

أو السواد الأعظم من النـاس ، وفي هـذا النمط من التواريخ نجـد صورة صادقة لحياة الشعوب .

ضالتنـا المنشودة

كنت أتوق الى الالمام بتأريخ العراق والعراقيين في عصر المغول من حيث خطط هؤلاء الفاتحين ومناهجهـم في أصول الحـكم ، ومن حيث عنايتهم بالشؤون العلميـة والثقافية ، فلم أجد ضالتي الا في بعض مصنفات مؤرخ العراق المشار اليه ، ولا أبالغ اذا قلت : ان معاجمه حافلة بكل ما يدل على أن له رسالة تأريخية ناطقة بأنه مؤرخ ملهـم ميال بكليته الى الابتكار والطرافة ، وحسبنا منه هـذه العنـاية بتأريخ عصره وتراجم الأعلام في زمانه وتسجيل مظاهر الحياة العامة فيه ، وهذه العناية منـه بما تقدم من أظهر مميزاته على غيره من المؤرخين ، اذ لم يعن مؤرخ عربي آخر بتـأريخ الشـرق والعراق في العصر المغولي على الطريقة التي عنى بهـا في معاجمه المذكورة ، ولي أن أقول : انه استوحى نشاطه في ذلك من افتقار الأمة بعد محنتها الكبرى الى من يجمع شتات تأريخها من جديد ، فأنجز وحده عملا تعجز عنه الجماعة واضطلع بعبء ثقيل تنوء به عصبة من الناس .

تأريخنـا القديم

هذا هو أثره في تأريخ عصره . وأما في تأريخ العصور السابقة والدول الماضية قبـل عصره ، فان صاحبنا عيـال على قدماء المؤرخـين ، يغرف من معين كتبهـم بدون ريب ، مع ميل الى الاقتضاب والايجاز ، وقد يقـال انه لم يجهد نفسـه في هذه الناحية من التأريخ ، والواقع أن الفن الذي كان معنيـا به ، وهو البحث عن الأنساب وجمع الألقاب والتنقيب عن المناسبات التي لقب فيها ذووهـا في كتب الأدب والتأريخ ليس من الهنات الهينـات ، بل هو عمل يتطلب جهودا مضنية ، علاوة على طرافة الأسلوب والتفنن فيه . فابن الفوطي على كلا الحالين مؤرخ مجدد ، يمتاز بلطف مداخله وطرافة أساليبه ، بل هو مثال يحتذى في البحث عن الأصول والتنقيب عن الآثار ، وله خبرة لا يجارى بها في هذا الشأن ، ومن النادر أن يحصل مؤرخ على ما حصل عليه من تلك الأصول النادرة كما وكيفا كما سترى في محله من هذا الكتاب ، ومن مميزاته على كثير من المعنيين بالتأريخ ـ مضافا الى ما تقدم ـ مشاركته في الفنون وفي الفلسفة وغير ذلك من المعارف والعلوم النظرية والعملية .

لم يكن ذلك فحسب ، بل كان لأسلوب هذا المؤرخ في مجانبة التكلف والصنعة ومجاراة الطبيعة والفطرة أثر بليغ في نفسي ، وكنت أرى فيما وقع الى من معاجمه مرآة صقيلة ترتسم عليها مشاهد الحياة العامة ، أو لوحة شفافة تتراءى على صفحتها شتى الشخوص والأشباح التأريخية

شخوص وأشباح تمر وتنقضي   وتفنى جميعا والمحرك باق

أتاح لنا تصفح معجماته التأريخية متعة الانتقال على أجنحة الخيال الى الأعصر الخوالي ، ومكننا من طي المسافات الزمنية في لحظات ، فها هي ذي مدينة السلام بغداد ، بعد استيلاء المغول عليها ، وها نحن أولاء نعيش فيها كما عاش ونشاهد الأحوال كما شاهد في ذلك الزمان .

ها هي ذي بغداد حاضرة الدنيا ودار العلم في عصور خلت تسير تبعا لغيرها في كل شيء ، تسيرها روح غريبة ويسيطر عليها الرعب والارهاب وتهيمن على مصاير أهلها سلطة عليا لا تدين بالاسلام ، أطلال خاشعة ، وملامح غريبة ، وألوان مستحيلة ، ولهجات أعجمية غير مألوفة ، وشرائع تتسم بالشدة والصرامة ، وتنأى عن اليسر والسماحة ، والناس هنا وهناك غير من كنا نعهد في أزيائهم وعاداتهم وفي نحلهم وأخلاقهم[١] .

ها هي ذي جحافل دولة قاهرة لا عدد لجيوشها تحتل العراق وترابط في الحدود وتسوم الناس خطة من الضيم والخسف لا تطاق ، كنا نعهد في مدينة السلام عددا كبيرا من المدارس وجمهرة عظيمة من الأساتذة والعلماء خلت منهم بغداد الا قليلا ، وقد أبيد أكثرهم قتلا وأسرا وموتانا بعد الواقعة ، فلا مدارس ولا دراسة .

كنت وأنا أسرح الطرف في رياض مجاميعه كأنني شريكه في أسفاره هذه حلا وترحالا ، فها أنا ذا أراه وقد أفرج عنه بعد غياب طويل عائدا الى مدينة السلام[٢] قافلا الى ملاعب الصبا ومنازل العشيرة ومعاهد الأحباب يسرح في أرجائها طرفا حائرا وبصرا

(١) راجع الفصول المتعلقة بعصر المغول من هذا الكتاب عن تقليد الناس في العراق للجيل الفاتح .

(٢) أسر ابن الفوطي في واقعة بغداد سنة (٦٥٦ هـ) ولم يتمكن من الرجوع اليها الا في سنة (٦٧٨هـ) ، وصفحات معجمه المذكور طافحة بأعماله بعد الافراج عنه واجتماعه بمن تخلف في بغداد من العلماء والأعيان وبحثه عن الأنساب وطلبه للأخبار .

سادرا منشدا ما قاله قبله الشريف الرضى فى بغداد :

ولقد مررت على ديارهم وطلولهـا بيد البلى نهب
فتلفتت عينى ، فمذ خفيت عنى الطلول تلفت القلب

كنا ننتقل مع صاحبنـا من حاضرة الى أخرى ، أو من معسكر الى ثان فى العراق وبلاد فارس وأقاليم الترك ، نرحل برحيله ، ونتزل بنزوله ، فنشاهد فتى يافعـا عربى الملامح منصبا على البحث والدرس ، لا يلهيه عن المفاوضة والمذاكرة شيء • صحبناه فى دور الكتب وأسواقها وخزائنها ، اذ كان حيثما نزل يقصد معاهد العلم وبيوت الدراسة ، وقد صرنا نختلف معه الى البقية الباقية من العلماء والأدباء ، رأيناه أينما حل بعد قفوله الى بغداد يوجه المسألة تلو المسألة الى كل من يلقاه فيها عما جرى من بعده وكيف جرى مما له علاقة بتأريخ العراق بعد الواقعة ، ثم يبادر الى تقييده فى دفاتر يحملها ومجلدات عدة يستصحبهـا لا شغل له الا ترصيع دفاتره المذكورة بتدوين الأحـداث وتراجـم الأعـلام •

بهذا وما شاكله كان ابن الفوطى يؤدى جانبا لا يستهان به من رسالته التأريخيـة ويقوم بما فرضه على نفسه من حفظ تأريخ الشرق والعراق وبغداد فى تلك العصور •

فى الزوايا خبايا

هذا ولم تخل بغداد حتى بعد محنتها الكبرى من طبقة تكبر مواهب الرجال ، وتعنى بالمهذبين من أبنائها ، وقد بقيت بقية فى البلاد تعتز بأمثال ابن الفوطى من أبنائها النابهين ، وتعدهم مفخرة من مفاخر العراق ، وقد أطرى فريقا من أعيان بغداد لعناية بالغة ظهرت منهم فى تزكيته وتكريمه والأخذ بيده فى محنة ألمت به وانقاذه من مأزق حرج وقع فيه وقضية استوجبت محاكمته والتحقيق معه فى مجلس قاضى القضاة ، وقد أثارت هذه القضية خواطر أولئك الصدور والأعيان ، فأشادوا بفضله وعنايته بالتواريخ والأنساب ، والمجلس منعقد لاستجوابه والتحقيق معه ، وكان لهذه الشهادة دخل فى براءة ساحته ، وحمل قاضى قضاة المغول على الاعتذار عما فرط منه مع المؤرخ المذكور[1] •

---

(١) راجع عن هذه المحنة وعن أسماء هـذه الطبقة من الأعلام ـ ترجمة فخرالدين المعروف بابن الفقيه الصدر فى باب الملقبين بهذا اللقب من الجزء الرابع ، ومن هذه القصة ومن مواضع أخرى فى المعجم يتضح لنـا أن ابن الفوطى كان يتولى ضمـان ريع بعض الأوقاف أو يتقلد بعض الأعمال فى هذا الشأن •

ولنا أن نستنتج من هذه الحادثة أو المحنة أن بغداد لم تخل فى هذا العصر العصيب من طبقة مهذبة ترعى حقوق المنقطعين للدراسة والتأليف ، وان ابن الفوطى حيثما وجد كان محاطا بهالة من الاعجاب • ولا عجب ، فهو مؤرخ العراق المحبوب فى محافل المغول ومحافل العراقيين على حد سواء ، وهو العراقى المجلى فى تحصيل المعارف والفنون والحافظ المعنى بشؤون الشرق ، وتأريخ العراق من بعد أسره الى أن أطلق وأعيد الى بغداد ، وما أكثر الأمثلة فى معجمه على ذلك(٢) !

الفرص السانحة

أتيحت لهذا المؤرخ فرص ثمينة أحسن انتهازها فى الاكثار من التصنيف ، ووفق فيها للتجويد فى التأليف ، من ذلك امتداد حياته ، فانه عاش أكثر من ثمانين عاما كان خلالها حركة دائمة ونموذجا من العمل ، ومنها كثرة أسفاره وانتقاله بين العراق وسائر الممالك التى استولى عليها المغول ، فرأى كثيرا من الأقوام والشعوب ، بل رأى نماذج من أشهر شعوب الشرق بأسرها فى عصره ، واتصل بأرقى طبقاتها فى قفقاسية وفارس والعراق ، وأدرك ما أدرك من أحداثها الخطيرة ، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها على قدر الامكان ، ومن ذلك شهرة واسعة فى الانقطاع للدراسة والتأليف ، والعناية بالتأريخ حببته الى القلوب ، وأدنت منزلته من أعيان عصره وصدور زمانه فلم يحرم من العطف والتشجيع •

وقعت لمؤرخنا فى كل بلد زاره ، أو أقام فيه من تلك البلدان ، أصول تأريخية ، واطلع على كتب وأسفار مجردة فى شتى الموضوعات لم يتسن لغيره الاطلاع عليها على الأكثر ، فتهيأ له أن يجمع من تلك الأصول التى نعتبرها الآن أو نعتبر أكثرها من الآثار الضائعة مادة تأريخية غزيرة هى قوام معاجمه وتصانيفه ، فلنا أن نقول : ان معاجمه ،

---

(١) من تلك الأمثلة الدالة على شغفه بالبحث وولعه بالمذاكرة ما جاء فى ترجمة قوام‌الدين محمد بن عبدالرحمن المحدث ، وهذا نصه : « رأيته بموقان فى المخيم السلطانى سنة (٧٠٦ هـ) ، وهو شيخ حسن الهيئة ، وفاوضته فى ذكر علماء أصفهان » وقال فى ترجمة مجيرالدين الاسعردى ، الطبيب المعروف بـ « ابن‌كاسو » ما هذا نصه : « قدم بغداد للاشتغال بعلم الطب ، وكنت أتردد اليه ، مدة مقامه بالمستنصرية ، وأتعرف منه أخبار ديار بكر ، وكان عالما بأحوالها وملوكها ورؤسائها » • هذا نص ما قاله فى ترجمة الاسعردى (٥ : ٣٠٧) ومن ذلك يعلم مبلغ شغفه بطلب العلم والتأريخ ، والأمثلة فى كتابه كثيرة من هذا القبيل •

والحالة هذه ، دائرة معارف تأريخية تضمنت خلاصة عدد ضخم من الأصول المفقودة والأسفار الضائعة ، أو هي تحتوي على مختارات من الكتب المذكورة •

نزيل مراغة وأسير المغول

توافرت له وهو نزيل « مراغة » كل أدوات الدراسة والتأليف من أساتذة كبار اليهم تضرب أكباد الابل وتشد الرحال ، الى معاهد علمية عالية وخزائن كتب ضخمة ، فعاش وهو بغدادي المولد شيباني النجار في بيئة أعجمية نائية ما خامره فيها قط شعور الغرباء الا برهة يسيرة ، لأنه استخدم ذكاءه ومواهبه فيها الى مدى بعيد ، فتقلد ما تقلد من أعمال علمية في مراغة وتبريز والسلطانية وغيرها من حواضر المغول ، وفوض اليه ما فوض من مهام ثقافية في أذربيجان والعراق زاولها بجد واخلاص ، وكانت سلوته في دار غربته عظيمة بما وجد من أعمال ومن وجد من معارف وأصدقاء ، وخير البلاد ما حملك ـ كما جاء في حكمة العرب ـ أي خير البلاد ما عشت فيه عزيز الجانب موفور الكرامة •

خطتنا المرسومة

أهم الأصول التي استندنا اليها في هذا البحث ثلاثة : اثنان منها لابن الفوطي على وجه التحقيق ، وهما الجزءان الرابع والخامس من أجزاء معجمه ، والثالث جزء مغفل نشر سنة (١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م) منسوبا الى ابن الفوطي باسم (الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة) • ومن رأى بعض المعنيين بالبحث عن الأصول المخطوطة أن مؤلف الكتاب لا يزال مجهولا الى الآن ، بيد أن هذا الشك لا يقلل من شأن هذا الكتاب فيما نحن فيه ، لأن مؤلفه اذا كان مؤرخا آخر فهو من طبقة ابن الفوطي أو القريبين منها على كل حال ، لأن عدد العراقيين المعنيين بتأريخ بلادهم في تلك الفترة المظلمة ـ أي بعد واقعة بغداد ـ أقل من القليل •

لو لا عثورنا على ما عثرنا عليه من هذه الأصول ، ولو لا بذل الجهد في تحقيقها على قدر الامكان ، لأحجمنا عن الخوض في هذا الموضوع ، وكيف نخوض في موضوع لا سند لنا فيه الا الأقوال المرسلة ونقلها على علاتها ، ولا برهان لنا الا مجرد الحدس والتخمين ؟

تقضي خطتنا المرسومة فيما نحن بصدده ألا نقتصر على روايات المؤرخين ـ الواردة

فى أسفارهم ـ عن تأريخ العراق فى هذه الفترة ، أو المتعلقة بسيرة صاحبنا ابن الفوطى ، ومنهم من تأخر عن عصره بمئات من السنين ، بل لابد من الرجوع الى الأصول ـ أى المصادر الأصلية ـ بعد التوفر على تحقيقها قدر الطاقة ، وبهذه الوسيلة تجنبنا التورط فى أغلاط أولئك المؤرخين وأوهامهم ، وتحاشينا مشاركتهم فى بعض مقالاتهم وأحكامهم ، سواء منها ما كان لابن الفوطى أو عليه ، لأن كثيرا من أولئك المؤرخين المتأخرين ناقلون أو مقلدون ، فرواياتهم ضعيفة سندا ومتنا فى كثير من الأحوال ، على أننا لم نغفل ـ مع ذلك ـ مقالاتهم بالمرة ، بل اقتبسنا منها ما توسمنا فى اقتباسه فائدة بعد عرضه على موازين النقد والتمحيص .

أبواب الكتاب

الباب الأول ـ وهو مدخل البحث ـ فى الدولة العباسية من بدايتها الى نهايتها ، وفى آخره بحث خاص فى عصر المغول ، ويتخلل هذا الباب نظرات فى بعض القضايا التأريخية ، ومنها محنة العراق فى عصر المغول والعوامل الفعالة فى زوال الدولة العباسية ، وأبحاث أخرى فى حضارة العصر المذكور وثقافته وفى أحوال العراق والعراقيين فى كنف الدولة الايلخانية ، وفيما جد فى ميادين النظر والفكر من أدب وتصوف وفلسفة وما الى ذلك من مظاهر نشاط العقل البشرى ، وقد عقدنا فصلا خاصا للبحث فى أشهر مؤرخى العراق بعد ظهور المغول .

الباب الثانى ـ فى أصول البحث ، بحثنا فيه الأصول والكتب التى استندنا اليها أصلا أصلا وكتابا كتابا .

الباب الثالث ـ بحث موضوعه معجم ابن الفوطى فى كتب المؤرخين .

الباب الرابع ـ فى الأصول التى استند اليها ابن الفوطى فى تأليف معجمه المذكور .

الباب الخامس ـ فى أشهر مشايخ اجازاته ، وأساتذته ، وأجل معارفه وأصحابه ، وأنجب تلامذته فى أذربيجان والعراق .

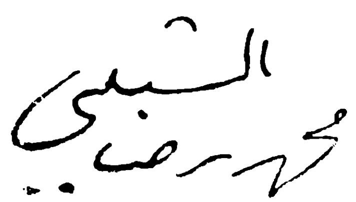
الباب السادس ـ مؤلفات ابن الفوطى .

الباب السابع ـ تعريف قدماء المؤرخين بابن الفوطى .

الباب الثامن ـ طرائف شتى من المعجم .

هذا ، ويخيل الى أن هذا الكتاب قد سد بعض الفراغ فى موضوعه ، وهو فراغ

رأينا المعنيين بالتأريخ يشعرون بوجوده . ولابد لى من القول انني عنيت بتأليفه فى الفترة الواقعة بين الحربين الكونيتين الأولى والثانيــة وما تخللهــا من أحداث أو مشكلات ، وما اعترض سـبيل الباحثين أو المنقطعين للدرس فيهـــا من عقبات الى اليوم ، فلا غرو اذا افتقر الكتــاب الى مزيد من التعمق أو التوسع فى بعض الفصول والأبواب ، فانني لا أدعى فيه الكمال ولا آمن من الزلل والعثار ، ولذلك أرجو ممن يعثر على شيء من هذا القبيل فيه ارشادنا الى الصواب وموافاتنا بما يعن له من ملاحظات ـ بعد الاستقصاء والتحقيق ـ والله ولى التوفيق ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .



٢٩ المحرم الحرام سنة ١٣٧٠هـ .

١١ تشرين الثانى سنة ١٩٥٠م .

مدخل البحث

الدولة العباسية
من
بدايتها الى نهايتها

تمهيد

مآخذ البحث فى التأريخ • الأصول القديمة • أبحاث المستشرقين الجديدة • فرق المستشرقين • ضرر التقليد

كانت مآخذ البحث فى التأريخ الاسلامى حتى مستهل هذه المئة الرابعة عشرة – عندنا – قاصرة على القديم من كتب المؤلفين فى السير والتواريخ والأنساب والطبقات وكتب الفتوح ، وما الى ذلك ، ومن أقدمها وأشهرها تأريخ الطبرى وكتب الواقدى والبلاذرى وابن قتيبة وطبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام ، ويليها كتب المسعودى والجهشيارى ومسكويه وابن طيفور والصولى والصابى وتأريخ الخطيب البغدادى وتأريخ دمشق لابن عساكر وتأريخ ابن الأثير ، وذيول هذه التواريخ لأشهر المؤرخين العراقيين والشاميين الى مؤلفات الطبقات الأخيرة من المؤرخين •

ندر من بين المؤلفين أو الباحثين – عندنا – الى ذلك الحين من وقف على أبحاث علماء الغرب فى علوم العرب والاسلام ومآخذها من الأصول النادرة حتى اتصل الشرق بالغرب ، وزالت الحواجز التى كانت تحجز بيننا وبين البلاد الغربية ، وألغيت المسافات بسبب أحدث وسائل الأسفار •

من ثم عنى من عنى من العرب بتحصيل لغات الغربيين وعلومهم فى بلادهم نفسها ، وطالعوا ما نشر لهم من أبحاث تأريخية وغير تأريخية عن الشرق والاسلام ، واطلعوا على أساليبهم فى التأليف ، فأصبحت هذه الكتب والدراسات الغربية الحديثة من أهم مآخذ

المؤرخين المحدثين فى هـذه البلاد •

لا غرو اذا حذا المتعلمون من أهل هذا الجيل حذو بعض الأساتذة الغربيين ومالوا الى مناهجهم فى البحث والتأليف ، فان للكتب التى يعنى الغربيون بتأليفها مميزات تمتاز بهـا عن كتب المؤلفين من الشرقيين من حيث تنسيق موادها وتقريب مطالبهـا علاوة على ما فيها من دقة النظر وعمق التفكير • ولكن لابد لنا من القول : ان لمجاراة الغربيين فى هـذا البـاب حدا ينبغى الوقوف عنده والا أصبحت مجاراتهم وترسم خطاهم ضربا من ضروب التقليد المعيب ، كما يفعل ذلك الآن بعض المتعلمين فى البلاد الشرقية •

قد يكون لاتكالنـا على حذق الغربيين فى تنظيم بعض الشؤون المـادية أو الفنون الصناعية سبب من تخلف الشرق فى هذا المضمار ، وان كان الشرقيون ملومين فى هـذا التقصير ، بيد أننـا لا نرى وجها لاتكالنـا على الغربيين أو المستشرقين منهم فى درس ما يتعلق بتأريخنا أو تأريخ آداب لغتنا على الاطلاق ، ولا نجد سببا للتعويل على أبحاثهم فى هذا الشأن على علاتها وعلى ما فيها من الغث والسمين •

ويلاحظ أن بين المستشرقين فرقا وأحزابا ، ولا شك أن عـدد الأعـلام المنصفين والفحول المتضلعين منهم ليس بالقليل ، وفضل هذا الصنف لا ينكر فى نشر جانب من تراث العرب واثارة كنوزهم الدفينة ، وقد بلغ بعضهم فى التحقيق والتنقيب غاية بعيدة • ووجدنا فى هذه الطبقة من المستشرقين من يترفع عن الدس والغض من حضارة الشرق والاسلام ، ولكن الى جانب هؤلاء توجد طبقة أخرى عمدت فى بعض ما يكتب وينشر لها الى دس السم فى الدسم وبذر بذور الشقاق ، بل وجدناهـا تعالج البحث فى تأريخنـا الاسلامى على شكل يثير التفرقة وخاصة بين شبابنـا الناشىء المتعلم فى عصر ، هم أحوج ما يكونون فيه الى الاتحاد ودفن الحزازات •

ما أكثر أوهـام هـذه الطبقة من المستشرقين وما أتفه بضاعتهـا من لغـة العرب وتأريخهم ، وقد أبت العربيـــة أن تبوح بأسرارهـا لكثير منهم فضلت أفهامهم فى فهـم ما قرأوه من النصوص فيهـا وراحوا يخبطون خبط عشـواء وضل معهـم من ضل من المقلدين ، ثم ألا ترى أن لكثير منهم فى ناحية الشؤون الأخلاقية والسياسية وغير ذلك مقاييس تختلف عن مقاييس شعوب الشرق فى كثير من الأحيان ، هذا وأنكى من ذلك أن يطرس على آثارهم بعض المتعلمين من الشرقيين ، واذا عذرنا هذه الفئة من المستشرقين فيما يصدر عنهم من هذا القبيل طبقا لأغراضهم أو أغراض دولهم وأطماعهـا فما عـذر

هذه الزمرة من أبنـاء الشرق فى انتحال تلك الآراء الدخيلـة ونقل ما كتب فيهـا الى العربية ؟ وليس الغلو والشطط من أخلاق العرب فى شىء وهما حجة قوية لمـن يطعن فى عروبة هؤلاء المقلدين وفى أنسابهـم المنتحلـة ، وكم جنى الغلو على حقائق العـلم والتـأريخ !

اذا رأينا بعض هؤلاء المتأخرين من المستشـرقين يضلعون مع بيت عريق من بيوت العرب أو يتحاملون على بيت آخر أو يندون بنحلة من النحل أو يؤيدون نحلة أخرى أو يفرقون بين عرب الشام وعرب العراق فى هذا العصر ، فاعلم أن لهم أو لبعض دولهم المسيطرة على ديار الاسلام ما لها من الأغراض السياسية أو الدينيـة فى ذلك ، هـذا والمغرور من شباب العرب من اغتر بهذا النمط من المستشرقين وجاراهم فى شـططهم ودسهم أو نسج على منوالهم فيما ينشرون ويكتبون •

هذه كلمة مهدنا بها لما نحن بصدده من البحث عن الدولة العباسية ، وهذا حـين نتقدم اليك بالبحث المذكور •

دولة بنى العباس

تمخض العالم الاسلامى فى مستهل المئة الثانية عن حركة سياسية جديدة الا أنها حركة قوية فى بواعثها وتنظيمها ، وهى الدعوة الى انتزاع الملك من بنى مروان ، وكانت الدولة الأموية تجتاز فى مستهل المئة المذكورة الثلث الأخير من المئة التى عاشت فيها ؟ لأن جميع ملك بنى أمية احدى وتسعون سنة أو نحو ذلك ، كما كانت كثرة الشعوب فى الدولة تتململ من الفتن وتئن من الجور وتستغيث من العبث بالمصالح العامة ، بل كان كل شىء فى العصر المذكور يهيىء الأذهان لقبول الدعوة الجديدة .

نبتت الدعوة الهاشمية ووضعت أسسها وقواعدها فى البلقاء من أصقاع الشام الى الجنوب بينها وبين وادى القرى ، وكانت عمان وهى الحاضرة المعروفة الآن قصبة الكورة المذكورة ، ومنها أى من البلقاء خرج المبشرون بهذه الدعوة الى الأمصار على يد محمد ابن على العباسى ربان هذه الحركة فى مطلع القرن المذكور . ثم انتقل الدعاة الى العراق وخراسان ، ويلاحظ أن النقباء الذين اختيروا للقيام بنشر الدعوة وعددهم اثنا عشر نقيبا من آحاد الرجال فى الدراية والكفاية ، ومع أن عمال الدولة الأموية فى العراق وخراسان لم يألوا جهدا فى مقارعة الدعاة وأخذهم بالشدة والتنكيل خصوصا فى خراسان الا أن ذلك زاد البقية الباقية منهم مضاء واصرارا على نشر دعوتهم ، وفى سنة ١٣٢ أى بعد مضى ثلاثين عاما على الشروع بالدعوة الهاشمية أعلنت الثورة العامة فى الشرق بأسره أى فى خراسان وفارس والعراق اذا استثنينا بعض الجهات النائية .

مروان الجعدى

وكان مروان بن محمد بن مروان المعروف بالجعدى على رأس جيش ضخم قدر عدده بمئة وعشرين الفا قوامه نخبة من أهل الشام وأشهر قبائلها [1] يحاول الزحف بهم على العراق من الجزيرة .

كان جيش الجعدى ضخما حقا من حيث العدد فقط ولكنه فى منتهى الضعف من حيث روحه ومن حيث معنوياته ، فقد كانت روح الهزيمة والتواكل فاشية فيه ، بل كان

---

(١) انظر عن أسماء القبائل التى كانت فى جيش مروان – ومنهم قضاعة والسكاسك والسكون – الكامل لابن الأثير (٥/٢٠٠) .

جنده يتحدى أوامره ويجاهر بعصيانه[1] الى غير ذلك من المساوىء الشائعة بين أفراد الجيش وقواده على حد سواء ، وهو من هذه الناحية يختلف عن جيش بنى العباس .

الوقعة الحاسمة وموضع العبرة فيها

وكانت الواقعة الحاسمة بين الفريقين على الزاب الكبير أو الصغير فى قول[2] ، وفيها اندحر مروان وظفر عبدالله بن على عم السفاح بالجيش الأموى كله ، ويلاحظ أن جل قواد الجيش العباسى الذى قاتل مروان الجعدى بقيادة عم السفاح المذكور من زعماء العرب المعروفين ، ولوحق مروان وهو هارب بعد واقعة الزاب حتى قتل فى مصر فى السنة المذكورة .

وموضع العبرة فى هزيمة مروان هو الخذلان العام ، فانه ـ وهو يتنقل بين شواطىء دجلة الى شواطىء النيل وبين أحياء العرب وحواضرهم فى هذه الرقعة الشاسعة ـ لم يجد كهفا يأوى اليه أو أحدا يحميه ، ويلاحظ أن هذه الوقعة الحاسمة التى أسفرت عن هزيمة مروان على الشكل الذى انهزم به لم تثر دهشة أو استغرابا فى نفوس أهل الشام ، وقد استقبل هذا الحادث بشىء غير متوقع من رباطة الجأش فى عاصمة الأمويين ، وأكثر من ذلك أنا نجد أهل دمشق وحمص والأردن وفلسطين وثبوا على فلول الجيش المهزوم وأعملوا السيف فى من يليهم من عسكر مروان ونهبوا أمواله وذخائره ، ولا عجب فان الديار الشامية كغيرها ـ فى ذلك الحين ـ سئمت الفتن والفوضى وزهدت فى تأييد قوم انغمسوا بالترف الى الأذقان وشغلوا باللذات عن مصالح الناس ، وكان عدد المطعونين فى دياناتهم من الأمويين غير قليل فى العصر المذكور[3] .

علائم الادبار

كانت تجيش فى نفس مروان بعد اشرافه على الهزيمة أمور غريبة تخل بمركزه فى الدولة وتنافى مصلحة الأمة ، ومن ذلك أنه فكر وهو على مقربة من الحدود بالخروج

---

(١) أنظر عن روح الهزيمة فى جيش مروان المصدر نفسه ، وانظر عن حالة هذا الجيش الآداب السلطانية لابن الطقطقى (١٠٦) .

(٢) كانت الوقعة المذكورة على أحد الزابين بلا شك ، والأغلب أنه الزاب الكبير . وفى بعض كتب التأريخ أنه الزاب الصغير أنظر المروج (٢/١٤٦) .

(٣) أنظر عن انقلاب القبائل بين الجزيرة ومصر على مروان المروج (٢/١٤٩) والكامل (٥/٢٠٢ ـ ٢٠٣) .

الى بلاد الروم والالتجاء اليهم الا أن بعض من استشارهم فندوا رأيه فى تحكيم أعداء الاسلام بنفسه وبأهل بيته ومن ينتمى اليه ، وما هؤلاء الأعداء الا الروم الذين لا يعرف عنهم الوفاء ، فعدل عن ذلك[1] ، وهذه من مروان الجعدى خواطر تدل على منتهى الحيرة والارتباك .

انقرضت بمقتل مروان الجعدى دولة الأمويين فى الشرق ، وخلفتها الدولة العباسية ، واذا استثنينا بعض الانتفاضات المتفرقة فى الجزيرة ،وفى جيوب من بادية قنسرين ، وحوران ، والبلقاء قام بها بعد واقعة الزاب بعض قواد مروان أو بعض الزعماء الذين تربطهم به رابطة مودة قديمة ، فلا نجد أثرا للمقاومة فى البلاد الشامية وما اليها ، وليس فى الانتفاضات المذكورة ما يعبر عن رغبة يعتد بها فى الانتصار لبنى مروان ، كما توهم بعض الشرقيين أو المستشرقين ، وقد نشأ بعضها عن الشك فى مقتل مروان ، فلما اتضحت لهم الحقيقة ألقوا السلاح ، ولا يستغرب حدوث مثل هذه القلاقل فى ذلك الحين[2] .

الجيش والسياسة :

وقد رأينا أثر السياسة والعصبية القبلية معا فى خذلان مروان ، وفى ظفر العباسيين به ، فكيف تسرب الفساد الى ذلك الجيش ؟

من رأى بعض المؤرخين ، أن مرد ذلك الى أثر الدعوة الهاشمية ، وليس هذا الرأى بشىء ، وان كنا لا ننكر بعض الاثر للدعوة المذكورة فى جيش مروان .

اذا تأملنا تأريخ الدولة الأموية ، لاحظنا أنه طافح بأخبار التحزب والعصبيات ، فمن ذلك عصبية قيس وكلب ، وعصبية قيس وتغلب فى أيام عبدالملك بن مروان ، وكانت كلب مروانية ، وقيس زبيرية ، وفى هذه الفترة انشق الأمراء من بنى أمية على أنفسهم ، واختلفوا باختلاف أمهاتهم من كلبيات وقيسيات ، وكاد يكون بينهم شر [3]. ومن أشهر

(١) أنظر عن خواطر مروان الجعدى وتفنيد رأيه فى هذا الباب مروج الذهب (١٤٨/٢ ـ ١٤٩) .

(٢) أنظر عنهذه الانتفاضات تأريخالأمم والملوك للطبرى (١٣٧/٩-١٣٩) ، والكامل لابن الأثير (٢٠٦/٥) ، وانظر عن أشهر قواد الجيش العباسى فى واقعة الزاب المصدر المذكور (١٩٩) .

(٣) راجع عن الاختلاف بين القيسية واليمانية فى الشام والحرب بينهم فى مرج راهط البيان والتبيين (١١٦/١) والعقد الفريد (١٤٥/٣-١٤٨) ، وانظر عن الحرب المذكورة فى مرج راهط بين مروان بن الحكم والضحاك بن قيس ، الاستيعاب لابن عبدالبر (٢٧٢/١-٢٧٣) و (٣٣٥-٣٣٦) .

هذه العصبيات ما حدث بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، أو بين العدنانية واليمانية ، فى الشام وغير الشام وأينما وجدت القبائل المذكورة ، ولم تسلم منها الأقطار الأندلسية(١) •

حدث هذا الانشقاق فى صدر الدولة الأموية ، واستمرت نار الفتن تضطرم طوال العصر الأموى ، وشطرا من عصر بنى العباس ، وأدى ذلك الى اعتزاز القبائل المذكورة ، من عدنانية وقحطانية وقيسية وكلبية وتغلبية بدعوة الجاهلية • وكتب التأريخ الاسلامى طافحة بأخبار الفتن والحروب الناشئة عن هذه العصبيات الذميمة ، ولا يبالغ من يقول : انها من أهم العوامل فى تقويض دعائم الدولة الأموية •

الى هذه العصبيات مرد ذلك الفساد والتحزب الذى رأيناه فى جيش مروان ، فان مروان تعصب لقومه من نزار على اليمن ، وكان حجابه يقدمون القيسية ويؤخرون القحطانية ، ويسمعونهم فى مجلسه وعلى بابه كلمات نابية تشعر باحتقار اليمن واليمانية ، كما كان ابن هبيرة صاحب شرطة مروان ينقل لأهل اليمن أقوالا يزعم قائلوها بأن اليمانيين تناسلوا من القرود الى غير ذلك من المفتريات(٢) • ولعل أصل هذه الخرافات ما جاء فى بعض الروايات من أن أحد ملوك اليمن سبى قوما منكرى الوجوه تزعم اليمن أنهم النسناس(٣) • بيد أن اليمانيين أفحموا ابن هبيرة ، ودافعوا عن محتدهم دفاعا مجيدا أثار اعجاب مروان ، وقد أضحكه هذا الجدل الغريب بين اليمانية والنزارية ، ولعل (دارون) صاحب مذهب النشوء والارتقاء كان عيالا على ابن هبيرة فى مذهبه المذكور • ومجمل القول : بلغ الجفاء بين هذين الحيين من العرب حدا بعيدا فى العصر الأموى المشار اليه ، مع قرب العهد بدعوة الاسلام ، وهى دعوة تمكنت من صهر النعرات القبلية الغالية ، وأذابتها فى وحدة اجتماعية منقطعة النظير • ومهما كان منشأ هذه الشحناء بين

---

(١) من أوفى المراجع فى ذكر هذه الأحداث والأيام أيام القبائل المذكورة وحروبها ــ وهى حروب طاحنة كثيرة ــ كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى (٥/٣١١) ، وأنظر (٣٠٨ــ٣٣١) من الجزء المذكور ــ ط القدس ، ومهذب تأريخ دمشق لابن عساكر (٥/٧ و٣٧٦) و (٧/٤ــ٩) ويراجع المصدر المذكور (١٧٦ــ١٩٣) عن زعيم قيس وفارسها فى هذه الفتنة ، وهو أبو الهيذام المرى ، وعن أخباره ومن قتل فى الفتنة المذكورة من زعماء العرب ، وانظر خزانة الأدب للبغدادى (٢/٣٢٥ــ٣٢٦) •

(٢) أنظر عن ذلك وعن كيفية استقبال ابن هبيرة لليمانية على باب مروان ، مهذب تأريخ دمشق لابن عساكر (٥/٤٠٤) •

(٣) يراجع فى هذا الشأن سيرة ذى الأذغار من ملوك اليمن القدماء •

القبائل العربية ، فلا شك أن لخرق فريق من الأمويين وسوء تصرف رهط من عمالهم أثرا كبيرا فى تأجج نيران الضغائن المذكورة بعد الاسلام ، وهكذا انحرف عرب اليمن عن الأمويين ، وأصبحوا من أنصار الدعوة الهاشمية ، وقد هاجت هذه الفتن بعد ذلك مرارا ، وهى من أشهر الفتن فى تأريخ الدول الاسلامية(١) .

السياسة الخرقاء :

وكانت ولاية نصر بن سيار على خراسان من قبل الأمويين شؤما عليهم مع اخلاصه وتفانية فى سبيلهم ، ومع شدة وطأته على دعاة بنى العباس ، وتنكيله بهم . والى هذه السياسة الخرقاء مرد تلك الفتن والخصومات العنيفة التى نجمت بين أحياء العرب فى خراسان ، وفى أيام نصر هذه ، أى فى سنة **١٢٦**هـ تفاقم الجفاء بين النزارية واليمانية فى تلك البلاد ، اذ كان نصر يضلع مع النزارية على اليمانية ، وكان للازد وغيرهم من اليمانية زعماؤهم وفى مقدمتهم (جديع بن على الأزدى المعنى) زعيم اليمانيين المعروف بـ (الكرمانى) ، وقد سفكت بسببه دماء غزيرة من عرب خراسان فى هذا النزاع(٢) .

كانت هذه العصبية القبلية وما شجر بسببها من الخلاف ، من أهم العوامل فى اكتساح الدعوة العباسية للأقطار الخراسانية من أولها الى آخرها ، وهى التى يسرت لصاحب الدعوة العباسية أبى مسلم الخراسانى السيطرة التامة على تلك البلاد(٣) ، وقد تعددت المعارك الدامية بين القبيلين فى مرو بزعامة الكرمانى من جهة ، وفرسان ربيعة وشيبان من جهة أخرى بزعامة نصر بن سيار ، وفى بعض هذه المعارك قتل الكرمانى زعيم اليمانيين(٤) .

---

(١) أنظر عن هياج هذه الفتنة بدمشق فى أيام الرشيد الأخبار الطوال (٣٦٦) ، والكامل لابن الأثير (٦/٥٤) ، وراجع أيضا المصدر نفسه (٦/٧٥ ـ ٧٦) ، ولاحظ ما جاء فى كتبهم من الاختلاف فى تاريخ وقوع الفتنة .

(٢) تجد ترجمة نصر بن سيار أمير خراسان فى الدولة الأموية ـ وأول من ولاه هشام بن عبدالملك ـ فى خزانة الأدب للبغدادى (٢/١٩٣) ، وفى جمهرة النسب .

(٣) أنظر حكاية الخلاف بين اليمانية والنزارية فى خراسان وأسبابه ، تأريخ الطبرى (٩/٣٧) ، والكامل لابن الأثير (٥/١٤٣ـ١٤٥) .

(٤) راجع عن المعارك المذكورة بين النزارية واليمانية فى مرو ، الكامل (٥/١٧٢ـ١٧٣) ، وعن ظفر نصر بن سيار بالكرمانى وقتله (٥/١٧٢ـ١٧٣) . وانظر عن غلبة الأزد بزعامة الكرمانى الأزدى على مرو قاعدة خراسان ـ المصدر المذكور (١٦٢ و١٧٢) ، وعن ظفر نصر بن سيار بالكرمانى وقتله المصدر عينه (١٧٣) ، وقد أجهز أبو مسلم الخراسانى على بقية آل الكرمانى من أولاده وأصحابه بعد ذلك ، أنظر الكامل (٥/١٨٢ ـ ١٨٣) .

أهـواء متوارثة :

تذكرت قبائل العرب فى هذا العصر ما وقع بينها من الحروب الطاحنة فى القرون الجاهلية الخالية ، وكانت هذه الحروب ســجالا طورا للقحطانيــين على النزاريين وتارة بالعكس ، ومن أشهرها حروب تبع الأكبر والحروب الناجمة عن تفرق قبـائل اليمن وهجرتها الى الشمال[١] ، فعادت هــذه الذكريات بالعربى فى العصر الأموى وبعض العصر العباسى الى ضغائن مجهولة وأهواء متوارثة وأحقـاد دفينة ما أنزل الله بهـا من سلطان ، وما كادت تنطفىء النائرة بين هذه القبائل المحتربة لغير سبب معقول حتى تتضرم أخرى ، وكانت دعوتهم : يا لفلان ، وما الى ذلك من نجوى الفتنة ودعوة الجاهلية التى نهى عنها الاسلام وتوعد أهلها بأشد العقوبة والنكال فقال الرسول الكريم : (من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا) ، اذ كان الفضل فى تلك الجاهلية لمن طغى فسفك الدماء وسبى الحرم وقتل الذرية ، وكان الجاهليون لا يتناهون عن منكر فعلوه من هذا القبيل ، كانوا يتفاخرون ويتكاثرون بالأموال والأولاد وما الى ذلك من شـــؤون الحياة المادية وبأشياء أخرى قد يترفع أهل العقول عن المفاخرة بها وحدها ، وكان جل فخر العرب بعد اسلامهم بالعقل والعلم والورع أى بالفضائل ومكارم الأخلاق .

حميـــة الأنـــذال :

وكان حكماء العرب يسمون هذا النوع من النخوة الجاهلية (حمية الأنذال) . قال الأحنف بن قيس حكيم العرب ، وقد سئل عما فيه حياة العرب ما نصه : « اذا تقلدوا السيوف ، وشدوا العمائم ، وركبوا الخيل ، ولم تأخذهم حمية الأوغاد ، قيل له : « وما حمية الأوغاد ؟ » قال : (أن يعدوا التواهب فيما بينهم ضيما[٢] .

---

(١) راجع عن تحكم ملوك حمير بالقبائل النزارية وجبايتها وأخذ أموالهـا وتأريخ امتناعها عن ذلك فى الجاهلية ، العقد الفريد (٣/٣٦٥ وما يليهـا) ط الجمالية . ومن أحسن المراجع فى قصة تفرق قبائل اليمن كتاب الأمثال للميدانى فى شرحه للمثـــل المشهور : (تفرقوا أيدى سبأ) وأنظر عن الحرب بين أهل تهامة واليمن ، العقـد الفريد (٣/٣٤٧ فما يليها) .

(٢) البيان والتبيين (٢/١٨٣) ، وفى وفيـات الأعيان (١/٢٣٠ـ٢٣٢) ترجمـــة ضافية للأحنف المذكور ، وتجد أوسع ترجمة له فى تهذيب تأريخ دمشق لابن عســاكر (٧/١٠ـ٢٤) وفى كتاب الاستيعاب لابن عبدالبر (١/٥٥ـ٥٦) ، وورد له ترجمـــة أخرى فى مادة (صخر) من المصدر المذكور .

ولقد أصاب الأحنف فيما قال ، فان صلاح الأمم بالتعاطف والتواهب والتباذل والتحاب ، وفسادها بالتعادى والتنافر والتواكل • وكانت دعوة الجاهلية ، أو حمية الأنذال هذه ، مبدأ بوار الأمة العربية كما قال الأحنف بن قيس سيد أهل البصرة رحمه الله • والغالب أنه لاحظ بوادر هذه النعرات وسوء مغبة تلك الخصومات الشنيعة بين عرب زمانه ، فأراد أن يصور ضررها وشناعتها وسقوط أهلها بهذه الكلمة القيمة • والحقيقة أن هذه العصبية الجاهلية لم توصف بأحسن من قوله : « حمية الأوغاد » ، ومن أخلص بذلك من الأحنف فى دينه المتين وقلبه الكبير ، وعقله العظيم ؟ فما أوجعها من كلمة ، وما أبلغها من عبارة !

وأبلغ دليل على ذلك هذا الضعف والفساد اللذان عصفا بحياة الأمة العربية بعد عصر الأحنف ، ولا منشأ لهما الا الحروب التى دارت بين العدنانية والقحطانية فأفقدت العرب معينا لا ينضب ومادة لا تنقطع كانت قبائل الجزيرة تمد بها الأمصار والثغور رجالا أشداء ، وسواعد مفتولة ، وأخلاقا رضية كريمة • وقد ظهرت نتائج هذه الحروب الداخلية بعد ذلك فى جرأة الروم والصليبيين على غزو الدول الاسلامية ، واجتياح حدودها ، وتخلى الدولة المذكورة عن كثير من الثغور والاقطاع بعد أن كانت فرائص الروم والفرنجة ترتعد لمجرد ذكر العرب والمسلمين •

والواقع أن دعوة الاسلام جاءت رحمة للطبقة الدنيا من الناس ، فرفعت أخملهم حسبا ، وأوضعهم نسبا ، وساوته بغيره فى الحقوق والواجبات •

مساوىء الجاهلية ومحاسنها

لعرب الجاهلية مساوىء ومحاسن ، ولبعض قبائلهم سير ذميمة فى عقائدهم وأنكحتهم وتبرج نسائهم ووأد بناتهم وعضلهن – أى منعهن من الزواج حتى الموت – وقتل أولادهم خشية الاملاق ، ولهم عادات أخرى ممقوتة ، حضرتها الشريعة الاسلامية ، ولكن من حق أهل الوبر وسكان البادية من العرب على كل حال أن يفخروا على غيرهم بشمائلهم وسجاياهم ، ومن أشهرها الأنفة من العار وحماية الذمار وقرى الضيف وأداء الحمالات أو الغرامات ورعاية العهود والوفاء بالوعود ، وقد اشتهروا ببذل المهج والنفوس فى هذا السبيل ، وكان أهل الجاهلية لا يسودون الا من تكاملت فيه ست خصال : السخاء ، والنجدة ، والصبر ، والحلم ، والتواضع ، والبيان ، وقد أضيف اليها

الاسلام بعد ذلك أى بعد الجاهلية ، ويمتاز الجنس العربى على غيره كذلك بخصائص ومميزات ، فى مقدمتها : حدة الذهن ، والفطنة ، وصدق الفراسة ، وكانوا يستدلون باللحظة وباللفظة ، وهم الى الخير أقرب ومن غيرهم أحفظ ، بل هم أمراء البيان يفيض منطقهم بالحكمة وفصل الخطاب ، وقد تأصلت فيهم هذه السجايا والأخلاق وتوارثتها أجيالهم فى الجاهلية وبعد الاسلام •

العصبيات القبلية ـ أسبابها ونتائجها :

تناول المؤرخون من قدماء ومحدثين موضوع هذا التنافر العنيف والجفاء القديم بين القحطانيين واليمانيين ، وعنوا بالبحث فى بواعثه وأسبابه ، وللمؤرخ المسعودى رأى حاول فيه رد هذه المنافرات الى أثر الشعر والشعراء فى حماية الأعراض والذب عن الأحساب وتخليد المآثر كما فعل الكميت فى قصيدته التى يذكر فيها مناقب قومه فى مضر وربيعة واياد وأنمار ، ويكثر من تفضيلهم ، ويطنب فى نعوتهم وأنهم أفضل من أبناء قحطان • وكان لأقوال الكميت أثرها فى احداث العصبية أو الجفاء بين اليمانية والنزارية ، ولم يجد شعراء اليمانية بدا من الرد على الكميت كما فعل دعبل الخزاعى ، فذكر فى قصيدة له عارض بها قصيدة الكميت مناقب اليمن ومحاسنها ، وافتخر بملوكها ، وعرض بغيرهم • وكما فعل زياد الأعجم فى الدفاع عن قبيلته حتى أحجم الفرزدق عن هجائها ، ولهم فى هذا الباب أخبار كثيرة كما كان لكل قبيلة شاعرها وخطيبها فى المشاهد والمواسم والأيام وفى المنافرات والمفاخرات •

شاعت هذه المنافرات بين قبائل العرب من قحطانيين وعدنانيين ، ففخر بعضها على بعض ، وأدلى كل فريق بماله من المناقب ، وتحزب الناس ، وثارت العصبية فى البدو والحضر ، حتى أن مروان بن محمد الجعدى لم يكتم تعصبه لقومه من نزار على اليمن ، فاضطر هؤلاء الى تأييد الدعوة العباسية ، ثم تلا ذلك ما تلاه من قصة معن بن زائدة فى اليمن وقتله أهلها تعصبا لقومه من ربيعة ونقض الحلف القديم المبرم بين القبيلتين ، وما فعله عقبة بن سالم بعمان والبحرين وقتله من قتل من أحياء ربيعة كيادا لمعن بن زائدة وتعصبا لقومه من قحطان ، الى غير ذلك من الاحداث الدامية(١) •

---

(١) أنظر مروج الذهب (٢/١٣٩ ، ١٤١) عن رأى المسعودي في منشأ هذه العصبية •

وللمحدثين من المؤرخين آراؤهم فى منشأ هذه العصبيات القبلية المذكورة ، فمردها - فيما يراه بعضهم - الى تباين المنشأ والبيئة واختلاف الأخلاق والطباع ، فالقبائل العدنانية تميل غالبا الى الحياة البدوية خلافا للقحطانية ، فان منشأها فى بلاد عريقة فى الحضارة وفى تأسيس الدول وانشاء الحكومات .

ويميل بعض المتحاملين على العروبة والاسلام من المستشرقين الى القول بأن هذه الخصومة مظهر من مظاهر الخلاف بين المهاجرين والأنصار (٢) ، ويزعم فريق آخر منهم أن هذه المنافرات قامت على أساس من اختلاف الجنس . فالعدنانيون فى الشمال عرب خلص لا تشوب دماءهم شائبة ، والقحطانيون فى الجنوب تشوب دماءهم شائبة من دماء شعوب أخرى : اما حامية ، واما آرية .

وليس هذا الرأى بشىء ، فان القحطانيين بعد هجرتهم الى الشمال توغلوا فى البداوة كالعدنانيين أو أكثر من ذلك ، بل كانت اليمن تسود ساداتها على النسب كما كانت مضر تسودهم على اصالة الرأى ، وربيعة على تعجيل القرى واطعام الطعام .

هذه آراء رهط من المؤرخين المحدثين أو المستعربين ، وهى كما ترى آراء مدخولة على الاكثر . والحقيقة أن الفخر بالأحساب ، والاعتزاز بالأنساب أو الطعن فيها ، من السجايا التى جبل عليها العرب ولم يفارقوها حتى اليوم ، ولن يفارقوها الى ما شاء الله ، مع أن الغلو فى هذا الضرب من التفاخر منهى عنه فى الاسلام ، ولكن هذا الانسان قد يصبو الى دين غير دينه أو ينتحل عقيدة غير عقيدته ثم تبقى كثير من سجاياه وأخلاقه الفطرية كما هى فى كثير من الأحيان .

أضف الى ما تقدم أن هجرة القبائل من الجنوب الى الشمال فى سبيل العيش وحيازة الأراضى والمراعى الخصبة - كهجرة القبائل اليمانية ونزوحهم الى الجهات الشمالية

---

(٢) المعروف أن الخلاف وقع بين الأوس والخزرج فى الجاهلية - وهم الأنصار بعد ذلك - بسبب التفاخر والمنافرات ، وقد تطاولت الحروب بين الحيين عشرات من السنين الى أن أشرفوا على الفناء ، ولكن الشحناء ارتفعت من بينهم بدعوة الاسلام فأصبحوا يدا واحدة ، أنظر عن الحرب بين الأوس والخزرج قبل الاسلام ، خزانة الأدب للبغدادى (٤/٢٠٨-٢١١) طبعة السلفية .

(٢) أنظر ما أورده الجاحظ فى كتاب (شرائع المروة) .

(١) أنظر عن أشهر منافراتهم فى الجاهلية شرح المقامات للشريشى والأغانى . وقد وضعت كتب فى منافرات الجاهلية منها كتاب منافرات العرب لأبى عبيدة .

ومجاورتهم للقبائل العدنانية ـ من أهم الأسباب فى تكوين تلك الضغائن المتوارثة وانتقالها من جيل الى جيل .

المنافرات بعد الاسلام :

هذا ما كان فى الجاهلية . ولما جاء الاسلام ، اعتز العدنانيون به على القحطانيين ، فالرسول الكريم سيد ولد عدنان ، ولكن القحطانيين حتى بعد اسلامهم ظلوا ـ كما هو شأن العرب ـ يفخرون بمآثرهم فى الجاهلية ، ولم يستأصل الدين عاطفتهم المذكورة . أو ينتزع ما تأصل فى نفوسهم أو خالط دماءهم من هذا القبيل ، فكانت لهم فى مجالس الأمويين والعباسيين مواقف معروفة فى المفاخرات والمناظرات .

كانت منازل الأمويين والعباسيين وأعيان هاتين الدولتين ملتقى السراة من رجال القبائل يمنية ومضرية ، ومجتمع العلماء من مختلف المنازع والمشارب ، وكانت فى بعض أصحاب تلك المجالس نزعة ملحة الى التعرف والاستزادة من العلم والاطلاع ، فكانوا يغرون بين زوارهم ورواد مجالسهم ويدفعونهم الى المناظرات والمماتنات فى هذا الشأن ، وهى مماتنات بريئة فيها مادة أدبية أو تأريخية غزيرة وفيها بلاغة وبيان عربى حر ، ولا يوجد لهذا الأدب نظير فى تأريخ آداب الأمم غير الآداب العربية .

وكانت لتلك المجالس فوائدها وعوائدها المهمة فى تحريك المواهب واثارة البحث فى أصول القبائل وفروعها وأيامها وأخبارها وفى مثالبها ومناقبها وحكمها وأمثالها وفى عاداتها وأوابدها(١) .

الجاهلية لليمن والاسلام لمضر :

وهذه المفاخرات فى العصور المذكورة كثيرة ، وأحسن مثال لها ما وقع فى بعض مجالس العباسيين والأمويين ، ويلاحظ أن الدائرة تدور على اليمن فى هذه المناظرات غالبا ، لوقوعها فى بلاد جل زعمائها من مضر وفى عصر هو عصر المضرية ، وحسبنا أن

(١) أنظر عن بعض هذه المفاخرات بين مضر واليمن مهذب تأريخ ابن عساكر (٥/٥٨ـ٥٩) ، وقد يكون شطر من هذه المفاخرات من وضع الأخباريين ، وانظر البيان والتبيين (١/١٠٣) ، ومروج الذهب (١/٢٣٨) ، والعقد الفريد (٢/٢١٣) ، وأنظر ما كان يجرى من هذا القبيل فى مجالس عبدالله بن عامر فى البصرة البيان والتبيين (١/١٢٢) . وعبدالله بن عامر هذا : من أشهر ولاة البصرة ، وله ترجمة فى كتاب الاستيعاب (١/٣٨٧ـ٣٨٨) ، وعن مجالس البصريين فى التفاخر بأيام العرب في الجاهلية أنظر العقد الفريد (٣/٣٦٥) .

مثالب اليمن كلها جمعت في كلمة موجزة قذف بها في وجوه زعمائهم خالد بن صفوان الأهتمي التميمي [١] خطيب البصرة وعالمها بالأنساب والأخبار في عصره ، ولبعض علماء النسب من العرب كلمة قيمة أجمل فيها المفاخرة بين العدنانيين والقحطانيين فقال : « الجاهلية لليمن والاسلام لمضر » . وقد أصاب هذا النسابة ، وهو دغفل بن حنظلة [٢] فيما قال ، فمن الملاحظ أن جل مفاخر اليمن تعود الى عصر الجاهلية ، وحق لليمن أن يفخروا بماضيهم المجيد في الحضارة والصناعة والفنون ، فانهم أنشأوا مدنا عظيمة وشيدوا قصورا ضخمة كقصر غمدان مقر التابعة ، وبنوا سد مأرب ومصانع المياه ، وكان لهم ملوك وأقيال دوخوا الأرض واستولوا على كثير من الأقطار ، وهكذا نجدهم في سائر مفاخرهم يرجعون الى أبعد عصور الجاهلية ، ففي الجود يذكرون حاتما الطائي ، وفي الشعر امرأ القيس ، وفي الحروب والفتوح الأذواء [٣] واقيال حمير وملوك غسان

---

(١) قال خالد بن صفوان ، وهو يذكر فيما يزعم مثالب اليمن في مجلس السفاح : « ماذا أقول لقوم كانوا بين ناسج برد ، ودابغ جلد ، وسائس قرد ، وراكب عرد ، دل عليهم هدهد ، وأغرقتهم فأرة ، وملكتهم امرأة ؟ » رويت هذه الكلمة ـ مع بعض الاختلاف في روايتها ـ في كثير من كتب الأدب والتأريخ ، وممن رواها الجاحظ في البيان والتبيين (١/١٠٣) ، وابن عبد ربه في العقد الفريد (٢/٢١٣ ، ٣٣٩) ، والمسعودي في مروج الذهب (١/٢٣٨) . وهذه الكلمة في الذروة من البلاغة عند القوم ، ولا يكتم الجاحظ اعجابه بخالد واكباره له ، ويعنى بنقل أقواله وكلماته في كتبه ، وقد علق على كلمته المذكورة بقوله : « لئن كان خالد قد فكر وتدبر هذا الكلام انه للراوية الحافظ والمؤلف المجيد ، ولئن كان شيئا حضره فما له في الدنيا نظير » الى أن قال : « ولكلام خالد كتاب في أيدي الوراقين » . أنظر عن خالد بن صفوان وعن أخباره وأقواله البيان والتبيين (٢/٧ ، ٧٢ ، ١١٤ ، ١٢٩ـ١٣١) و (٢/١٨٤) ، وتجد أوسع ترجمة له في تأريخ دمشق لابن عساكر (٥/٥٣ـ٦٣) .

(٢) دغفل بن حنظلة السدوسي الشيباني ، قيل : له صحبة ، وقتلته الأزارقة ، وفي أمثالهم : « أنسب من دغفل » ، ولقبه عند الجاحظ « العلامة » ، وعده من رؤساء النسابين . أنظر عن كلامه ورأى الجاحظ فيه البيان والتبيين (١/١٠٨ ، ١٢٢ ، ١٢٤) وعن كلمة دغفل المذكورة العقد الفريد (٢/٢١٣) ، ولدغفل ترجمة مطولة في مهذب تأريخ ابن عساكر (٥/٢٤٢ـ٢٤٧) وله ذكر في فهرست ابن النديم ، كما أن له ترجمة في الاستيعاب لابن عبدالبر (١/١٧٣) .

(٣) أنظر عن أذواء اليمن خزانة الأدب للبغدادي (٢/٢٥٢ـ٢٥٤) ، وكتاب الاشتقاق لابن دريد .

والمناذرة والضجاعمة ، وفى الفتوة والشجاعة فرسان الأزد وهمدان أحلاس الخيل ، وكل هؤلاء جاهليون عريقون فى الجاهلية .

والواقع : أن نصيب اليمن من المآثر بعد الاسلام غير قليل فان منهم الأنصار وهم الأوس والخزرج أعز الناس نفسا وأشرفهم همما لم يؤدوا أتاوة الى أحد من الملوك ، وقد حاربهم تبع الأكبر فامتنعوا عليه ، ومن اليمن عدد غير قليل من أشهر مشاهير الصحابة والتابعين وتابعى التابعين ، وقد روى فى فضل اليمن ماروى من الأحاديث(١) .

العباسيون والحزب العباسى :

أجمع المؤرخون على أن جل شيعة بنى العباس من أهل خراسان، وتلك هى الحقيقة، ولكن هذا الاجماع يوهم فى ظاهره ان هؤلاء الخراسانيين برمتهم اعاجم ، وقد بالغ بذلك رهط من المستشرقين المتأخرين وقوم قلدوهم من الشرقيين ، ولا غرض لهم الا التعريض ببنى العباس وأن دولتهم صنيعة الموالى والأعاجم ، وفى هذه الأقوال ما فيها من الغلو والاغراق .

ان التأمل الجيد فى نصوص التاريخ كفيل بازالة هذا الوهم ، فان قدماء المؤرخين وثقاتهم اذا قالوا : « اهل خراسان » لم يقصدوا الاعاجم وحدهم ، وانما كانوا يقصدون بهذه العبارة – فى كثير من المواضع – القبائل العربية المقيمة فى خراسان ، ولا تنكر مساهمة هذه القبائل فى خدمة الدعوة العباسية ، فأهل خراسان معناه أصحاب خراسان من العرب غالبا ، وانك لتجد مدلول هذه العبارات على هذا الوجه واضحا فى خطب الولاة والأمراء وفى اقوال المؤرخين ، تجدها كذلك فى خطب نصر بن سيار عامل الأمويين(٢)

---

(١) أنظر عن آراء علماء النسب فى بيوتات اليمن وبيوتات مضر والمفاخرة بينها ، العقد الفريد (٢/٢١١–٢٥٤) وانظر أساليبهم فى معرفة الأنساب وأقوالهم فى القبائل العقد الفريد (٢/١٣) ويستحسنون فى ترتيب طبقات الأنساب العربية ما أورده الماوردى فى الأحكام السلطانية (١٨٠) طبعة الاتحاد ، وانظر عن خبرتهم بهذا الفن نهاية الأرب للقلقشندى (٣٦٦) طبعة بغداد .

(٢) انظر خطب نصربن‌سيار عامل‌خراسان فى‌أيام مروان‌الجعدى، وفى‌بعضها يقول : « يأهل خراسان ، انكم غمطتم الجماعة ، وركنتم الى الفرقة ، السلطان المجهول تريدون وتنتظرون ؟ ان فيه لهلاككم معشر العرب » ألا ترى أنهم لا يعنون بأهل خراسان الا العرب فى هذه الكلمة ؟ ومثل ذلك كثير . وانظر وصية يزيد بن المهلب لابنه مخلد حين استخلفه على (جرجان) ، فقد أوصاه بأحياء العرب فيها من اليمن وربيعة وقيس مع الاشارة الى أسباب ذلك ، أنظر تأريخ الأمم والملوك (٩/٣٧–٣٨) والكامل لابن الأثير (٥/١٤٢ ، ١٦٢ ، ١٧٢) ، ولاحظ الاختلاف فى سرد نسب نصر بن سيار نقلا عن الطبرى .

وفى خطب قتيبة بن مسلم وغيرهما من الأمراء ، وكانوا ينسبون الى المدن الخراسانية والفارسية فيقولون : رازى ، وأصفهانى ، ومروزى ، وكرمانى ؛ لأنهم ولدوا أو أقاموا فيها لا غير ، وهم عرب صرحاء ، والأمثلة على ذلك كثيرة . وهذا (الكرمانى) وهو من أشهر رؤساء خراسان فى أواخر عصر بنى أمية ، وأخباره كثيرة فى هذه الفترة من التاريخ ـ وقد مر ذكر بعضها ـ قد نسب الى كرمان ؛ لانه ولد فيها وما هو الا عربى قح ، وكان يقال له : (شيخ خراسان وفارسها) فى العصر المذكور .

وقد الف العرب هذا النوع من الانتساب الى حيث يولدون او يقيمون من بعض البلاد الفارسية أو التركية ، الفوا ذلك حتى أواسط عصور الدولة العباسية أو بعد ذلك ، فهذا ابو الفرج الأصفهانى قد اشتهر بنسبته الى أصفهان وهو كما لايخفى من أرومة أموية بل كان نزيل بغداد ، .

وفى كتب الفتوح ذكر لخطط العرب ومنازلهم فى البلاد المذكورة(١) ، وقد أشار غير واحد من الكتاب والمؤلفين الى فعل البيئات الأجنبية من تركية وخراسانية وغيرها وأثرها فيمن نزل بها من القبائل العربية ، فمن نزل من العرب (فرغانة) لا تستطيع تمييزه عن أهل (فرغانة) فى السحنة واللون والهيئة ، ومثلهم فى ذلك من نزلوا فى غير (فرغانة) من الخطط والأقاليم التركية والخراسانية . وقد وصف الجاحظ تأثر بعض هذه القبائل العربية بتلك البيئات(٢) ، ورأينا بعض المؤرخين يقولون « فلان عربى خراسانى » ، أو « عربى من أهل خراسان »(٣) . والمكتشفات الحديثة تؤيد أقوال الجاحظ ، فقد عثر الباحثون فى تركستان أو فى ما وراء النهر على قبائل رحل تعيش فى عزلة عن غيرها ، أو لها نغية أو لهجة تقارب اللهجات العربية ، ومن رأيهم أنها من بقايا العرب الأولين فى تلك البلاد .

عروبة نقباء الدعوة :

كان عدد مقاتلة العرب من أهل المصرين : الكوفة والبصرة كبيرا فى خراسان من عهد الفتوح الأولى ، وهم من مختلف القبائل النزارية واليمانية ، بل كان جل نقباء

---

(١) أنظر عن خطط العرب ومنازلهم وأسماء قبائلهم فى آذربيجان ـ فتوح البلدان للبلاذرى (٣٣٦ ـ ٣٣٧) .

(٢) مناقب الأتراك للجاحظ (٣٩) .

(٣) لاحظ العبارات التى يستعملها الجاحظ من هذا القبيل فى رسالته المسماة (مناقب الاتراك) (٣٤) .

الدعوة الهاشمية من زعماء العرب المنتمين الى أشهر قبائلهم ، فمنهم خمسة من خزاعة ، وثلاثة من تميم ، وبعضهم من طيء وربيعة ومزينة وغيرها من القبائل المشهورة[١] •

وقد كتب الجاحظ فصلا ممتعا فى هـذا الموضوع لم يسبقه اليـه أحد فى رسالته المسماة (مناقب الاتراك)[٢] ، ومن هذا الفصل تعرف ان جل هؤلاء النقباء من العرب وان كان فيهم عدد من الموالى[٣] ، وله فى هذا الباب فصل آخر اشار فيه الى وقائع حاسمة فى خراسان والعراق تفانى فيها أنصار الفريقين • وقد جاء فيه ما نصه : « وهل أكثر الدعاة الا من صميم العرب ومن صليب هذا النسب ، كأبى عبدالحميد قحطبة[٤] بن شبيب الطـائى ، وأبى محمد سـليمان بن كثير الخزاعى ، وأبى نصـر مالك بن الهيثم الخزاعى ، وأبى داود خالد بن ابراهيم الذهلى ، وكأبى عمرو لاهز بن طريز المزنى[٥] ، وأبى عيينة موسى بن كعب المرانى ، وأبى سهل القاسم بن مجاشع المزنى ، ومن كان يجرى مجرى النقباء ولم يدخل فيهم مثل مالك بن الطواف المزنى • وبعـد ، فمن هو

---

(١) أنظر عن عروبة رجال الدعـوة تأريخ الطبرى (٩/٧٦) وتأريخ اليعقـوبى (٣/٧٢) ومروج الذهب (٢/١٤٤) والكامل (٦/٩٠) • وعن عروبة زعماء خراسان المصدر نفسه (٥/١٩١) ، وعن القبائل العربية المقيمة فى خراسان من تميم وربيعـة واليمن ـ كتاب الوزراء للجهشيارى (٢٦٩) • وعن أحياء العرب فى خراسان كلمة لقتيبة بن مسلم فى البيان والتبيين (١/١٩٩) • وعن بنى تميم فى خراسـان كلمة خاطب الأحنف بن قيس قبيلته فيها البيـان والتبيين (١/١٨٤) • وعن ضعائن العرب تخرج من مرو الى سمرقند بدون جواز فى خطبة لقتيبة بن مسلم العقد الفريد (٢/٣٨٥) •

(٢) مناقب الاتراك (٨ـ١٢) •

(٣) راجع فيما يتعلق برؤوس النقباء من الموالى ـ وفى مقدمتهم أبو مسلم الخراسانى صاحب الدولة ، وأبو سلمة حفص بن سليمان ، وبكير بن ماهان ـ (مناقب الأتراك) للجاحظ (١٤) والكامـل لابن الأثير (٥/٥٩ ، ٤٥) وعن التنكيل بهؤلاء الـدعاة فـى خراسان الكامل (٥/٦٤ ، ٨٨ ، ٨٩) وعن شجاعتهم وصلابتهم المصدر المذكور (٦٧) •

(٤) كان قحطبـة يقارن بأبى مسلم صـاحب الدولة ، ولآل قحطبـة دالـة كبيرة على العباسيين الأول ، ولما وقع أحد المناوئين للمنصور من آل قحطبة أسيرا فى يده لـم ينتقم منه وقال : « لست أقتل أحدا من آل قحطبة بل أهب مسيئهم الى محسنهم وغادرهم لوفيهم » • البيان والتبيين (٢/١٥٦) •

(٥) المشهور ابن قريظ لاابن طريز •

الذى باشر قتل مروان ، ومن هزم ابن هبيرة[1] وقتل ابن ضبارة[2] ومن قتل نباتة بن حنظلة[3] الاعرب الدعوة والصميم من أهل الدولة ؟ » .

يحتجون بكلام الجاحظ :

هذا وللجاحظ كلمة كثيرا ما رأينا شداة التاريخ الاسلامى من عرب ومستعربين يحتجون بها فى هذا الباب ، وهى قوله : « دولة ولد العباس أعجمية خراسانية ودولة بنى مروان عربية أعرابية »[4] ، ومن رأينا انها كلمة لاتصلح للاحتجاج فيما نحن فيه ؛ لأن صاحبها قالها فى معرض المقارنة بين الدولتين من حيث استخدام الشعر والكلام العربى البليغ لحفظ الوقائع ، وتقييد المآثر وتخليد المحاسن . ومن رأى الجاحظ أن العصر الأموى امتاز بهذا الضرب من الأدب البدوى العربى ، والعرب وهم أميون أحفظ وأوعى لما يسمعون ، وأكثر عناية بالانشاد وضرب الأمثال . ومن رأيه كذلك أن أنصار بنى العباس قصروا عن الأمويين فى حفظ وقائعهم وتدابير ملوكهم وسياسات كبرائهم فى أهل الشام وما جرى لهم فى هذا السبيل من حر الكلام وشريف المعانى فى الدولة العباسية ، الى أن قال : « كان فيما قال المنصور وما فعل فى أيامه وما أسس لمن بعده مايفى بجماعة ملوك بنى مروان »[5] .

---

(١) أنظر عن هزيمته فى خراسان الكامل (١٩٢/٥) ، وعن مقتله فى حرب واسط المصدر نفسه (٢٠٩ـ٢١١) .

(٢) قتله قحطبة سنة ١٣١ ، وما رؤى عسكر يجمع شتى المؤن والآلات والذخائر كعسكر ابن ضبارة . وكان يسمى : (عسكر العساكر) حتى كأنه مدينة ، أنظر عن ذلك الكامل (١٨٩/٥ـ١٩٠) وتأريخ الطبرى (٩٤/٩ـ٩٥) ونجد لعامر بن ضبارة الغطفانى المرى المشار اليه ـ وهو من أهل حوران ـ ترجمة فى تأريخ دمشق لابن عساكر (١٥٥/٧ـ١٥٦) .

(٣) أنظر عن مقتل نباتة بن حنظلة ومن معه من أهل الشام على يد قحطبة تأريخ الطبرى (١٠٥/٩ـ١٠٦) . وهذه الواقعة بين قحطبة وابن ضبارة كسابقتها من الوقائع الحاسمة فى هذا النزاع ، ولا شك أن الكفاح كان مريرا جدا فى خراسان والعراق بين عمال الأمويين وبين أنصار الدعوة العباسنية فى هذه المرحلة من مراحل النزاع ، أنظر الكامل لابن الأثير (١٨٤/٥) ، ويراجع عن أخبار قحطبة (١٨٣ ، ١٨٨ـ١٩٢) من المصدر المذكور ، وتاريخ الطبرى (١٠٤/٩ ، ١١٤ ، ١١٦ـ١١٧) وعن مكانة القحاطبة فى الدولة العباسية وحرمتهم ودالتهم على المنصور البيان والتبيين (١٥٦/٢) .

(٤) و (٥) البيان والتبيين ، المطبعة العلمية (١٥٤/٢) .

اولع الجاحظ بتكرار هذا المعنى فى كتبه(١) على وجه يؤكد لنا أنه لم يقصد بالكلمة المذكورة الا الناحية الأدبية العربية دون السياسية ، وقد عقد فى رسالته التى سماها (مناقب الاتراك) فصلا قارن فيه بين العرب والعجم من حيث استخدام صناعة الكلام لحفظ الوقائع وتسجيل المثالب والمناقب ، فالشعر ديوان العرب ، وهم أميون لا يتكلون على الكتب المدونة ، والخطوط المطرسة ، ولبعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر وهممهم أرفع ، وهم من جميع الأمم أفخر ولأيامهم أذكر »(٢) .

وخلاصة القول : يريد الجاحظ أن بنى العباس اقتبسوا ما اقتبسوه من قواعد الدواوين ورسوم الدول الأعجمية البائدة ، فنقلوه الى دار خلافتهم ، فأصبحت رسوم دواوينهم والقواعد المتبعة فيها شبيهة بتلك العادات والرسوم من بعض الوجوه ، فليس فى قوله ما يشين دولة بنى العباس ، وكيف يفعل ذلك وهو أشهر كتاب العصر الأول من عصور الدولة ؟ عاصر المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ، أى أنه عاش فى أزهى عصور العباسيين أثيرا عند خلفائهم وأعيان دولتهم ، ولهم ألف جملة من أحسن كتبه ورسائله ، ومنها كتابه الذى سماه « امامة ولد العباس »(٣) ، ويعد الجاحظ فيما يراه بعضهم من الغلاة فى تعظيم العباسيين ، فقد زعم أن الطواعين الجارفة زالت عن بنى آدم ببركة بنى العباس ، ولم ير الناس من هذه الطواعين ما رأوه فى دولة بنى أمية .

هذا ما عناه فريق من قدماء المؤرخين والكتاب بقولهم عن الدولة العباسية : انها دولة فارسية ، وعن دولة بنى مروان : انها دولة عربية أو أعرابية . وقد أسىء فهم هذه الأقوال من قبل بعض المعنيين بالتأريخ شرقا وغربا ، وعلى هذا الوجه الذى بيناه آنفا فهمت أقوال الجاحظ فى عصره ، وعلى هذا الوجه ينبغى أن تفهم فى كل العصور . ومن الخطأ الشنيع ، بل من الظلم الفاحش ، أن تفسر هذه الأقوال بأن الدولة العباسية دولة فارسية فى روحها ونزعتها ، وأن دعوة أنصارها من الموالى والخراسانيين وغيرهم كانت موجهة الى الكيد من الأمة العربية ، أو الى بعث المجد الساسانى البائد ، وأن النزاع بين الدولتين انما هو نزاع بين الفرس والعرب ، وأن الموالى حاولوا فى تأييدهم للدعوة الهاشمية استرداد مجدهم القديم وأن يكونوا أصحاب الكلمة العليا والسلطان فى الدولة الجديدة ،

---

(١) البيان والتبيين (١/٧٨ ، ١٤٥ ، ١٥٤-١٥٧) و (٢/١٦٩ ، ١٧١) .
(٢) مناقب الاتراك للجاحظ (١٢) وانظر أيضاً (٤٢-٤٣) من هذه الرسالة .
(٣) مروج الذهب (٢/١٤٣) .

الى أمثال ذلك من أقوال واهية ومزاعم مردودة .

كان اقبال الفرس وأبناء خراسان على الدين الاسلامى منقطع النظير حتى استأصل تلك النعرات القديمة من نفوس الشعوب الايرانية والطورانية ، وان لم ينزع كل ما تأصل فى الطباع ، أو جرى فى الدماء ، أو امتزج بالأرواح بالمرة ، فلا يصح أن يقال اطلاقا : ان الفرس حاولوا انتهاز الفرصة فى العصر العباسى المذكور للرجوع الى عوائدهم وأوابدهم القديمة ، وكل حكم يبنى على هذا الأساس ظاهر البطلان . وما أغنانا عن اثارة الخواطر ، ونبش الدفائن ، بمثل هذه الأقوال جريا على طريقة بعض المستعربين من الغربيين ! اننا لا ننكر أن تبقى فى العصر العباسى المذكور بقية من نحل فارسية ، أو عادات وثنية ، خصوصا فى بعض الأصقاع النائية من الشرق ، بيد أن ذلك لم يكن له أثر يعتد به فى حياة الشعوب المذكورة .

والواقع أن الدعوة الهاشمية قديمة بدأت فى عصر معاوية بن أبى سفيان بعد صلح الامام الحسن ، ثم فى عصر يزيد بن معاوية بعد مقتل الامام الحسين . بدأ بها الهاشميون وأنصارهم فى الحجاز واليمن والعراق ، ثم انتقلت الى خراسان فى تكتم شديد(١) .

العباسيون الأول

أبو العباس السفاح

بويع أول الخلفاء العباسيين أبو العباس السفاح فكانت بيعته اجماعية ، أجمع عليها أهل بيته وانصارهم ، وبهذا الاجماع امتازت بيعته على بيعة غيره ممن جاء بعده او خلفه فى هذا المنصب ، أى ان عصر السفاح امتاز بعدم ظهور منافس له أو ثائر عليه ، ومع ان أخاه وخلفه من بعده المنصور أكبر منه سنا الا انه كان فى مقدمة من بايعه .

لم يحدث فى خلافة السفاح حدث على أهل بيته او ابناء عمومته ، خلافا لما وقع فى خلافة المنصور ؛ لان السفاح كان معنيا باستئصال الامويين فى هذا الدور ، وهو دور التأسيس والبناء .

بطش العباسيون الأول بطشة جبارة ببنى أمية ، قتلوهم أينما وجدوا ، حتى توارى عن الانظار كل متصل بنسب الى بنى امية ، بيد ان كثيرا من أهل الشام حاضرهم وباديهم وكثيرا من عرب الجزيرة وديار بكر ، وهم من ربيعة ومضر وتغلب وبكر بن وائل ، ظلوا ناقمين على الهاشميين او العباسيين ؛ لاسباب شتى ، وهم يستظلون بظل الراية العباسية ،

---

(١) أنظر كتاب الامامة والسياسة (٢/١١٧ـ١١٨) .

بل أجهد العباسيين بعد ذلك استئصال شأفة كثير من الناقمين عليهم فى حواضر الشام والجزيرة وبواديها ، فانطوى هؤلاء على كثير من الغل وفساد النيات •

أصبح هؤلاء الناقمون عونا لكل ثائر على العباسيين ، ولو لم يكن ذلك الثائر من بنى أمية فكثرت الفتن فى الشام والجزيرة وفى ديار بكر وربيعة وفى ديار مضر ، وتعدد خروج الخوارج فى هذه البلاد ، ولا يخلو تأريخ بلد قديم غلب أهله على أمرهم من محاولة للثورة والانتقاض على الغالب • فقد ثار الحجاز وثار العراق وثار غيرهما من الاقطار على حكم بنى أمية ، فلماذا لا تثور الشام ؟ ولماذا لا تثور الجزيرة على حكم بنى العباس ؟ وقد تعددت الفرص السانحة لمناهضة الدولة الجديدة ومناهضة خلفائها ، ولم تعدم هذه الفرص من ينتهزها من ذوى المطامع والاغراض البعيدة ، وفى البلاد المذكورة ــ وهى الجزيرة والشام ــ بقية باقية من أنصار بنى أمية ومن مواليهم الضالعين معهم ، ولنا ان نقول : ان القطر الشامى وما اليه قد استحال بسبب سخط الساخطين وبسبب وجود عدد لا يستهان به من موالى الامويين وأنصارهم الى بيئة صالحة للخروج على بنى العباس وللدعوة الى مناهضتهم وخصومتهم من أية ناحية جاءت هذه الخصومة •

أبو جعفر المنصور

وما ان وافى السفاح أجله ليخلفه أخوه الاكبر أبو جعفر المنصور حتى كشرت الفتن عن انيابها ، وحتى توالت القلاقل فى دولته ولكنه ــ أى المنصور ــ واجهها بما عرف عنه من صرامة وفطنة ودهاء ، وقد تخلص ــ بموجب خطة رسمها ــ من خصومه واحدا بعد آخر • تخلص من عمه عبدالله بن على الثائر عليه بأبى مسلم الخراسانى صاحب الدولة ، ثم تخلص من أبى مسلم كما تخلص من زعماء آخرين توسم فى بقائهم خطرا على دولته ، وخلع ابن اخيه عيسى بن موسى من ولاية العهد ــ وكان السفاح عهد اليه من بعد المنصور ــ وعيسى هو الذى حارب له الاخوين محمدا وابراهيم من ابناء الامام الحسن ، فظفر بهما ، فكوفىء بخلعه من قبل المنصور ، وعهد بولاية عهده الى ولده المهدى ثم الى عيسى بن موسى هذا ، والاقربون أولى بالمعروف ، فكان من يبايعه يقبل يده ويد المهدى ثم يمسح على يد عيسى ولا يقبلها ، نقل ذلك ابن تغرى بردى واعقبه بقوله : « ان البلاء والرياء قديمان » ، ثم ان المهدى خلع ابن عمه المذكور من ولاية العهد وعقدها لولده الهادى ، وكانت اول ثورة على المنصور ثورة الامير عبدالله بن على عم الخليفة •

عبدالله بن علي

يعد عبدالله بن علي بن عبدالله بن العباس بين أنبه الامراء العباسيين . وابوه علي - وهو الذى انتشر الخلفاء العباسيون من نسله - ، من اوائل الهاشميين الذين رشحوا للخلافة بعد ان نضجت فكرة الثورة على الامويين واحلال الهاشميين محلهم فى هذا الشأن ، وقد اعقب أكثر من عشرين ولدا ذكرا ، من أشهرهم : عبد الله هذا ، وأخواه محمد وصالح ابناء علي ، وكان لكثير من أولاده شأن فى تأريخ الدولتين الاموية والعباسية ، الا أن الخلافة العباسية كانت من نصيب أولاد محمد بن علي وهو أكبر من أخيه عبد الله ، ولم يبايع بالخلافة أحد من ولد عبد الله بن علي المذكور ، ثم هو الامير الذى ندبه السفاح لقتال مروان الجعدى فظفر به وبغيره من أمراء بنى مروان فى واقعة الزاب الآنف ذكرها ، وعلى يده انقرضت دولتهم ، ومن ثم استخلص الشام ومصر ، وكان ساعده الايمن فى ذلك أخاه صالح بن علي الذى جهزه السفاح على طريق السماوة فطارد مروان وفلول الجيش الاموى الى مصر وقتله فى (أبى صير) [(١)] ، وهو - أعنى عبدالله بن علي - بعد ذلك عم السفاح ، لذلك كان يحدث نفسه بالخلافة ، بل كان يرى أنه أحق العباسيين بعد السفاح بأن يكون خليفة . أحق من المنصور وأحق من سائر أمراء بنى العباس ، وكان يظن أن ابن أخيه - أي السفاح - لا يعدوه فى الوصية بولاية عهده لانه نائبه فى الجهاد وقيادة الجيوش وغزو الروم ، ولكن السفاح عهد فى مرض موته بولاية العهد الى أخيه المنصور ثم الى ابن اخيه عيسى بن موسى وما ان علم عبدالله بن علي ببيعة المنصور فى العراق وكان - كما قلنا - يتحين الفرص للمطالبة بحقه فى الخلافة، حتى جاهر بالدعوة الى نفسه وعدل بجيشه الى العراق ، ولكن خانه الحظ وأخفق فى الوصول الى بغيته ، وانتهت حياة بطل الزاب بالموت فى سجن ابن أخيه المنصور بعد هزيمته فى واقعة «نصيبين» [(٢)] على يد ابى مسلم الخراسانى ، هكذا أخفق عبد الله بن علي فى الوصول الى غايته المنشودة ، ومرد اخفاقه فيما نراه الى قصر نظره وافتقاره الى شيء كثير من الدربة والحنكة السياسية ، وكان دون

---

(١) أنظر حياة الحيوان للدميرى (١/٦٢) .

(٢) تجد تفصيل هذه الوقائع التى وقعت بين ابى مسلم الخراسانى وبين عبدالله ابن علي عم المنصور فى تاريخ الطبرى (٩/١٥٦ ، ١٥٩) ومروج الذهب (٢/١٩٧-١٩٨) والكامل (٥/٢٢٠ ، ٢٢٢) وقدترجم الخطيب البغدادى لعبدالله بن علي هذا فى تأريخ بغداد (١٠/٨-٩) ، وانظر ايضا (ص ٥٣) من الجزء المذكور ، وتجد كيفية حبس عبدالله وقتل أصحابه بعد وصولهم الى المنصور فى الكامل (٥/٢٣٦) ، وتجد طرفا من احوال عبدالله بن علي هذا فى كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى (٨٥-٨٦ ، ١٠٣ ، ١٣٠ - ١٣٢)

أخيه محمد بن على ربان الدعوة العباسية فى كل شيء • كان دونه فى عقله الراجح ، وكان دونه فى حزمه وخبرته الواسعة ، وقد ارتكب فى دعوته الى نفسه اغلاطا فظيعة ، فانه أمر بقتل عدد كبير من الخراسانيين كانوا فى جيشه لتوهمه بميلهم الى أبى مسلم الذى ندب لقتاله ، وهم ايضا أن يفتك ببعض القحاطبة وهم من أشهر القواد فى جيشه • وكان جل جيشه الباقى مؤلفا من أهل الشام الذين غلبوا على أمرهم فى واقعة الزاب ، ولابد لنا من القول : ان المنصور اضطرب الاضطراب كله فى بدء هذه الحركة التى قام بها عمه حتى انه هم بالخروج الى مناجزته بنفسه ، وكان لا يرى من بعده أهلا للقيام بحرب عبد الله الا ابا مسلم الخراسانى ، ولذلك قال له : « ليس لهذا الامر الا أنا أو أنت » • فأمتثل أبو مسلم أمر المنصور فى قمع هذه الثورة ، ولم تقمع الا بعد أن مضت عليها أشهر غير قليلة ، وهى أول حرب تقع فى صدر الخلافة العباسية بين أهل خراسان بقيادة أبى مسلم وأهل الشام فى الجزيرة بقيادة عبد الله بن على المذكور •

دور الطالبيين

ومن أهم الاحداث فى خلافة المنصور ، ان لم يكن أهمها ، تلك الثورات التى قام بها فريق من زعماء الطالبيين • وقد بدأت فى خلافة المنصور ، ولم يكن لها أثر فى أيام السفاح ، بل لم يحدث فى خلافته حدث على الطالبيين كما لم يحدث من الطالبيين حدث عليه • وقد أقضت هذه الاحداث مضاجع الخلفاء العباسيين الاولين ، خصوصا وهم يعلمون أن النفوس فى كثير من الاقطار الى خصومهم أميل ، وأن الرأى العام فيها يجنح الى تفضيل آل أبى طالب على بنى العباس ، وكان المنصور يعرف أن لآل أبى طالب مكانة مكينة فى نفوس الجمهور لا يحلم بها أكثر العباسيين ، فكان يخشى ـ لذلك ـ جانبهم ، ومطالبتهم بحقوقهم التى يعضدهم كثير من الناس فى المطالبة بها ، ومن هنا جاء حقد المنصور على الطالبيين وقتل من قتل منهم من ساداتهم واشياخهم الثائرين وعاملهم بقسوة منقطعة النظير • جاء فى تاريخ الخلفاء للسيوطى مانصه : « وفى سنة ٤٥ كان خروج الاخوين محمد وابراهيم أبنى عبد الله بن حسن بن الحسن بن على ، فظفر بهما المنصور فقتلهما وجماعة كثيرة من اهل البيت ، فانا لله وانا اليه راجعون • وكان المنصور أول من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين ، وكانوا قبل ذلك شيئا واحدا » [1] • وقال أيضا : « وممن أفتى بجواز الخروج مع محمد على المنصور مالك بن أنس ، وقيل له : ان فى اعناقنا بيعة للمنصور ، فقال : انما بايعتهم مكرهين ، وليس على مكره يمين » •

---

(١) تاريخ الخلفاء : (١٠٢) •

كانت ثورات الطالبيين مصدر قلق للطبقة الاولى من خلفاء بنى العباس ، وقد الحقت بهم ما ألحقت من الاضرار البليغة بالارواح والاموال ، وقد حاول قوم من المحدثين المعنيين بالتأريخ أن يعدوا ثورات الطالبيين المتوالية على أبناء عموتهم من بنى العباس من جملة العوامل الفعالة فى زوال الدولة العباسية ، وفى هذا الرأى ما فيه من التكلف والمبالغة ؛ لأن أخطر تلك الاحداث والبثوق التى انبثقت من ناحية الطالبيين انما وقعت فى صدر الدولة العباسية وفى خلافة خلفائها الاول كالمنصور والمهدى والهادى وآخرين من القوم، وقد تمكن العباسيون الاولون من قمهعا بشىء غير قليل من الغدر والقسوة والغلظة المتناهية على بنى العمومة المذكورين ، على اننا نرى أن شيوخ هذين البيتين من طالبيين وعباسيين عاشوا فى صفاء تام فى معظم عصور الدولة العباسية الاخيرة ، وهى العصور التى منيت فيها الدولة المذكورة بالضعف الشديد • وفى هذه العصور أحدث منصب نقابة الطالبيين ، وهو من المناصب الجليلة ، وقد تولاه كثير من أشياخ الطالبيين ووجوه العلويين فى العصور العباسية المذكورة ، لذلك لا يصح القول اطلاقا بوجود علاقة أكيدة أو صلة مباشرة بين الثورات الطالبية المشار اليها وبين انحلال الدولة العباسية •

وقد خصص ابو الفرج الاصفهانى الشطر الاكبر من كتابه المسمى : «مقاتل الطالبيين» بذكر زعماء آل أبى طالب الذين قتلوا فى عصور الدولة العباسية عصرا عصرا ، وقد ابتدأ بمن قتل منهم فى خلافة المنصور الذى بز جميع العباسيين فى ذلك ، وقد حفلت عصورهم بهذه الاحداث اذا استثنينا عددا قليلا من خلفائهم كالسفاح والامين والواثق بن المعتصم والمنتصر مالوا الى محاسنة الطالبيين ، وكان المتوكل شديد الوطأة على آل أبى طالب • قال أبو الفرج الاصفهانى : « بلغ منهم مالم يبلغ أحد من الخلفاء قبله الى أن قتل ، فعطف عليهم ابنه المنتصر • كان يرى مخالفة أبيه المتوكل ، ويظهر ذلك العطف على أهل البيت ، فلم يجر عليم مكروه فى خلافته » •

كانت غلظة المتوكل فى هذا الباب من الاسباب التى استحل بها ولده المنتصر هدر دمه كما هو معروف[1] وكان المتوكل يكره كل عباسى قبله ظهر منه شىء من الميل الى

---

(١) أنظر عن الفرق بين سيرة المتوكل وسيرة ابنه المنتصر فى هذا الشأن مقاتل الطالبيين (٥٩٧ـ٥٩٩ ، ٦٢٦) من طبعة القاهرة ، ومروج الذهب (٢/٢٨٤) ، وتأريخ الامم والملوك للطبرى (١١/٨١) ، والكامل لابن الاثير (٧/٢٠ ، ٣٩) ، وتجد أخبار خروج الطالبيين والعلويين على العباسيين فى الكامل (٥/٢٤٣ـ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٧١) • وقد عنى غير واحد من المؤرخين باخبار الطالبيين والعلويين الثائرين وتاريخ مقاتلهم ، ومن أشهرهم فى ذلك الطبرى والمسعودى وابن الطقطقى صاحب الآداب السلطانية •

آل أبى طالب ، وقد روى بعض المؤرخين أن الفقهاء أشاروا على المنتصر بقتل أبيه بعد أن حكى لهم عنه أمورا قبيحة(١) .

ومن الخلفاء العباسيين الذين اقترن تاريخهم بشدة الوطأة على الطالبيين ـ كما جاء فى كتاب المقاتل ـ المهدى والهادى والرشيد والمأمون والمستعين والمعتز والمهتدى . وهكذا الى خلافة المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠) ، وحسبك أن مصارع الطالبيين فى عصور الخلافة العباسية استوعبت جل كتاب المقاتل على ضخامة حجم الكتاب المذكور .

هذا ويحسن بالمؤرخ فى هذا المكان الالمام بتأريخ هذا الخلاف أو النزاع بين اعيان هذين البيتين الهاشميين والوقوف على علله وأسبابه ، وذلك على الصورة الآتية :

أصل الدعوة وصبغتها العامة

كانت الدعوة الى انتزاع السلطان من بنى امية هاشمية عامة فى اصلها ، شارك فيها الهاشميون : الطالبيون منهم والعباسيون ، وكانت الجمعيات السرية القائمة بها فى اواخر عصور الدولة الاموية تتألف من وجوه العلويين والعباسيين ، وممن حضرها السفاح والمنصور ، وكانت الدعوة تبث او تعلن بشكل يتناول الهاشميين جميعا ، اى ان الدعوة كانت تعلن بالاضافة الى (آل محمد او اهل البيت) . وقد بويع من بويع من وجوه الفاطميين بالخلافة سرا ، بايعه العباسيون انفسهم ومنهم السفاح والمنصور ، فكانت الدعوة الهاشمية المذكورة فى أخريات عصور الدولة الاموية على جانب عظيم من التنظيم والقوة . وقد امتاز الدعاة الهاشميون بدهائهم وخبرتهم (٢) الواسعة .

اتجه الدعاة فى أول الامر بعد سبر أحوال بنى العباس والمقارنة بينهم وبين الطالبين الى تفضيل الطالبيين ، ولكن سادات أهل البيت من الطالبيين كانوا على جانب كبير من الورع فلم يعبأوا بالامر ، وقد رفض بعضهم مقترحات الدعاة بشأن البيعة ، وكان الامويون على وشك الاستفادة من انقسام الهاشميين لولا أن الدعوة نمت نموا هائلا وسرت مسرى النار فى الهشيم ، وذلك لملاءمة البيئة لها ، وهى بيئة مشبعة بالسخط والثورة النفسية على

---

(١) انظر رواية ابن الاثير فى الكامل (٧/٤٣ـ٤٤) .

(٢) يرجع فى مايتعلق بكفاية رجال الدعوة الى الآداب السلطانية لابن الطقطقى (١١١ـ١١٢) ط الرحمانية فى القاهرة

سياسة الامويين ، وهكذا كانت الدولة من نصيب بنى العباس [١] .

هذا على ان بعض المؤرخين ، واكثرهم من الفرنجة المستشرقين يغمزون العلويين بالعجز عن انتهاز الفرص ، وان العباسيين فاقوهم بالحزم والمضاء وبعد النظر فى هذه الناحية .

والواقع : ان الطالبيين أكرهوا على الثورة فى كثير من الاحيان لشدة طلب العباسيين لهم ، الى ان صارت الثورة على حكم العباسيين شعارا لهم كما كانت من قبل على حكم الامويين . وقد انتهز بعض الطالبيين والعلويين طغيان الموالى والاتراك فى الدولة العباسية واضطراب الامور فيها بعد ذلك فقاموا بثورات عدة وحاولوا الاستقلال بجزء من البلاد الخاضعة للدولة العباسية ، وقد نجح بعض زعمائهم فى انشاء دولة لهم بطبرستان ، وهى الدولة الزيدية العلوية عاشت أكثر من مئة سنة [٢] .

المهدى ـ الهادى ـ الخيزران

أربت الفترة الواقعة بين موت المنصور وبيعة حفيده هارون الرشيد على عشر سنوات قليلا . بويع خلالها المهدى والهادى ، وتعتبر هذه الفترة ـ على الاكثر ـ امتدادا لخلافة السفاح والمنصور اذا استثنينا عناية المهدى بفتح بعض الطرق العامة وتوسيع عاصمته بغداد حتى ازدهرت فيها الصناعة والتجارة ، وعنى المهدى فيما عنى بنظام البريد فى المملكة [٣] ،وكان شديدا فى مؤاخذة المتظاهرين بالمذاهب الشاذة ، كما كان ابوه يعيبه بالاسراف والتبذير وينسب ذلك الى ضعفه وحداثته واستيلاء أعوانه عليه ، ومما لاشك فيه أن المهدى كان مغلوبا على امره لزوجته الخيزران اذ كانت تدخل أنفها فى كثير من الامور العامة الى ان حجر عليها ابنها الهادى بعد وفاة ابيه .

كانت الخيزران خائفة على نفسها من ابنها الهادى شاعرة بأنه يحاول الفتك بها ، فانها رأت فى نفسها الكفاية للمساهمة فى ادارة شؤون الدولة ، وقد كثرت الغاشية

---

(١) يرجع الى الآداب السلطانية عن اتجاه الدعوة وكيف أعرض عنها الطالبيون وكيف بويع العباسيون ، وانظر عن انتقال الامر الى اوائل بنى العباس من ابناء عمومتهم المصدر المذكور (١١٩ـ١٢٠) .

(٢) تجد أخبار هذه الدولة فى التاريخ الكامل (٧/٤٩ـ٥١) . وانظر ايضا مادة طبرستان فى معجم البلدان .

(٣) انظر عن عنايته بنظام البريد تاريخ الخلفاء للسيوطي (١٠٧) .

وازدحمت المواكب على بابها بعد موت زوجها المهدى ، ومرد ذلك على الاكثر الى حداثة سن ابنها الهادى ، اذ بويع بالخلافة وعمره نيف وعشرون سنة ، فارادت مشاركته فى سلطانه وحاولت غلبته على اموره ، وكانت صلة رجال الدولة بها وصلتها بهم حديث المحافل فى البلاد ، كما كان الهادى يطوى نفسه على كثير من الاشجان والآلام من اجل ذلك ، فهو معروف بشدة الغيرة على حرمه ، ولكن هذا الخليفة الشاب سرعان ماتنكر لامه بل ثار عليها ثورة صاخبة وخاطبها بعبارات جارحة فاضت على لسانه وكلها عذل وتقريع وتهديد ووعيد ، ومن اجل ذلك ــ على مايقول فريق من المؤرخين ــ سعت امه فى الفتك به قبل فتكه بها . وذلك فى مستهل السنة الثانية من خلافته (١) .

هارون الرشيد

بلغت بغداد ، بل بلغت الدولة العباسية أوج عظمتها وحضارتها فى عهد الرشيد ، وهو عهد امتاز بالرخاء والرفاه والغنى واليسار ، حتى ضربت بذلك الامثال وحتى وضعت فى ترف العباسيين وبذخ اعيان دولتهم قصص معروفة بعضها من نسج الخيال .

كان هارون الرشيد ــ كجده المنصور ــ من ابعد العباسيين نظرا واثقبهم فكرا خبيرا بنزعات الشعوب والاقطار الداخلة فى حكم بنى العباس مطلعا على معظم مايجرى فى البلاد المذكورة اذا استثنينا اغلاطا سياسية وقعت له ــ كما سترى ذلك ــ .

معسكر الرقة

قواعد حربية للعباسيين

كان الخطر ماثلا امام الرشيد والفتنة واقعة لامحالة من ناحية البلاد المأهولة بعدد غير قليل من انصار الامويين والقبائل الموالية لهم ، وفى مقدمة تلك البلاد : ديار بكر وربيعة فى الشرق والشمال ، وديار الشام فى الغرب ، بل كان الرشيد يعرف من ينسج غزل هذه الفتن من بنى العباس الموتورين انفسهم فضلا عن غيرهم ، ولذلك فكر المنصور وفكر بنوه واحفاده ــ وفى مقدمتهم الرشيد ــ فى اتخاذ قاعدة عسكرية كبرى تكون على مقربة من الشام او متوسطة بينها وبين الجزيرة ، ومن هذه القاعدة يشرف بنو

---

(١) انظر عن قصة الخيزران وعلاقتها بموت الهادى وتضارب اقوال المؤرخين فى ذلك تاريخ الطبرى (١٠/٣٣ـ٣٤) والمروج (٢/١٨٤) والكامل (٦/٤٠ـ٤١) وقد روى المؤرخون المذكورون نص خطاب الهادى لامه الخيزران الذى احفظها عليه .

العباس على مايجرى فى البلاد الواقعة شرقى الفرات وغربيه فاختار الرشيد « الرقة » (١) وزاد فى ابنيتها التى بناها المنصور واكثر من الاقامة فيها .

وصف المؤرخون طيب هواء « الرقــة » و « الرافقــة » كما لو كان طيب الهواء وعذوبة الماء فيهما علة العلل فى انتقال الرشيد اليها . مع ان الرقة لم تكن الا قاعدة من جملة قواعــدهم العسكرية تشحن بالمقاتلة لدرء الاخطــار التى قد تنجم من الغرب او الشرق ، ولولا ذلك مافارق العباسيون عاصمة ملكهم بغداد (٢) .

حنين العباسيين الى بغــداد

كانت أغراض العباسيين العسكرية ـ كما قلنا ـ تفرض عليهم الصدود عن بغداد والاكثار من الاقامة فى الرقة كما فعل المنصور وهارون الرشيد وغيرهما من خلفاء بنى العباس ، وقد اشار الرشيد نفسه الى هذا الموقع العسكرى الممتاز الذى انفردت الرقة وتميزت به على بغداد . وذلك لما اجتاز بغداد وعبر جسرها فى طريقه من الرى الى الرقة رأسا دون ان يقيم في العاصمة وذلك سنة ١٨٩ فقال ماهذا نصه : « انى لاطوى مدينة ماوضع بشرق ولا غرب مدينة أيمن ولا أيسر منها ، وانها لدار مملكة بنى العباس مابقوا وحافظوا عليها . مارأى احد من آبائى سوء ولا نكبة فيها . ولنعم الدار هى ولكن اريد المناخ على ناحية اهل الشقاق والنفاق والبغض لائمة الهدى والحب لشجرة اللعنة مع مافيها من المارقة والمتلصصة ومخيفى السبل ، ولولا ذلك مافارقت بغداد » (٣) ، من هذه الجملة يتجلى رأى العباسيين فى فضل بغــداد وحنينهم الى الاقامة فيها وحسرتهم على مفارقتها لولا مايعنيهم من الاشراف عن كثب على مايجرى فى بلاد الشام او مايجرى فى ديار الجزيرة شرقى الفرات والاهتمام بقمع الفتن الناجمة من هناك ، فما ان مات ابو العباس السفاح سنة ١٣٦ حتى طلعت الفتن بعضهــا فى اثر بعض من تلك الاقطــار طبقا لمــا توقعها الرشيد .

الفتن تترى

وهاهى الاحداث تترى على عدوتى الفرات الاعلى وما وراءهما شرقا وغربا بحيث

---

(١) تجد سبب اقامة الرشيد فى الرقة فى الكامل (٦/٧٦ـ٧٧) .

(٢) انظر عن الرافــقة والرقــة وعناية المنصور والرشيد بهاتين الحاضرتين معجم البلدان (٢/٧٣٤ـ٧٣٥) ط « لايبسك » وانظر الكامل لابن الاثير (٦/٧٦ـ٧٧) .

(٣) انظر رواية ابن الاثير لهذه الكلمة في الكامل (٦/٧٧) .

لم يخل منها عصر من عصور العباسيين الاول بعد السفاح • فمن خاع الى خلاف فى ايام ابى جعفر المنصور الى فتن عادت جذعه بين القيسية واليمانية فى الشام ، ومن مؤامرات لخلع الرشيد ، الى قتال دام بين الابناء المجندين من العجم وبين قبائل العرب ، الى احداث اخرى تدل على ان هؤلاء الخلفاء الاول من بنى العباس كانوا على صواب فى تخوفهم من القلائل الناجمة عن تلك الاصقاع وفى استعدادهم لمواجهتها ، ونحن نقص عليك قصصها فى مواضعها من هذا الكتاب •

خلع المنصور

ظهر القطر الشامى بأسره تقريبا بمظهر المناوىء للعباسيين بعد قيام دولتهم بسنوات قليلة ؛ فما ان بلغ اهل دمشق موت السفاح حتى اعلنوا بيعتهم لامير اموى ـ يدعى هاشم ابن يزيد ، وهو من احفاد يزيد بن معاوية بن ابى سفيان ـ وخلعوا المنصور وكان ذلك سنة ١٣٦ وقيل سنة ١٣٧ ، حيث خرج اليهم صالح بن على عم المنصور ـ وهو على ولاية مصر ـ فهرب اهل دمشق وملك صالح البلد المذكور ، وقد ورد ذكر هذه الحادثة فى كتاب النجوم الزاهرة (١) ، وجاءت فى كتاب « الولاة وكتاب القضاة » (٢) للكندى اشارة الى حادثة شبيهة بحادثة دمشق ولكنها وقعت فى فلسطين حيث اعلن القائمون بها خلع المنصور فاستطاع الامير صالح بن على العباسى أن يقمع ـ ايضا ـ هذه الحركة بعد مقتلة عظيمة ، ولم يرد لحادثة دمشق ذكر فى الكامل لابن الاثير ولا فى تاريخ الطبرى ، وفى هذه السنة نفسها ـ اعنى سنة ١٣٧ ـ دعى عبدالله بن على المار ذكره ـ وهو من اكبر اعمام المنصور ـ الى نفسه وايده كثير من اهل الشام ، ولكن ابا مسلم الخراسانى واقعه فى « نصيبين » فالتجأ بعد هزيمة منكرة الى اخيه سليمان بن على وهو والى البصرة ، وقد مرت الاشارة الى هذه الحادثة (٣) •

لاغرو اذا تنكر المنصور بعد قيام عمه عليه ودعوته الى نفسه ، ولا عجب اذا اصبح كثير الشك والارتياب بنيات اعمامه وابنائهم وذويهم • وفيهم الامير صالح بن على أخو عبدالله بن على ، وكان الامير صالح واليا على مصر والاقطار المغربية ، فشدد المنصور

---

(١) (١/٣٣٢ـ٣٣٣) •

(٢) (١٠٣ـ١٠٤) ط بيروت •

(٣) فى الصفحة (٤١)•

رقابته وبث عليهم العيون والارصاد وشرع فى الحد من سلطانهم وفى تقليص اعمالهم وصرف غير واحد منهم عن الولايات الجليلة[1] واكتفى بتقليدهم بعض الاعمال الضئيلة ، وكان نصيب بعض ابنائهم السجن والاضطهاد فى عصر الرشيد .

حزب آل على

ولابدع اذا تكون من العباسيين حزب قوامه آل على المذكورون . اعمام السفاح والمنصور وابناؤهم واشياعهم ، وهو حزب يطالب بنقل الخلافة الى هذا الفرع من بنى العباس ويتحين كل الفرص السانحة لاستفزاز شعور العرب فى الشام والجزيرة وفى ديار مضر وربيعة وتأليبهم على العجم واهل خراسان .

كان لهذا الحزب العباسى ـ وجل انصاره من قبائل العرب ـ ضلع قوى فى فتنة الامين والمأمون ، وكان لزعمائه شأن يذكر فى هـذه الحادثة وتأييـد اول الاخوين على اخيه الثانى ، كما ستراه فى بعض الفصول الآتية :

العصبية بين المضرية واليمانية

نشبت الفتنة وهاجت العصبية بين المضرية واليمانية فى مصر ودمشق بعد مضى ست سنوات على بيعة الرشيد ـ اى فى سنة ١٧٦ ـ ، وفى تجدد هذه الفتنة فى الشام أقوال وفى رواية نصوصها اختلاف [2] ، ولم يتم الاصلاح الا فى سنة ١٨٠ [3] ، وهذه الفتنة ليست الاخيرة فى عصر الرشيد فقد هاجت مرة اخرى سنة ١٨٧ [4] ، ثم ظهرت فتنة كبرى بين المضرية واليمانية فى الموصل [5] قتل فيها خلق كثير من الفريقين ، وثارت القيسية بدمشق فى خلافة المعتصم[6] ، اضف الى ذلك احداثا اخرى شهدتها ديار ربيعة

---

(١) عزل المنصور عمه صالح بن على ثلاث مرات فى سنة واحدة ، وتجد تفاصيل ذلك فى كتاب الولاة للكندى : (١٠٦) وكان نصيبه السجن الشديد فى خلافة الرشيد ولم يفرج عنه الا بعد بيعة الامين .

(٢) تجـد اخبار هذه الفتنـة فى تـاريخ الطبرى (١٠/٥٩ـ٦٠) وفى الكامل (٦/٥١ـ٥٤) وقارن بين روايات المؤرخين ولاحظ الاختلاف بينها فى الكتابين المذكورين .

(٣) فى هذه السنة سار جعفر بن يحى البرمكى الى الشام ومعه القواد والعساكر والسلاح والاموال فأطفأ النائرة ، انظر الكامل (٦/٦١) ، قال ابن تغرى بردى : (وهذه الفتنة هى سبب العداوة بين قيس واليمن الى يومنا هذا) .

(٤) ارجع الى المصدر نفسه (٨٦) .

(٥) تجد أخبار هذه الفتنة فى المصدر المذكور (١٢٣) .

(٦) المصدر المذكور (٢١٧) .

ومضر وشهدتها الشام فى هذه الفترة : مثل خروج السفيانى فى الشام والتفاف موالى الامويين حوله ومعاونة كلب وغيرها من قبائل البادية له[١] ، وخروج المبرقع الاموى فى عصر المعتصم [٢] ، الى غير ذلك ، واذا تأملنا تاريخ الدولة العباسية ظهر لنا أنه تأريخ حافل باحداث القيسية واليمانية من العراق شرقا الى الاندلس غربا ، اذ كان ولاة بنى العباس فى عناء دائم مع القبيلين المذكورين خصوصا من استقر منهم فى المملكة المصرية [٣] .

عمال الرشيد فى المشرق :

الفضل بن يحى

كانت الدولة العباسية على عظمتها وسعة رقعتها فى عصر الرشيد او فى سنة ١٧٦ تحكم بالبرامكة ، فكان الغرب كله من حدود الانبار الى المغرب الاقصى مردودا الى جعفر ابن يحى بن خالد البرمكى ، كما كان المشرق كله من حدود النهروان فى العراق الى اقصى بلاد الترك مردودا الى الفضل بن يحى ، وهو ـ اى الفضل ـ رضيع الرشيد اذ كانت امه ظئرا له . وقد نشأ الامين بن الرشيد فى حجر الفضل المذكور .

شخص الفضل الى عمله فى الشرق سنة ١٧٨ ولم تطل مدة ولايته ، بيد ان المؤرخين أثنوا على سيرته فى الشرق وفى خراسان ونوهوا بأعماله وفتوحه[٤] ، ويستنتج من اقوالهم ان الفضل كان على جانب لايستهان به من الكفاية والحذق السياسى كارها لسفك الدماء ميالا الى معالجة المشكلات السياسية بوسائله السلمية ، وقد استعان على ادارة الشؤون فى اعماله بسخاء ضربت به الامثال . وبذلك صلحت نيات الرؤساء وطابت قلوبهم كما تشهد بذلك سيرته وأخباره [٥] ، ولكن الرشيد لم يلبث حتى سخط عليه ،

(١) الكامل (٦/١٠٠) .

(٢) المصدر عينه (٢١٧) .

(٣) انظر عن حوادث القيسية واليمانية فى مصر تاريخ ابن خلدون (٤/١٢٤) ط. مصر ، والنجوم الزاهرة (٢/٢٤٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٨٠ ، ٢٩٩) .

(٤) يرجع الى تاريخ الطبرى (١٠/٦٤ـ٦٥) ومروج الذهب (٢/٢٠١ـ٢٠٢) وكتاب الوزراء للجهشيارى (١٩١ـ١٩٢) ، وتجد اوسع ترجمة للفضل بن يحى فى تاريخ الخطيب (١٢/٣٣٤ـ٣٣٩) ووفيات الاعيان (١/٤٠٨ـ٤١٢) .

(٥) انظر عن بعض اساليبه السياسية تاريخ الطبرى (١٠/٥٤ـ٥٩) وكتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى (١٠٩) ومقاتل الطالبيين للاصبهانى (٣٠٨ـ٣٢٢) ط النجف

ويرد بعض المؤرخين هذا السخط الى وشايات الحساد ، وبعضهم الى تهاونه في الجباية ، وآخرون الى الرفق ببعض العلويين والطالبيين •

ابن ماهان : والى خراسان الجديد

استشار الرشيد نصحاءه فيمن يخلف عامله البرمكي المعزول عن الولايات الشرقية• وكانت من اهم ولايات الدولة واغناها ، فرشح الفضل بن الربيع صاحبه على بن عيسى بن ماهان وخالفه يحى بن خالد وهو والد الوالى المعزول ، وكان من رأى يحى أن ابن ماهان لايصلح لولاية خراسان خلفا لابنه (١) ، بيد أن الرشيد أخذ برأى ابن الربيع واغفل رأى يحى ، وهكذا اصبح ابن ماهان خلفا للفضل البرمكى على الولايات الشرقية •

يعد على بن عيسى بن ماهان من جبابرة العصر العباسى الاول ، نشأ فى عصر الرشيد وعاش الى عصر الامين والمأمون وشارك فى الفتنة بينهما ، وكان الى جانب الامين فيها لانه هو وصاحبه الحميم الفضل بن الربيع وزير الرشيد من اعدى أعداء المأمون ، ومرد هذه العداوة الى ان المأمون لم يكن يرى رأيهما فى كثير من الشؤون السياسية ، ومنها — على الغالب — نكبة البرامكة فان للمأمون فيها رأيا آخر • اذ كان يفضل التخلص من البرامكة بطريقة اخرى • كما كان غير واحد من اقطاب الدولة يرون رأى المأمون فى ذلك ، ومنهم بنو سهل وزراؤه ، ولما نكب ابن ماهان فى أواخر خلافة الرشيد أظهر عبدالله المأمون اغتباطه بذلك ، هذا اذا لم نقل ان له يدا فى هذه النكبة ، ولما مات الرشيد تجلت هذه العداوة بين الفريقين ، ذلك ان ابن الربيع — وكان يصحب الرشيد فى رحلته الى خراسان — ذهب الى ابعد حدود الغطرسة والعناد والاعتداد بالنفس ، فانه — عند منصرفه من خراسان — لم يشأ ان يودع ولى العهد وقد أوشك ان يبايع بالخلافة ، ويعد ذلك بمثابة انكار لبيعة المأمون حتى أنه — أى المأمون — حاول رد ابن الربيع عن وجهته الى العراق قسرا ثم أعرض عن ذلك •

فتنة الاخوين :

استهل ابن الربيع أعماله فور وصوله الى بغداد بخلع المأمون ومبايعة الامين ، وكان فى مقدمة من بايع صاحبه ابن ماهان ، بيد ان حفلة البيعة — وفيها تم تعيين ابن ماهان قائدا لحرب المأمون — كانت فاترة جدا لم تخل من المعارضين لخلعه ، وفى الحفلة

---

(١) تأريخ الطبرى (١٠/٩٥) •

المذكورة نهى الامين عن زج الجيش وقواده فى السياسة • فان قواد الجيش اذا اجترؤا على خلع الخلفاء لم يفرقوا بين هذا وذاك ، وهكذا كان [١] ، وقد ارتكب الامين فى اختياره لابن ماهان ليقوم بحرب المأمون غلطة منكرة ، فان لهذا القائد سمعة سيئة فى خراسان ، ويقول بعض المؤرخين : انها مكيدة وقع فيها الامين وانها من صنع رجال المأمون [٢] ، وليس ذلك بعيدا على رجل اشتهر بالغفلة وقلة الحنكة كمحمد الامين •

لم يكتف ابن ماهان واصحابه بخلع المأمون بعد بيعة الامين ، بل حرموه من ولاية العهد ، وعقدت هذه الولاية لطفل من اطفال الامين كان فى حجر ابن ماهان ، وقد قوبلت هذه الاعمال بشيء غير قليل من الاستنكار ، واعتبر سلوك الامين وتصرف حزبه بمثابة الخيانة ، وهو سلوك أضر ضررا بالغا بمصلحة الامين فانحرف الناس عنه • انحرف عنه العراقيون وانحرف عنه المصريون فبايعوا المأمون بيعة عامة فضلا عن اهل خراسان ، ويلاحظ ميل ظاهر من جانب القواد الى المأمون [٣] ،وقد سارت لادباء بغداد وشعرائها فى هذه المحنة اقوال ، وابدع بعضهم في وصف هذه المأساة التاريخية وما تركته من الاسى في النفوس [٤] •

من ذلك يتجلى لنا ان ابن ماهان كان طاغية حدثته نفسه بنصب نفسه حاكما مطلقا فى دولة بنى العباس ودار فى خلده ـ كما دار فى خلد صاحبه ابن الربيع ـ ان يحل محل البرامكة ولا عجب ، فانه فى مقدمة المساهمين بنكبتهم بلا ريب ، ولم يخامره اليأس من الظفر ببغيته حتى بعد نكبة الرشيد له وعزله عن عمله فى خراسان ، ومن اجل ذلك أجمع رأيه ورأى شريكه ابن الربيع على خلع المأمون •

فترة انتقال في خلافة الرشيد :

كان عزل الفضل بن يحيى البرمكي بعلى بن عيسى بن ماهان فترة انتقال فى تاريخ خلافة الرشيد ، انتقلت خلالها الولايات الشرقية من حال الى حال ، فهى فترة عصيبة تابعت

---

(١) تجد وصف الحفلة المذكورة ونصوص الرسائل المتبادلة بين الاخوين المتنازعين فى تاريخ الطبرى (١٠/١٣٨ ومايليها) ومروج الذهب (٢/٢١٠ ـ ٢١٢) والكامل (٦/٩٦ ـ ٩٩) ووفيات الاعيان (١/٣٣١) ط باريس •

(٢) نقل ذلك الجهشيارى فى كتاب الوزراء والكتاب (٢٢٨) •

(٣) المصدر نفسه (٢٩٢) والكندى فى كتاب الولاة والقضاة (١٤٨ـ١٤٩) •

(٤) تجد بعض القطع الشعرية المنظومة فى هذا الباب فى مروج الذهب (٢/٢١٤ ـ ٢٢٤) •

فيها فتن واضطرابات دفع هذا الخليفة ثمن استئصالها غاليا ، وهو حياته نفسها ، فانه غادر معسكره فى الرقة بنفسه لقمع ثورة خطيرة مردها الى قسوة عامله الجديد وسوء سيرته فى تلك الولايات الشرقية ، وكان ذلك سنة **١٩٣** وفيها وافى الرشيد أجله فى خراسان .

لم يكن ذلك فحسب ، بل تلت الفتنة المذكورة سلسلة من الفتن اشهرها فتنة الامين والمأمون وهى فتنة كانت سياسة الفضل بن الربيع وصاحبه ابن ماهان من العوامل الفعالة فى حدوثها كما قلنا ، ولنا ان نقول : ان سياسة هذين الرجلين كانت سياسة هدامة فى كيان الخلافة العباسية . وهى السبب الاول فى كل ماوقع من فساد وسفك دماء ودمار فى فتنة الاخوين .

جريرة ابن ماهان على الرشيد :

لم تكن ولاية ابن ماهان على خراسان وماوراء النهر ـ وهى من اغنى اقطار الدولة العباسية كما قلنا ـ قصيرة الامد ، فانهاناهزت عشر سنوات ، وهى مدة غير قليلة رسخ فيها سلطان هذا الوالى وزادت مكنته ، ومن اجل ذلك حصلت له من هذه الولاية كما حصل لاهله واتباعه ثروة بالغة يخطئها الاحصاء .

حصل آل ماهان واتباعهم على اكثر هذه الثروة من وجوه غير مشروعة غالبا كالغصب والمصادرة والمظالم والرشا والهدايا وما الى ذلك ، ومجمل القول : نحا الوالى الجديد فى سياسته نهجا يخالف نهج سلفه اذ كان هذا يميل الى الرفق وكان الوالى الجديد يميل الى الشدة فى الجباية والعسف فى اخذ الخراج ، وفى هذا السبيل قتل صناديد خراسان وطراختنها [١] وحمل اموالهم وكانت اموالا طائلة الى بغداد فاغتبط الرشيد بوصولها ظانا بأن عامله جبى تلك الولايات ونفوس اهلها طيبة ، ولم يعلم ان الامر على خلاف ماظن وان العامل ارهق الرعية واساء السيرة وخان الامانة ، علم ذلك بعد حين فاظلمت الدنيا فى عين هذا الخليفة وثار على عامله المذكور ، وتتجلى ثورة الرشيد النفسية اذا لاحظنا نص رسالته الى العامل فانها رسالة منقطعة النظير فى شدة اللهجة [٢] ومن هذه الرسالة يتضح ان ابن ماهان ماكان يصدر عن رأى الرشيد فى كثير من اعماله بل كان نابذا لوصاياه .

---

(١) نقل ذلك الجهشيارى فى كتاب الوزراء والكتاب (٢٢٨) .

(٢) تجد نص هذه الرسالة فى تاريخ الطبرى (١٠/١٠٢ـ١٠٣) .

حوار في السياسة :

هذا على ان يحى بن خالد البرمكى وهو والد الفضل المعزول استهجن بمحضر الرشيد سياسة الوالى الجديد فى محاورة جرت بينهما [١] ولم يطب له اغتباط الرشيد بحمل المال من الولايات الشرقية الى بغداد ، وكان من رأى البرامكة ان اصلاح المشرق يستدعى حمل المال الى تلك الولايات لامنها فى ذلك الحين ، وقد ساق المؤرخون نص تلك المحاورة بين الرشيد ويحى فى هذا الشأن ، ومما قاله الثانى للاول : ان هذا المال مهما كثر لا يكفى لرتق الفتوق ورأب الصدوع الناشئة عن السياسة الهوجاء سياسة ابن ماهان ، وكان الامر كما قال • فان سياسة الوالى افضت الى ثورة كبرى فى المشرق انفق الرشيد على قمعها ماجبى له من خراسان وغيره أضعافا مضاعفة •

يستغيثون بالخليفة :

طلب أعيان المشرق من عرب وعجم وترك غوثا عاجلا من الرشيد وشكوا اليه عسف ابن ماهان • فعنى بمطالب القوم ولم يسعه الا الخروج الى الرى لان نار الثورة كانت وشيكة الاندلاع فى تلك البلاد ، وفى حدوث هذه الثورة من ناحية المشرق مافيه من الاساءة الى سمعة بنى العباس • فان خراسان مهد الدعوة وموئل الاولياء والانصار ، خرج الرشيد الى خراسان سنة ١٨٩ عازما على معاقبة عامله اذا أسفر التحقيق عما يستوجب ذلك ، بيد ان ماهان وافى الرشيد كما وافى ولده واهل بيته وقواده على قدر مراتبهم بهداياه ، وقوام هذه الهدايا طرائف خراسان من متاع وآنية الذهب والفضة وجواهر وسلاح ودواب ورقيق وثياب لم ير مثلها قط [٢] ، الى غير ذلك مما عظم قدره فى عين الرشيد ولم تصح عنده كل التهم المنسوبة الى عامله ، وبدا له ان هناك غلوا فى اسناد التهم الى ابن ماهان ، فرضى عنه ورده الى عمله واقره على سياسته ، بل خرج مشيعا له لما اراد الرجوع الى خراسان •

هذا كل مافعله الرشيد بعامله بعد نزوله فى الرى اغاثة لرعاياه من سكان الولايات

---

(١) تجد هذا الحوار أو المقارنة بين سياسة ابن ماهان وسياسة الفضل بن يحى البرمكى فى كتاب الوزراء والكتاب (٢٢٨) وتاريخ الطبرى (١٠/٩٥ ـ ٩٦) ومنها يظهر ندم الرشيد على ثقته بابن ماهان ٠

(٢) تاريخ الطبرى (١٠/٩٦) والكامل (٦/٧٦) والنجوم الزاهرة (٢/١٢٧) ٠

الشرقية ، ولنا ان نعتبر ذلك ضعفا بالغا فى سياسة الخليفة ، ولا شك انه تأثر بآراء بعض قواده واصحابه الذين امتلأت ايديهم بالنفائس والجواهر الكريمة ، وقد لاحظ بعض المؤرخين هذه الناحية من نواحي الضعف فى سياسة الرشيد وبطانته مع ابن ماهان ، ومنهم ابن تغرى بردى المؤرخ المشهور(١) .

عاد اهل الولايات الشرقية الى التذمر من سيرة عاملهم اكثر من الاول ، ووصلت الى الرشيد انباء جديدة عن عتو ابن ماهان وجبروته وتماديه فى تحيف الرعية وجمع الاموال وأخذ الرشا ، وهى انباء اكيدة وافى الرشيد بها أناس يوثق بهم ، ولم يبق معها شك فى خيانة هذا العامل ولؤمه ، ولذلك راح الرشيد يستشير اصحابه بمن يعزل به ابن ماهان من ذوى الكفايات . اذ ليس من السهل عزل مثل هذا الوالى الطاغية .

هرثمة بن أعين :

كان هرثمة بن أعين بن نصر بن المسيب الضبى من ذوى الاقدار فى دولة الرشيد ومن كبار قادته الذين يدخرهم للأيام العصيبة والمهام الخطيرة ، ويدلنا تصفح سيرته انه بطل ممتاز قمع فتنا كثيرة فى عصر الرشيد . ولى مصر وتقلد أعمالا جليلة فى افريقية والمغرب والقيروان والعراق وخراسان ، وهو بعد ذلك منقطع النظير فى جرأته وفى شعوره العميق بكرامته وفى اعتزازه بنفسه ، وقد قتله هذا الشعور الفياض فى خلافة المأمون(٢) ـ وكان من أكبر قواده ـ فى حصار بغداد والتغلب على اخيه الامين(٣)

على هرثمة هذا وقع اختيار الرشيد لرتق الفتوق فى ثغور خراسان بعد ان اشتور فى الشخص الذى يعزل به عامله ابن ماهان ، وقد طلب الرشيد ان يستصفى اموال الرجل

---

(١) انظر ما قاله ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة (١٢٧/٢) . وهذا نصه : قلت : ولله در القائل فى هذا المعنى :

بعثت فى حاجتى رسولا ... يكنى « أبا درهم » فتمت
ولو سواه بعثت فيها ... ما نالت النفس ماتمنت »

(٢) تجد نبذة من أخبار هرثمة فى كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى وفى تاريخ الطبرى (٦٢/١٠ـ٦٨) والكامل (٥٥/٦ـ٥٧) والمروج (٢١٧/٢) وكتاب الولاة والقضاة للكندى (١٣٦ ، ١٤٣) ومعجم البلدان (٣٤٧/١) و (٥٢٢/٣) و (٦٦١/٤) من طبعة لايبسك وراجع النجوم الزاهرة ٨٨/٢ ـ ٩٢ ، ٩٦ ، ١٠٣ ، ١٣٦ ، ١٤٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٦٦ ، ٢٢٩) .

(٣) مروج الذهب (٢١٧/٢) .

وان ينصف المظلومين منه ومن اتباعه ويرد اليهم حقوقهم المهضومة [(١)] .

حالف النجاح هرثمة فى مهمته ، فتغلب على غريمه ابن ماهان وانفذ فيه وفى اصحابه أوامر الرشيد وتمكن من مصادرة امواله واموال اهله واتباعه كافة ، ويقال : انه صادر منهم ماحمولته الف وخمسمائة جمل ، وقد تم ذلك كله دون ان تسفك قطرة دم ، ثم سير ابن ماهان نفسه على بعير بلا وطاء الى العراق [(٢)] وقد اكتفى الرشيد من عقوبة عامله المجرم بهذه الاهانة ـ وهى عقوبة خفيفة ـ ، والغالب ان ابن ماهان مدين بالابقاء على حياته الى صاحبه الفضل بن الربيع وزير الرشيد فى بغداد . فان مستقبل البلاد يحمل فى طياته فتنا اخرى لايستغنى ابن الربيع فى مواجهتها عن صاحبه المذكور .

هذا وقد بقى على هرثمة ـ بعد ظفره بابن ماهان [(٣)] ان يعمل بأوامر الرشيد فى قمع الثورة التى اعلنت فى الشرق بسبب سوء ادارة العامل المذكور .

انتقاض المشرق على الرشيد :

لم يكن لاهل ماوراء النهر واهل خراسان بد من الانتقاض على ابن ماهان ، وكانت الثورة هينة فى اول امرها لولا مساهمة البقية الباقية من أنصار الامويين وأشياعهم فى المشرق بقسط لايستهان به من الحركة ، فقد بقيت لنصر بن سيار آخر ولاة الامويين فى خراسان ذرية واتباع يقودهم حفيده رافع بن الليث بن نصر ، وبذلك تطور الخلاف الى ثورة أموية على الخليفة العباسى لم يجد الرشيد بدا من النهوض لقمعها بنفسه من معسكره فى الرقة .

اعلن رافع بن الليث ثورته ، ولا سبب لها فى الظاهر الا مظالم عمال الرشيد وسوء سيرتهم ، حتى قيل : ان رافعا لم يخلع البيعة ولم يعلن الثورة خصومة لبنى العباس وجنوحا الى بنى أمية ، بل استنكارا لسيرة ابن ماهان الذى سامه وسام اتباعه ماسامهم من مكروه [(٤)] ، وما كان هذا المكروه الذى اشار اليه المؤرخون الا التفريق

---

(١) تأريخ الطبرى (١٠/١٠٧) .

(٢) الكامل (٦/٧٢) .

(٣) تجد طرفا من أخبار ابن ماهان فى تاريخ الطبرى (١٠/١٠٠ـ١١١) ، وفى كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى (١٦٧ ، ٢٠٥ ، ٢٢٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٩١ ـ ٢٩٤) ، والكامل (٦/٧٦ ـ ٧٨) ، والنجوم الزاهرة (٢/١٠٦ ، ١١٩ ، ١٢٧ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٩٧) .

(٤) يراجع عن ذلك تاريخ الطبرى (١٠/١٠٣) .

بينه وبين امرأة كانت له بها صلة غير مشروعة ، وقد تم ذلك على يد ابن ماهان بشيء غير قليل من الفضيحة والتشهير ، ويعلل بعض المؤرخين خروج رافع بدافع من العاطفة القومية • فقد عظم عليه تحامل ابن ماهان على عرب خراسان واظهار الجور وسوء السيرة فيهم فأراد بحركته رفع الضيم عن قومه(١) ، ويفهم من بعض النصوص التاريخية أن ابن ماهان كان حقودا لايهون عليه تقدم العرب على غيرهم في الدولة العباسية ولكنه انحاز فيمن انحاز من العرب الى جانب الأمين متأثرا بمصالحه الشخصية •

لايخامرنا أدنى شك بما أصاب رافعا وغير رافع من المكروه على يد ابن ماهان ، كما لايساورنا أدنى ريب بأن رافعا لم يكن خيرا من ابن ماهان ، واذا صح مارواه المؤرخون جاز لنا ان نقول : بأن لصلته بالمرأة المذكورة شأنا في اعلان هذه الثورة (٢) •

والخلاصة: كانت هذه الحركة على جانب كبير من الخطر ، جمع لها رافع فلول الضالعين مع بني امية من عرب وعجم واستولى على كثير من نواحي خراسان ، وطابقه على رأيه اهل ماوراء النهر ، وبسبب ثورته عزل ابن ماهان

ضيق هرثمة الخناق على رافع ، وكان الظفر حليفه في أكثر وقائعهم في سمرقند وبخارى ، ومنها واقعة اسر فيها اخ لرافع اسمه بشير وقعت سنة ١٩٣ ، وقد طال الحصار على رافع بسمرقند وضايقه قادة العباسيين حتى فتحت تلك البلاد وقتل رافع وجماعة من اهله ، وكان ذلك سنة ١٩٥ ، أي بعد وفاة الرشيد بسنتين •

أمير مصر يتهم بالخلاف

ولي مصر للرشيد موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن العباس ، وهو أمير مضى لوالده عيسى شأن خطير في تأريخ الدولة العباسية • اذ كانت رتبته تلي رتبة أبي جعفر المنصور في الدولة ، وقد بويع ـ أعني والد الأمير ـ بولاية العهد غير مرة وخلع غير مرة في أحداث وأحوال عجيبة ـ كما ستراه عن قريب ـ ، وولي ابنه هذا امارة مصر للرشيد فيما بين سنة (١٧١-١٨٠) ثلاث دفعات ، وليس له في أمراء بني العباس على مصر نظير

(١) الأخبار الطوال لابي حنيفة الدنيوري (٣٦٩ ـ ٣٧٠) •

(٢) غمز المؤرخون رافعا هذا بالفجور ، انظر في هذا الصدد رواية الطبري في تاريخه (١٠/٩٨ ـ ١٠٨) ، وابن الاثير في الكامل (٧٨/٦) وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة (٢/١٣٢) ، وفي هذا المصدر نبذ تاريخية عن رافع تجدها في الصفحات التالية (١٠١ ، ١٣٢ ، ١٤٢) •

من هذه الناحية ، بيد أن الأمير حدثته نفسه ـ على ما يقول المؤرخون ـ بالخلاف فعزله الرشيد بدون اشارة فى الغالب الى كيفية ذلك الخلاف ، ويرد بعضهم عزله الى اتصال السعايات به وكثرة تظلم المصريين منه[1] ، وقد استعمل المؤرخون عبارات مجملة او موجزة عن خلاف الأمير مثل قولهم : « عازم على الخلع » أو « عازم على الخلاف »[2] ، ولم ينسب اليه عمل غير ذلك ، وقد اعتبرت هذه العزيمة تهمة فى ديوان الرشيد ولكنها لم تدعم ببينة ، ومع ذلك عوقب موسى بالعزل ، فهو عقاب على مجرد النية ، ونية المرء غير عمله ، والدليل على ذلك أنه عاد بعد عزله مرة أخرى الى امارة مصر بأمر الرشيد نفسه[3]، وكان بعض بنى العباس يعاقبون على التهمة قبل قيام البينة اذا بلغهم مثل هذا الخلاف ، وذلك لكثرة حوادث التمرد فى تلك العصور .

من رأينا أن الشك فى أخلاص هذا الأمير ناشىء عن نزاع قديم بين أبيه عيسى والمنصور ثم بينه وبين المهدى ، وهو نزاع معروف فى التاريخ مداره حق عيسى المذكور فى البيعة بعد عمه المنصور ثم بعد ابن عمه المهدى ، وقد شهد هذا الأمير مراحل ذلك النزاع الخطير ، وأوشكت الخصومة العنيفة فى بعض المراحل المذكورة أن تعصف بحياة أبيه وحياة أبنائه وذويه ، ولكن الولد نجح فى حمل والده على التسليم وحسم النزاع بدون أن تراق قطرة من دماء بنى العباس فى هذا السبيل .

عيسى ولى عهد السفاح

عقد السفاح ولاية العهد قبيل وفاته سنة ١٣٦ لاثنين من العباسيين . اولهما أخوه المنصور وثانيهما ولد أخيه عيسى بن موسى المشار اليه ، وقد أخذت البيعة للثانى وهو أمير على الكوفة ، ويبدو لنا من التأمل فى تأريخ الطبقة الأولى من بنى العباس أن صلة عيسى ابن موسى بأعمامه كانت صلة وثيقة منذ فجر شبابه . فانه ترعرع فى كنف أعمامه وهو يتيم فى الحميمة . وصحبهم بعد ذلك فى حلهم وترحالهم . وشاركهم فى سرائهم وضرائهم صحب أعمامه فى رحلتهم من الحميمة الى الكوفة وفيهم السفاح والمنصور ـ بعد حبس

---

(١) الجهشيارى فى كتاب الوزراء والكتاب (٢١٧) .

(٢) قف على هذه العبارات فى تأريخ الطبرى (١٠/٦٠ ـ ٦١) والكامل (٦/٥٠) والنجوم الزاهرة (٢/٧٨) .

(٣) راجع عن ولايته الثالثة لمصر النجوم الزاهرة (٢/٩٨) .

ابراهيم الامام فى « حران » ـ ، وهى رحلة اهتز لها كيان الدولة الأموية . لأن القوم خرجوا متكتمين خائفين الى أوليائهم وأنصار دعوتهم فى الكوفة [1] . حيث ظهر أمرهم وخطب السفاح فى الكوفيين وأخذت البيعة له فى يوم مشهود .

يغامرون فى طلب الحرية

وتعد هذه الحركة أو الرحلة ـ ومردها الى طغيان الأمويين واضطهادهم للهاشميين ـ من اشهر المغامرات الجريئة فى التأريخ ، اذ ما عسى أن تصنع شرذمة عدتها أقل من عشرين فى قطر تسيطر عليه جيوش جراره للامويين يقودها رؤساؤهم وكبار رجالهم ، فهـذا مروان بن محمـد يطـل على العراق من « حران » ، وهـذا ابن هبيرة[2] أمير العراقين من قبله يدافع عن واسط قلب العراق ، ولكنها الحرية يعشقها أقوام ، ومن عشق شيئا غامر فى سبيله ، ولكنه طلب السؤدد لامناص من المخـاطرة فيه ، ومن طلب الحسناء لم يغله المهر .

غرابة المغامرة

كانت حركة القـوم من الحميمـة يريـدون الكوفـة مدعـاة للاستغراب ، استغرب القيام بها فريق من مشيخة بنى العباس انفسهم ، وفى مقدمتهم داود بن على عم السفاح ، وفى هذا الباب يقول هذا الشيخ العباسى الكبير للسفاح : « يا أبا العباس تأتى الكوفة وشيخ بنى أمية مروان بن محمد بحران مطل على العراق فى أهل الشام والجزيرة ، وشيخ العرب ابن هبيرة بالعراق » [3] .

---

(١) راجع عن هذه الرحلة كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى (٨٥) ، وتجد أخبار الرحلة المذكورة من الحميمة الى الكوفة وأسبابها وأسماء من رحل فيها تاريخ الطبرى (٩/١٢٤ ـ ١٢٥) ومروج الذهب (٢/١٥٠) وفى هذا المرجع تفصيل لا يوجد فى غيره ، وراجع (٥/١٩٥) وانظر مادة « الشراة » فى معجم البلدان .

(٢) أنظر عن أخبار يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى وحصاره بواسط كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى (٩/٥٨) والكامل (٥/١٩١ ، ٢٠٩) ووفيات الأعيان (١/١٨٥) ط باريس، و (٢/١٦٤) ط مصر ، وقف على تسليم ابن هبيرة وقدومه على المنصور بأمان منه ومقتله بعد ذلك فى كتاب الامامة والسياسة (٢/١٣٨ ـ ١٤٢) وانظر عن نسب ابن هبيرة وعن تاريخ المدينة العراقية التى تسمى قصر ابن هبيره معجم البلدان (٤/١٢٣ـ١٢٤) .

(٣) قف على كلمة داود بن على هذه لابن أخيه السفاح فى تاريخ الطبرى (٩/١٢٧ ـ ١٢٨) ، وفى المروج (٢/١٥٠) ، وفى الكامل (٥/١٩٨) ، ولاحظ الاختلاف فى رواية النصوص وهو اختلاف يسير ، وفى النص المروى فى المروج اغلاط ، ويعد داود بن على هذا من رجالات بنى العباس الأول رحل فى أواخر عصر بنى أمية الى دمشق غير مرة وولى الولايات الجليلة للسفاح ومات فى السنة الأولى من دولة بنى العباس ، ويعد من أبلغ =

اوقفناك ـ فيما مر ـ على رأى داود بن على عم السفاح فى رحلة ابن أخيه ، ولننظر الآن الى رأى الزعيم الكوفى المسؤول عن القيام بالدعوة الهاشمية فى المشرق ، وهذا الزعيم هو أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال أول وزير للسفاح فى الكوفة ويقال له « وزير آل محمد »[1] فانه لم يكتم خوفه ولا وجله على هؤلاء النفر المغامرين ، وقد جاهر بأن رحلتهم مبتسرة أو سابقة لأوانها ، وعبثا حاول أبو سلمة ابقاءهم فى البادية ولكن من يضمن لهم الأمن فيها ، ومن يمنع جيوش الأمويين منهم اذا قصدتهم فى الصحراء ! وأخيرا لم يسعه الا الاذن لهم فى الدخول الى الكوفة على كره منه فان جيش العدو منهم غير بعيد ، وهذا الجيش مرابط بهيت ، وكتم أبو سلمة أمر القوم شهرين فى الكوفة محتجا بالخوف ، ولا خوف يعتد به فى تلك الأيام [2] .

نقل البيعة الى العلويين

لم يكن ذلك رأيا من أبى سلمة وانما كان يتعلل بعلل مختلفة وينتحل أعذارا شتى قائلا للعباسيين ان امركم لم يتم بعد وان بنى أمية قادرون على الحرب ، الى معاذير أخرى لاغنى له عن كسب الوقت فيها[3] ، وكان أبو سلمة فى هذه الفترة العصيبة يسبر غور العباسيين ويوازن بينهم وبين العلويين اذ كانت فى عنقه بيعة لابراهيم بن محمد الامام ولكنه فى حل منها الآن لأن ابراهيم بن محمد قد مات ، فهو يريد أن يخلص الى رأى قاطع بعقد البيعة من بعد ابراهيم كما خلص قبل ذلك الى رأى قاطع بشأن الدعوة فجعلها

= خطبائهم ، وهو الذى انقذ موقف ابن أخيه المذكور لما ارتج عليه على منبر الكوفة فوثب الى المنبر وارتجل خطبة بليغة تجد نصها فى تأريخ الطبرى (٩/١٢٦ ـ ١٢٧) ، وتجد بعض أخباره فى تأريخ بغداد للخطيب (١/٧٧) وفى معجم البلدان (١/٦٨٤) ط لا يبسك ، وراجع عن قصته فى خطابه المرتجل بالكوفة مروج الذهب (٢/١٥١) ، وفوات الوفيات للكتبى (١/١٩٦) والنجوم الزاهرة (١/٣٢١) ، وتجد نبذة من أخباره فى الصفحات الآتية من كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى (٨٥ ـ ٨٦ ، ٩٠ ، ٩٥) .

(١) قال ابن الطقطقى فى الآداب السلطانية ما نصة : « لقب أبو سلمة : وزير آل محمد ، وفى النفس أشياء » ويريد ابن الطقطقى أن يقول : ان هذا اللقب لا ينطبق على الحقيقة ، ولابن الطقطقى نزعته المعروفة ، وهى نزعة علوية بحتة .

(٢) انظر كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى (٨٤ ـ ٨٨) .

(٣) قف على بعض هذه العلل فى كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة (٢/١٢٨) .

للهاشميين عامة لا للعباسيين خاصة ، والظاهر ان أبا سلمة خلص الى ذلك الرأى فهو يريد نقل البيعة الى العلويين وهو يبعث الى ساداتهم المقيمين فى المدينة بكتبه يعرض عليهم ذلك ، ولكن هذا الانحراف جاء متأخرا عن وقته فان البيعة عقدت للسفاح فى الكوفة باشراف أهل بيته وذويه وأنصاره ، وفى مقدمتهم عمه داود بن على ، وكان أبو سلمة آخر من بايع نزولا على حكم الأمر الواقع واعتذر من أبى العباس (١) .

لم تخف محاولات أبى سلمة على أبى العباس وأخيه أبى جعفر فقتل فى الكوفة ، ولم يقتل الا بعد استشارة أبى مسلم الخراسانى ، فأبو مسلم شريك فى مقتل أبى سلمة وزير السفاح بلا شك ، وقد شارك بمقتله وكان رأيه من رأى داود بن على ـ وهو من أهل الرأى والمشورة ـ (٢) ويروى ابن قتيبة ان السفاح أمر بصلب أبى سلمة بعد ذلك (٣) وهكذا قتل أول وزير لأول خليفة من العباسيين .

نجاح المغامرة

وعلى كل حال فان مغامرة العباسيين فى الوصول الى الكوفة عبر بادية الشام تمت بنجاح ووصلت القافلة المخاطرة اليها بين مظاهر الحماس البالغ الذى غلب على شباب بنى العباس وأنصار دعوتهم ، فكان عيسى بن موسى اذا ذكر خروجهم من الحميمة يريدون الكوفة قال : « ان نفرا اربعة عشر رجلا خرجوا من ديارهم يطلبون ما طلبنا لعظيمة همتهم كبيرة نفوسهم شديدة قلوبهم » (٤) .

المباشرة بالعمل

وعنى أبو العباس أول ما عنى به فور أخذ البيعة له وانفراده بالسلطة فى الكوفة بعد

---

(١) قف على أخبار أبى سلمة ومحاولاته فى صرف البيعة الى العلويين وتأخره عن بيعة السفاح ومقتله بسبب ذلك فى كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة (٢/١٢٩) وفى مروج الذهب (٢/٥٠) وفى كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى (٩) والكامل (٥/١٩٥) ، وتجد له ترجمة مفصلة فى كتاب الآداب السلطانية لابن الطقطقى (١١١ ـ ١١٣) .

(٢) انظر عن مشاركة أبى مسلم الخراسانى فى مقتل أبى سلمة برأى داود بن على كتاب الامامة والسياسة (٢/١٣١) والكامل (٥/٢٠٨) .

(٣) كتاب الامامة والسياسة (١٣٢) ، ويراجع عن قتل عمال أبى سلمة بفارس الكامل (٥/٢١١ ـ ٢١٢) .

(٤) قف على كلمة عيسى بن موسى هذه فى تأريخ الطبرى (٩/١٢٨) وفى الكامل (٥/١٢٨) ، والكلمة فى رواية السيوطى منسوبة الى عيسى بن على عم السفاح ، والأول أرجح ، انظر تاريخ الخلفاء للسيوطى (١٠٠) .

نقل أبي سلمة بتنظيم معسكره وتوزيع رفاقه على ميادين الحرب والثورة ، وكانت واسط محاصرة يدافع عنها يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراقين من قبل مروان بن محمد ، ويشدد الحصار عليها الحسن بن قحطبه من اشهر قواد السفاح ، فانضم الامير عيسى بن موسى الى هذا القائد بأمر السفاح ، وشارك في حصار واسط ، وهو أول عمل يقوم به عيسى بن موسى بعد أعلان الثورة على الامويين في العراق ، ومما هو جدير بالذكر ان ابن هبيره سلم واسطا لابن قحطبه بعد قتال دام سنة تقريبا ، وسلم معه قواد جيشه ، وقدم على المنصور بامان منه ثم قتل هو وقواد جيشه بعد ذلك ، وهو عمل يلام عليه السفاح وقد عده محمد بن عبدالله المعروف بالنفس الزكية وصمة فى تأريخ الدولة العباسية (١)

وولى عيسى بن موسى الكوفة بعد الفراغ من أمر واسط فحل محل داود بن على الذى نقل الى ولاية المدينة في السنة الاولى من خلافة السفاح .

عيسى سند المنصور

كان عيسى وهو فى عنفوان شبابه مستودع أسرار أبى العباس السفاح . وقد ائتمنه على وثيقة سجل فيها عقد الولاية لمن بعده ، وبموجب هذه الوثيقة أخذت البيعة للمنصور ، أخذها له فى الحجاز حاجبه الربيع بن يونس ، وأخذها ـ وكان حاجا ـ فى العراق عيسى بن أخيه هذا ، وكتب بذلك الى الأمصار وقام بأمر الناس(٢) ، ثم شرع فى ضبط الدواوين وحفظ الخزائن والأموال حتى تسلمها المنصور ، ولنا أن نقول : ان أبا جعفر المنصور مدين ـ الى حد ما ـ ببيعته واستقراره فى دست الخلافة خلال هذه الفترة لابن أخيه عيسى بن موسى ، وكان أميرا على الكوفة من عهد السفاح الى أيام المنصور ولا تقل مدة امارته عليها عن ثلاث عشرة سنة، ثم صار واليا على المدينة، وتتضارب الروايات بشأن موقف عيسى بن موسى هذا بعد موت أبى العباس السفاح فى الأنبار وقبل مجيء ولى عهده المنصور من مكة ، ومرد هذا الاضطراب فى الروايات الى سقم الأصول وكثرة الأغلاط فيها(٣) .

---

(١) تجد تفصيل محاصرة ابن هبيرة فى واسط وما جرى عليه بعد ذلك فى الكامل (٥/٢٠٩ ـ ٢١١) .

(٢) قف على كيفية أخذ البيعة للمنصور على يد عيسى بن موسى فى تأريخ الطبرى (٩/١٥٤ـ١٥٥) ، وفى الكامل (٥/٢١٩ـ٢٢٠) .

(٣) انظر رواية ابن قتيبة فى كتاب الامامة والسياسة (٢/١٤٤ـ١٤٥) ورواية أبى حنيفة الدينورى فى كتاب الأخبار الطوال (٣٥٨) .

مات السفاح وبويع أخوه المنصور وعيسى بن موسى ابن اخيهما على ولاية الكوفة ، وقد كثرت الفتوق والاحداث فى السنوات العشر الاولى من خلافة المنصور ، ومن اشهرها خروج محمد بن عبدالله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية فى الحجاز ، ثم خروج أخيه ابراهيم فى العراق ، وقد عظمت شوكة ابراهيم هذا ، وانضم اليه وهو يطلب بثار أخيه جل أهل العراق ، وارجف المرجفون بمصير الدولة العباسية الناشئة فى العراق ، وضويق المنصور – وهو فى معسكره بالكوفة – مضايقة شديدة ، وكان هذا المعسكر محاطا بما لا يقل عن مائة الف من انصار العلويين يتربصون الدائرة بالمنصور حتى تحدث المتحدثون بخروجة من العراق الى بلاد فارس ، وقد حفظت لنا كتب التأريخ مراسلات دارت بينه – أى بين ابى جعفر المنصور – وبين العلوى الثائر فى الحجاز ، وتعد من عيون الرسائل ، ومن محاسن الكتب فى معناها وهو لايخرج عن الادب والتأريخ والانساب [1] والواقع ان ثورة محمد بن عبدالله من اخطر الثورات التى واجهها المنصور ، وقد اضطرب لها جدا ، ولم يبق احد من أهل الرأى الا استشاره فى كيفية التغلب على الثائرين[2] .

فى هذه الفتوق وما اليها ندب المنصور ابن اخيه هذا الى قتال العلويين الثائرين فى الحجاز وفى العراق بعد ذلك ، وقدر لعيسى ان يتغلب على الاخوين محمد وابراهيم بعد معارك طاحنة تجلى فيها اخلاص هذا الأمير لعمه وللدولة العباسية .

كم الافواه ومناهضة المعارضة

وركن عمال بنى العباس وولاتهم – وفى مقدمتهم عيسى هذا والى الكوفة ، وجعفر ابن سليمان بن على والى المدينة – الى الشدة المتناهيه فى مناهضة المعارضين لاساليبهم فى قمع تلك الثورات فحاول الأول ان يفتك بابى حنيفة فى الكوفة لمجاهرته بآرائه فى الخلاف ثم اشخصه منها الى بغداد ، وفعل الثانى ما فعل بفريق من فقهاء المدينة ، وفى مقدمتهم مالك ابن أنس . بيد ان اخلاص هذين الأميرين كان وخيم العاقبة عليهما فعزلا واوذيا ايذاء شديدا بعد ذلك ، حرم جعفر بن سليمان من مال طائل جاءه عن طريق الأرث[3]

---

(١) قف على هذه الرسائل فى تأريخ الطبرى (٩/٢١٠ – ٢١٣) .

(٢) انظر كيف اشتور المنصور فى التغلب على محمد بن عبدالله تأريخ الطبرى (٩/٢١٦–٢١٧) ومروج الذهب (٢/١٦٩–١٧٠) .

(٣) قف على حزم الرشيد ويقظته فى هذه المصادرة فى الكامل (٦/٤٨) والنجوم الزاهرة (٢/٧٣–٧٤) وانظر أيضا تأريخ الطبرى (١٠/٥٦–٥٢) .

وخلع الثاني من ولاية العهد ، قال السيوطي وهو يذكر المنصور " كان عيسى هو الذى حارب الاخوين فظفر بهما فكافأه بأن خلعه مكرها وعهد الى ولده المهدى »[١] .

اثارت سياسة المنصور فى شدتها وصرامتها ، وأثار اسراف قادته وعماله فى سفك الدماء سخط جمهرة من اعلام عصره ما فى ذلك من شك حتى تعرض من تعرض منهم الى صنوف من الأذى والمحن ، ويقول لنا السيوطى فى هذا الصدد « آذى المنصور خلقا من العلماء ممن خرج معهما ـ أى محمد وابراهيم ـ أو أمر بالخروج قتلا وضربا وغير ذلك ، منهم أبو حنيفة وعبدالحميد بن جعفر وابن عجلان »[٢] .

أجمعت كلمة المؤرخين على أن عهد المنصور كان عهـد محنـة لهؤلاء العلويين ولأنصارهم من أهل الفقه والعلم على اختلاف مذاهبهم ـ كما رأيت فى قول السيوطى ـ ، ولكن هؤلاء المؤرخين وبعض المحدثين والمؤلفين اختلفوا فى ماهية الأسباب ، منهم من يجعلها أسبابا سياسية ومنهم من يردها الي غير ذلك .

معركة بين النظار

ودارت معركة حامية الوطيس بين النظار فى هذا الشأن تضاربت فيها وجهات النظر فمنهم من ينفى عنهم الخوض فى السياسة وينفى الروايات والأخبار المشعرة بصدور فتوى صريحة أفتاها هؤلاء الفقهاء بجواز الخروج على المنصور مع من خرج عليه من العلويين والسادات أو فى جواز التحلل من بيعته . لما فى الخروج على السلطان من المفاسد ـ وان كان السلطان جائرا ـ فهو الذى يحمى الثغور ويحفظ السبل ويقيم الشعائر ، والخروج عليه ينافى أصولا معروفة فى العقائد على ما يدعون ، فهؤلاء يقولون : ان مالكا ما كان يخوض فى السياسة ولا كان يحرض على السلطان ، وأنه لزم بيته فى النزاع بين المنصور والعلويين ، أى انه كان على الحياد ، ولم يقصد بفتواه فى يمين المكره وفى طلاق المكره الدعوة الى التحلل من بيعة المنصور ، وان حملت هذه الدعوى على ذلك واحتج بها عامل المدينة على ضربه فى محنته المعروفة ، أما أبو حنيفة فانه ـ على أصح الأقوال ـ أشد واعنف من صاحبه لم يتردد فى الجهر بالخلاف ، كما ستقف عليه مفصلا بعد قليل .

العامل السياسى فى النزاع

لا يجوز فيما نرى اغفال العامل السياسى قط فيما نحن فيه ، ولا يصح تجاهل

(١) تأريخ الخلفاء للسيوطى ١٠٢ .

(٢) تأريخ الخلفاء للسيوطى (١٠٢) .

روح العصر الذى عاش فيه اولئك الفقهاء الاعيان من حجازيين وعراقيين ، وهذا العصر العصيب عبارة عن الفترة الواقعة بين أواخر الدولة الاموية واوائل العباسية ، وفيها ساءت الاحوال السياسية وتتابعت الفتن واستشرى الشقاق ، وهى بعد ذلك فترة يتناقل المحدثون من ابنائها عن آبائهم أويروون عن اجدادهم وقائع الطف، والحرة واستباحة الحرمين، وفتنة ابن الزبير والثورات القبلية بين عرب الشمال وعرب الجنوب وغير ذلك من الوقائع التى استبيحت فيها كثير من المحارم ، وانتهكت الحرمات ، وفى هذه العصور انقلبت الخلافة الراشدة الى ملك عضوض ، تقطعت بسببه الارحام وسفك الدم الحرام ، فلا غرو اذا راينا كثيرا من فقهاء هذا العصر وأئمته ناقمين على الدولة ، ساخطين على الساسة والحكام ، نافرين من تقلد الأعمال العامة فى تلك الايام •

جعفر بن محمد ، وأبو جعفر :

تروى أخبار الامام الصادق جعفر بن محمد(١) مع أبى جعفر المنصور بكثرة فى كتب الحديث وفى الكتب المعنية بسيرة أهل البيت ، ويلاحظ أن كتب التأريخ المشهورة كتأريخ الطبرى ومروج الذهب والكامل وتواريخ الخلفاء العباسيين خلت من الاشارة الى اخباره فى هذه المحنة الا نادرا مع أنه أنبه السلالة العلوية ذكرا فى عصره بالمدينة ، عاصر المنصور فى السنوات العشر الأولى من ملكه ، وقد أجمعت كلمة المؤرخين والمحدثين على رواية مالك وأبى حنيفة وتحملهما عنه ، عاش أبو حنيفة من بعده مدة وعاش مالك أكثر من عشرين سنة ، وكلاهما تحمل عنه فى المدينة فأما أبو حنيفة فانه كان نزيل المدينة هاجر اليها من العراق مضطهدا من قبل ابن هبيرة عامل بنى أمية على الكوفة ، وأما مالك فانه ــ كما لايخفى ــ من أهل المدينة •

---

(١) قف على اخباره مع المنصور فى الكتب الآتية : أمالى الشيخ الطوسى ، الغرر للوطواط (٢٦٢) ، تذكرة ابن حمدون ، معالم العترة للجنابذى ، مطالب السول لمحمد بن طلحة ، مناقب ابن شهراشوب ، مهج الدعوات لرضى الدين بن طاووس ، عمدة الطالب لابن عنبة ، الارشاد للشيخ المفيد (٢٥٠ ــ ٢٥١) ط طهران ، أصول الكافى للكلينى (٣٥٨ــ٣٦٠) ط تبريز ، أعلام الورى للطبرسى (١٦٢) ، صفوة الصفوة لابن الجوزى ط حيدر آباد (٢/٩٦ــ٩٧) كشف الغمة لعلى بن عيسى الاربلى (٢٢٣ــ٢٢٨) ، تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزى (٣٥٣ــ٣٥٤) ، الفصول المهمة لابن الصباغ (٢٠٦ــ٢٠٩) ، عين الأدب والسياسة لابن هذيل (١٨٢) ، بحار الأنوار للمجلسي (١١) •

لم يقل لنا أحد من المؤرخين ان جعفر بن محمد حبس أو أوذى فى المحنة ـ كما ضرب أو حبس غيره بأمر من المنصور أو من عامله على المدينة ـ ، وليس معنى هذا السكوت من المؤرخين فى الغالب أن الامام سلم من المحنة مطلقا ، والحق أن موقفه كان غاية فى الدقة بين العلويين الذين يطالبون بحقهم ويحاولون درأ المظالم عنهم وبين العباسيين الذين انقادت لهم الأمور فى العراق وخراسان ، أى ان محنته كانت من نوع آخر فانه عاش عيشة مشوبة بالكدر منغصة بالوعيد والتهديد محاطة بالعيون والجواسيس(١) فى عصر أبى العباس السفاح وعصر أخيه أبى جعفر المنصور ، وقد عانى من بعض الولاة والأمراء العباسيين فى عصر السفاح ما عانى من الأذى والكيد . لان الوشايات اليه كانت أسرع من السيل الى المنحدر . وستطلع على أسباب ذلك .

أمير المدينة فى دولة السفاح :

بالغ الأمير داود بن على عم السفاح وواليه على المدينة فى اضطهاد الطالبيين المقيمين فيها ، ومرد هذا الاضطهاد الى شعوره بأن هناك وثبة لابد من قيام الطالبيين بها على الدولة العباسية(٢) ، فكان يلاحق أتباع العلويين وأنصارهم ويضايقهم ، وفى أيامه وبأمر منه قتل « المعلى بن خنيس » من أتباع جعفر بن محمد وصودرت أمواله ، وفى سبب قتله أقوال منها : أن المعلى المذكور امتنع من رفع قائمة باسماء شركائه فى رأيه فقتله « السيرافى » صاحب شرطة الأمير والى المدينة فى قصة تدل على تفانى المعلى فى طاعة الامام المذكور وفى اخلاصه له(٣) ورد بعضهم قتله لقيامه بالدعوة لمحمد بن عبدالله

(١) انظر حديثا فى هذا الباب نقله ابن قاسم العاملى فى كتاب « الاثنا عشرية فى المواعظ العديدة » .

(٢) قف على سيرة هذا الوالى وارهاقه للطالبيين فى المقاتل لأبى الفرج (٢٢١ ، ٢٤٧) ط القاهرة ، وقد ترجم له الذهبى فى ميزان الاعتدال (١/٢٢١) ونقل بعض الأقوال فى سيرته وأنه ليس حجة فى الرواية ، وراجع أيضا ذيل الصفحة (٥٩ ـ ٦٠) من هذا الكتاب ، والمفهوم ان السفاح ولى عمه المذكور جزيرة العرب برمتها ويدخل فى ذلك الحجاز واليمن ونجد أو اليمامة واتخذ من مكة قاعدة لهذه الامارة ، راجع شفاء الغرام فى اخبار البلد الحرام للفاسى (١٨١) ط لايبسك .

(٣) ترجم له الكشى فى كتاب أخبار الرجال (٢٤١ ـ ٢٤٢) ط بمبى وذكر قصته مع داود بن على وضعفه النجاشى وابن الغضائرى بينما ان الشيخ الطوسى أثنى عليه فى كتاب الغيبة ، وفى الفهرست (١٦٥) ط النجف كلمة مجملة عنه ، وتجد له ترجمة =

النفس الزكية[1] .

كان لهذه الحادثة أسوأ الأثر فى نفس جعفر بن محمد ، وقد رأى فى هذا الاعتداء اعتداء على حقه وحربا معلنة عليه ، يدل على ذلك عنف الاحتجاج الذى احتج به على الأمير والتهديد الذى هدده به ، فقد أجمعت روايات الباحثين فى سيرته أنه مشى الى ديوان الأمير وهو محنق على خلاف عادته وألقى خطابا موجزا قال فيه : « قتلت مولاى وأخذت مالى أما علمت ان الرجل ينام على الثكل ولا ينام على الحرب ! »[2] ، وقد جرى اثر الخطاب أخذ ورد ـ بين الامام والأمير ـ لا يخلوان من العنف ، ولكن الأمير حاول التنصل واحالة التقصير على صاحب شرطته فكانت الحجة واهية ولم يكن للأمير مهرب من القود ، فأمر بقتل « السيرافى » ولما أخذ ليقتل صرخ قائلا « يأمروننى بقتل الناس فأقتلهم لهم ثم يأمرون بقتلى »[3] ، وهى كلمة تدل على ان القاتل كان مأمورا بازهاق روح « المعلى بن خنيس » وانه امتثل أمر الأمير داود بذلك ، فيالها من كلمة تدل على منتهى الشعور بسوء المنقلب وبأنه ـ اعنى السيرافى ـ اطاع المخلوق بمعصية الخالق ويا له من اسراف فى سفك الدماء واستخفاف بحرمة الارواح .

هذا وفى كتب أصحاب السير أقوال مضطربة فى تأريخ هذه الحادثة ، قيل : انها وقعت فى خلافة المنصور ـ وهذا مستحيل ـ ، والصحيح أنها وقعت فى عصر سلفه أبى العباس السفاح ، فقد أجمعت كلمة المؤرخين على ان داود بن على مات فى خلافة ابن أخيه السفاح بعد الحادثة المذكورة بقليل ، ومرد هذه الأوهام فى كتب أصحاب السير والمؤرخين الى سقم الأصول ، وقد تكون من أوهام المؤلفين المتأخرين .

= فى الخلاصة للعلامة الحلى (١١٧) ط طهران ، وقد لخص صاحب الخلاصة أقوال القادحين والمادحين فيه ، وتروى قصته فى كتاب الارشاد للشيخ المفيد (٢٥٣) ، وفى كتاب أعلام الورى للطبرسى (٢٦١ ـ ٢٦٢) ، وفى مهج الدعوات لابن طاووس ، وفى كشف الغمة للاربلى (٢٢٧) ، وفى خاتمة مستدرك الوسائل للمحدث النورى فصل مشبع فى المعلى المذكور مال النورى فى آخره الى رأى القائلين بعدالته ، راجع المستدرك (٣/ ٦٨١ـ٦٨٩) . وممن ترجم له الاسترابادى فى مجمع الاقوال (٣٣٧ـ٣٣٨) ، والعاملى فى الوسائل (٣/٥٥٩) .

(١) هذا هو قول ابن الغضايرى على ما نقله العلامة الحلى فى كتابه « خلاصة الأقوال فى معرفة الرجال » (١٢٧) .

(٢) رويت هذه الكلمة فى جملة من كتب الحديث والسيرة ، ويراجع عنها كشف الغمة للاربلى (٢٢٧) .

(٣) انظر عن السيرافى هذا اصول الكافى (١٢٨) .

المنهج المرسـوم :

عانى جعفر بن محمد كثيرا فى سبيل ازالة المخاوف والأوهام التى ساورت السلطان بشأن خطته أو منهجه المرسـوم ، فهو زعيم بيت ناهض دولا وناهضته دول وأقلق حكاما وشردهم حكام وفنى من فنى من رجاله وشبابه فى ميادين القراع ، فاذا قيل : ان جعفر بن محمد موتور وجد من يقبل ذلك ، واذا قيـل : انه يهم بالانتقام والخلاف لم يستكثر ذلك عليه فكان هدفا للسـعاة والوشـاة غير انه ـ والحق يقال ـ ما كان فى هذا الدور من أدوار حياته معنيا بطلب الثأر ولا منطويا على الانتقام ولم يكن له منهج مرسوم غير أحياء السنن ونشر المعارف والآثار .

لذلك عنى بحسم مادة تلك المخاوف والأوهام التى ساورت أمراء بنى العباس وخامرتهم بشأنه ، فقاطع فريقا من خصومهم المنابذين لهم سواء أكانوا خصوما فى السيـاســة أم فى غـيرها ، قاطع طبقـة معـروفة من الأعـلام فى الحـديث والرواية لأنها طبقة غير مرغوب فيها من قبل السلطان ، ويلاحظ أن الجفاء كان شايعا جدا بين امراء الدولة العباسية وهذه الطبقة من النساك بل كان يتبرم باتصال من يتصل به منهم وينهاهم عن غشيان مجلسه لعلمه بأن ذلك يزعج الحـكام ويثير هواجسهم وهو يريـد اتقاء شرهم على كل حال ، تدلنا على ذلك قصته المعروفة مع سفيان الثورى ـ ولا تخفى منزلة سفيان فى الحديث والرواية ـ فانه دخل على جعفر بن محمد فقال له : « أنت رجل يطلبك السلطان وانا رجل أتقى السلطان قم فاخرج غير مطرود »[1].

---

(١) حكاه ابن الجوزى فى صفوة الصفوة (٢/٩٥) ، والحديث منقول فى كشف الغمة ، وللثورى ترجمة مبسوطة فى تأريخ بغداد للخطيب (٩/١٥١ ـ ١٧٤)، وفى صفوة الصفوة لابن الجوزى (٣/٨٢ـ٨٧) ، وفى وفيات الاعيان (١/٢١٠) ، وخلاصة ماقاله أصحاب السير أن ابا عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى الكوفى من اعلام أهل الكوفة فى الحديث دخل بغداد عدة مرات وبلغ المنصور والمهدى عن الثورى اشياء من قبيل الانحراف عن الدولة العباسية والطعن فى أمرائها حتى امتنع عن ولاية القضاء فجد السلطان فى طلبه وجد هو فى الأختفاء وقيل : ان المنصور أمر بصلبه ، وله قصة مع عبدالصمد بن على عم المنصور ، وخلاصة القول كان مطلوبا للسلطان فى خلافة المنصور وابنه المهدى الى ان مات متواريا فى البصرة سنة ١٦١ .

تحكى عن الثورى أقوال فى الحث على الوحدة والعزلة من ذلك قوله « هذا اوان السكوت ، وملازمة البيوت » وقد نسج على منوال غير واحد من نساك عصره فى الانكار على الأمراء والخلفاء ومواجهتهم بالغليظ من الكلام ويعدون ذلك اصلا من اصول الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وقد عقد الغزالى فى كتابه احياء العلوم بابا نقل فيه كلام القوم فى هذا الشأن وهو منقول فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد .

اتصـــال الوشــايات :

هذا ولم تنقطع السعايات والوشايات بجعفر بن محمد ، وأكثرها يدور على اتصاله بأنصاره واوليائه فى الحجاز وفى العراق وخراسان وانهم كانوا يحملون زكاة اموالهم اليه ، وقد وضعت على لسانه كتب الى هؤلاء الانصار يدعون فيها الى خلع الخلفاء العباسيين ، بيد أن المنصور لم يعبأ بكثير من هذه السعايات ، وهكذا سلم أبو عبدالله من القتل ونجا من الحبس ولم يرتكب منه ما ارتكب من بعض أعلام المدينة والعراق فى عصر المنصور •

ويميل بعضهم الى تعليـــل هـــذه البادرة بادرة المحاسنة والرفق من قبل المنصور. وقلة اكتراثه بتلك السعايات بعلل لايخلو بعضها من المبالغة ، وقد يستندون فى ذلك الى روايات لايصبر اكثرها على النقد والتمحيص •

كان الخطر محدقا بجعفر بن محمد ـ ما فى ذلك شك ـ ولكنـه سـلم على كل حال ، وكانت سلامته فى الواقع وسلامة كثير من أهل بيتهوأصحابه اعجوبة فى المحنة المذكورة ، ولم يسلم الا بشق النفس وبتوطينها على كثير من التحرز والتوقى ، يدل على ذلك حديثه المشـهور بل كلمته الحكيمة البليغة : « عزت الســلامة حتى لقـد خفى مطلبها ، فان تكن فى شيء فيوشك ان تكون فى الخمول ، فان طلبت فى الخمـول فلم توجـد فيوشـك ان تكون فى التخلى ـ وليس كالخمـول ـ فان طلبت فى التخلى فلم توجد فيوشك ان تكون فى الصمت ـ وليس كالتخلى ـ فان طلبت فى الصمت فلم توجد فيوشك ان تكون فى كلام السلف الصالح ، والسعيد من وجد فى نفسه خلوة يشتغل بها »(١) ، وقوله : « أقلل من معرفة الناس وانكر من عرفت منهم وان كان لك مائة صديق فاطرح منهم تسعة وتسعين وكن من الواحد على حذر »(٢) ، ومن أقواله فى العزلة : « اذا امكنك الا تعرف فافعل » ، ومرد سلامته ـ فيما نرى ـ الى منهجه السلمي البحت البعيد عن العنف فى معارضة المنصور والى أخذ نفسه بالقصد والحذر الشديد والاحتياط التام ، يدل على ذلك رده للاموال ورفضه للرسائل التى أمر المنصور بكتابتها اليــه والى غيره من العلويين على لسان انصارهم وأوليائهم فى العراق وخراسان لتكون حجة بيد المنصور

(١) قف على رواية سفيان الثورى لهذا الحديث فى كشف الغمة للاربلى (٢٢٣) ، وفى صفوة الصفوة لابى الفرج ابن الجوزى (٢/٩٦ ـ ٩٧) ولاحظ الاختلاف فى رواية النص • وقد عبر بهذه الكلمة عن محنته ومحنة اصحابه فى صدر الدولة العباسية •

(٢) حكاه الوطواط فى الغرر (٢٩٣) •

عليهم ، وهو من هذه الناحية منقطع النظير بين العلويين[١] .

كان المنصور أخبر العباسيين قاطبة بموقف جعفر بن محمد واكثرهم اطلاعا على منهجه السياسي ، وتروى له مع المنصور أخبار غير قليلة ، وفي رواية لابن طاووس ان المنصور استدعاه سبع مرات[٢] ، ولا تخلو بعض هذه الاخبار من التناقض فبينما نرى المنصور في منتهى العنف والشدة مع أبي عبدالله اذ تراه في غاية اللطف والرقة ، بيد انه على كل حال كان يدافع عن سكان دار الهجرة ـ بلده ومسقط رأسه ـ وعن كرامة أبنائها ومصالحهم العامة كلما رأى ما يدعو الى ذلك في ديوان المنصور وفي اندية امراء الدولة ، يظهر ذلك من احتجاجه على الربيع بن يونس حاجب المنصور لما قدم الوافدين من أهل مكة على الوافدين من أهل المدينة زاعما ان مكة هي « العش » فأجابه جعفر بن محمد قائلا : « أجل ولكنه عش طار خياره وبقي شراره »[٣] .

لقي المنصور جعفر بن محمد واتصل به مرارا ، بعضها في عصر بني أمية وبعضها في عصر بني العباس ، وضمتهما محافل عدة عني الهاشميون بعقدها للمداولة في كيفية التخلص من حكم بني أمية ، وفي بعض هذه المحافل كان الامام يجاهر بآرائه في انتقال الدولة وصيرورتها الى بني العباس ويخالف المتطلعين اليها من بني عمه الحسن وينهاهم عنها بمحضر من بني العباس ، ومن الواضح ان لعبدالله ولولديه محمد وابراهيم آراءهم في الامامة وفي الخلافة وما الى ذلك ، وهي تختلف عن المتعالم المعروف من آراء جعفر بن محمد ، ولا تخلو بعض كتب الحديث والسير من الاشارة الى هذا الاختلاف والى أنه بلغ حد المشادة في بعض الاحيان[٤] .

---

(١) يراجع عن ذلك أصول الكافي للكليني (٢٦٠) .

(٢) قف على ذلك في مهج الدعوات لرضي الدين بن طاووس ، وبعض هذه الروايات المحكية في كتب أهل الحديث تحتاج الى تمحيص ، وبعضها على ما يبدو لنا من اخباره مع السفاح لا مع المنصور أو معه ولكن قبل أن يلي الخلافة .

(٣) الكشف للاربلي ص (٢٣٩) .

(٤) انظر عن ذلك كتاب أعلام الورى للطبرسي (١٦٣ـ١٦٦) وراجع مستدرك الوسائل للمحدث النوري (٣/٦٨٦ـ٦٨٧) فقد حكى مؤلفه طرفا من هذا الخلاف وراجع ذيل الصفحة الآتية فقد سمينا فيها أوفى المراجع المعنية بالاشارة الى الخلاف المذكور .

الرياسة بين الهاشميين :

عنى بنو هاشم فى أواخر الدولة المروانية بالمداولة فيما يعانونه من عسف امراء الدولة المذكورة وفى سأم الناس من سياستهم وانحرافهم عنهم فى اجتماعات عدة عقدها الهاشميون سرا فى الحجاز ، وشهدها اعيان القوم علويوهم وعباسيوهم ، شهدها جعفر بن محمد وعبدالله بن الحسن وابناه محمد وابراهيم من العلويين ، وشهدها أبو العباس السفاح وأخوه أبو جعفر المنصور وعماهما صالح وعبدالصمد ابنا على وغيرهم من العباسيين ، وكان نصب الرئيس واختيار الامام من أهم الموضوعات التى دار عليها البحث فى المحافل المذكورة ، واختير للرياسة فيها محمد بن عبدالله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية .

بايع الهاشميون محمد بن عبدالله الا الامام جعفر بن محمد فانه اعترض على هذه البيعة معلنا أنها سابقة لاوانها وأن هذا الامر لايتم لبنى الحسن وأن الدنيا مواتية لبنى العباس دون غيرهم من الهاشميين ، فلا فائدة من منازعتهم فى ذلك ، وكان الامر كما قال[(1)] .

قال أبو الفرج الاصفهانى[(2)] وهو يذكر محمد بن عبدالله بن الحسن ما هذا نصه : « بايعه رجال من بنى هاشم جميعا ثم ظهر من جعفر بن محمد قول فى انه لايملك وان الملك يكون فى بنى العباس فانتبهوا من ذلك لامر لم يكونوا يطمعون فيه » ، وتروى عنه أحاديث غير هذه فى الاعتراض على البيئة المذكورة[(3)] .

---

(١) تروى أخبار هذه الاجتماعات فى كتب السير والاخبار والحديث ، ويراجع عنها تأريخ الطبرى (٩/١٨٠) ومقاتل الطالبيين لأبى الفرج (٢٠٦ ـ ٢٠٨ ، ٢٥٣ ـ ٣٥٧) والارشاد للشيخ المفيد (٢٥٣ ـ ٢٥٤) ونقلها عنه على بن عيسى الاربلى فى كشف الغمة (٢٢٨) وأعلام الورى للطبرسى (١٦٢ ـ ١٦٣) ، وممن أشار اليها ابن الأثير فى الكامل (٥/٢٤٣) ورواها ابن الطقطقى فى الآداب السلطانية (١١٩ ـ ١٢٠) ط الجمالية ، وكانت هذه الاجتماعات تعقد للمداولة فى عقد البيعة لرجل منهم ، وقد أجمعت كلمتهم على امتناع جعفر بن محمد عن البيعة ونهيه عن عقدها ، وقد أشاروا الى أسباب ذلك والى الحوار الذى دار بينه وبين عبدالله بن الحسن فى هذا الشأن ، ولاحظ الاختلاف فى نصوص الروايات .

(٢) مقاتل الطالبيين (٢٣٣) ط القاهرة .

(٣) قف على بعضها فى كشف الغمة للاربلى (٢٢٧ ـ ٢٢٨) وانظر كتاب الاحتجاج للطبرسى .

نهى جعفر بن محمد قومه غن عقد هذه البيعة، فهو يعلم ان هؤلاء العلويين متفرقون، وأكثرهم فى الحجاز ، والحجاز يومئذ من توابع العراق ، وليس فى العراق ـ حيث استخلصه العباسيون المغامرون ، وحيث بويع أبو العباس السفاح ـ عدد يعتد به من العلويين المذكوريين ، ثم ان هؤلاء العلويين من بنى الحسن لم يشاركوا فى حرب مروان بن محمد وفى الظفر به ولم يساهموا فى انتزاع الجزيرة والشام وفلسطين ولا فى انتزاع مصر والمغرب من الامويين ، هذا فى الغرب ، ويقال مثل هذا عن الشرق ، أى أن الدولة العباسية هى الدولة القائمة الغالبة فى الشرق والغرب وان قامت باسم بنى هاشم وباسم آل محمد ، ثم ان العلويين فى المدينة منشقون منقسمون على انفسهم ، ففيهم من يضلع مع العباسيين حتى لقد ذهب بعض هؤلاء العلويين الى تأييد المنصور ومعاونته الى أبعد حدود المعاونة فى النكاية باخوانه والانضمام الى صفوف بنى العباس مثل الحسن بن زيد بن الحسن ، وقد ولى المدينة للمنصور(١) ، ويقال : انه كان شديدا على العلويين وعلى جعفر بن محمد خاصة(٢) ، ويحكى انه قال للمنصور : « مآمن وثوب محمد بن عبدالله عليك » ، ومما لاشك فيه ان للمنصور فحل بنى العباس يدا فى هذا الانشقاق ، ومن ذلك نعلم ان توازن القوى فى هذا الكفاح المرير بين بنى الحسن وبنى العباس مفقودا بالمرة .

الى هذه الناحية من نواحي الضعف الظاهر في بني الحسن كان يشير الامام جعفر بن محمد فى بعض نصايحه لبعض أبناء عمه والى ذلك ـ فيما نرى ـ مرد مناهضته لرأى من يرى الخروج منهم بالسيف على دولة بنى العباس ، والى ذلك أيضا مرد معارضته لبيعة محمد بن عبدالله النفس الزكية .

ليست هذه أول مرة ينصح فيها الامام أبناء عمه الحسن ويشفق عليهم من التطلع الى الملك ويريدهم على العدول عن تلك الامانى ، فانه لم يأل العلويين نصحا فى التجافى

---

(١) قف على ذلك فى مقاتل الطالبيين (٢١٠) ط القاهرة ، وراجع عن الحسن بن زيد هذا تأريخ بغداد للخطيب (٣٠٩/٧) ، وطبقات ابن سعد (٢٣٤) وميزان الاعتدال للذهبى (١ : ٢٢٨) قال الذهبى ولى المدينة للمنصور خمس سنين ، وراجع عن اختلاف كلمة بعض الطالبيين والعلويين حتى قتل من قتل منهم بسبب ذلك الكامل (٢٥١/٥) .

(٢) راجع عن ذلك كتاب أصول الكافى للشيخ أبى جعفر الكلينى (٢٥٨) ط تبريز

عن شؤون الدولة في عصره والأعراض عن سفك الدماء في سبيلها، ففي طلب العلم والاحكام وفي تحصيل الأثر وبثهما في الدنيا ما يشغلهم عن ذلك ، ثم ان دنيا بني العباس ودولتهم مقبلتان فأي جدوى في مقارعة العباسيين .

صحيفة الدولة :

كان جعفر بن محمد بحدسه الصائب ونظره الثاقب يخترق الحجب ويستشف أحداث المستقبل ويخبر بكثير من الكوائن قبل وقوعها ويستدل بحاضرها على الغائب الذي لم يحدث منها ، أخبر بصيرورة الخلافة الى بني العباس دون غيرهم من الهاشميين وأخبر بمصرع غير واحد من هؤلاء الهاشميين ، أخبر بمقتل محمد وابراهيم ولدي عبدالله على يد المنصور وأخبر بمصرع غيرهما من العلويين ولذلك كان أسد الهاشميين رأيا بمعارضته لبيعة النفس الزكية ، والواقع أن أئمة أهل البيت كثر تحدثهم قبل عصر الصادق عن الدولة الهاشمية وتعددت اشاراتهم الى ملك بني العباس وانهم سيطأون اعناق الرجال ويملكون الشرق والغرب ويجمعون من الاموال ما لم يجتمع لاحد من قبلهم وان مدة ملكهم ستطول وتكون أضعاف مدة الدولة الاموية أخبروا بهذه الحوادث كلها قبل وقوعها ، ومما يؤثر عن جعفر بن محمد في هذا الباب قوله : علمنا غابر ومزبور نقش في القلوب ونقر في الاسماع عندنا الجفر الاحمر والابيض ومصحف فاطمة والجامعة فيها جميع ما يحتاج اليه الناس(١) .

لاشك ان أئمة أهل البيت توارثوا خلفا عن سلف بعض الأسفار والوثائق الخاصة والكتب التي تشتمل على كثير من الملاحم واحداث الدول والانقلابات العامة وعلم المنايا والبلايا والاخبار بتلك الكوائن والاحداث قبل وقوعها ، وفي هذه الصحف علم كثير وهي خاصة بالائمة منهم ويقال : ان محمد ابن الحنفية يعلم طرفا منها ، وقد سميت بعض هذه الكتب بالجفر والجامعة وسميت : (صحيفة الدولة) ، ومن الملاحم التي أشاروا اليها في هذه الكتب اجتياح العالم الاسلامي اشارة الى ظهور التتار كما اشاروا قبل ذلك الى انتقال الدولة من بني أمية الى بني العباس دون غيرهم من الهاشميين ، والى ذلك استند أبو عبدالله جعفر بن محمد فيما استند اليه عند امتناعه من بيعة بني الحسن وفي تحذيرهم من الخروج على العباسيين ، وقد خوطب عبدالله بن عباس كما ورد في بعض الأخبار :

---

(١) هذا الحديث مروي في كشف الغمة للاربلي ص (٢٢٧) ، وفيه شرح لبعض هذه الكلمات .

« أبا الأملاك » خاطبه بذلك الامام على فى قصة معروفة[1] .

لا يخامرنا أدنى شك بما كان لهذا المنهج الذى يدعو اليه جعفر بن محمد وبما كان لسياسته السلمية البحته من أثر بالغ فى نفس أبى جعفر المنصور ، فأعرض عن كثير من السعايات وضرب صفحا عن الكتب المزورة عنه الى انصاره فى العراق وخراسان ، وأية قيمة للدس والتزوير المفضوح بعد ما رآه وسمعه المنصور بنفسه مما أقنعه بأن هذا الامام برىء الساحة مأمون الناحية بعيد عن التهم المنسوبة اليه[2] . فلا عجب اذا كان لوفاته سنة ١٤٨ وقع أليم فى نفس أبى جعفر المنصور على مارواه فريق من المؤرخين وقد أبنه بكلمات تدل على مبلغ اكباره له[3] .

لم يجنح بنو الحسن الى رأى جعفر بن محمد ، وكان لفريق منهم فى وعظه ونصائحه مذهب آخر فهم يحملونه على الحسد ، وهم يغلظون له القول ويسمعونه خشن الكلام ، وهم بعد ذلك لايشكون بان انتزاع الامر من يد العباسيين سهل يسير وان الامة تشد ازرهم فى ذلك ، فهذه الرسل والرسائل تترى عليهم من الاقطار ، ولا شك ان رسائل كثيرة وافتهم من مختلف الاقطار بيد أن شطرا من تلك الرسائل مصطنع بأمر أبى جعفر المنصور اذا استثنينا رسائل بعض الزعماء فى الكوفة وفى مقدمتها رسالة أبى سلمة الخلال نقيب الدعوة فى المشرق والعراق .

دعوة الكوفة وحركتها الجديدة :

جد لابى سلمة الخلال زعيم الكوفة ونقيب الدعوة الهاشمية بعد استقرار العباسيين القادمين من الشراة الى العراق رأى خطير فى البيعة فاجأبه علويى الحجاز ، ووافت الحجاز رسل الزعيم المذكور ورسائله على عجل[4] لجس نبض العلويين واحدا بعد آخر

(١) قف على ذلك مفصلا فى شرح نهج البلاغة لابن ابى الحديد (/١٠ ٢١٠ ـ ٢١٢) وراجع ما نقل عن محمد بن الحنفية عن الصحيفة التى نقلها عن أبيه وان فيها اشارة الى انتقال الامر لبنى العباس شرح النهج المذكور (٢/٢١٢) .

(٢) أنظر عن دخوله على المنصور ودفاعه عن نفسه بعض المصادر المتقدمة فى ذيل الصفحة (٦٥) من هذا الكتاب .

(٣) تاريخ اليعقوبى (٣/١١٧) .

(٤) قف على كيفية اتصال أبى سلمة بعلويى الحجاز ومفاتحتهم بالبيعة وعلى خطته المرسومة فى هذا الشأن فى الآداب السلطانية للفخرى (١١١ ـ ١١٢) ، ومن اوفى المراجع عن اتصال أبى سلمة بجعفر بن محمد وعبدالله بن الحسن ومراسلتهم بصرف الدعوة عن العباسيين اليهم وما الى ذلك مروج الذهب للمسعودى (٦/٩٣ ـ ٩٦) ط باريس ، وتاريخ اليعقوبى (٣/٨٦ ـ ٨٧) ط النجف .

وقد رسم الخلال لذلك ـ أى لتحويل البيعة الى العلويين من العباسيين ـ خطة دقيقة لايرسمها الا الدهاة من اصحاب الدعوة بيد أن آراء أهل المدينة تضاربت فى قبول الدعوة وهو أمر لامناص منه بعد هذه المفاجأة الجديدة .

كانت دعوة أبى سلمة هذه محكا للعلويين المقيمين فى المدينة فقد انقسموا الى فريقين فريق هش للدعوة واستبشر برسل أبى سلمة ورسالته ورأوا فيها فرصة سانحة لمناهضة بنى العباس واحقاق حقهم فى الخلافة وعلى رأس هذا الفريق وجوه بنى الحسن عبدالله وابناؤه محمد وابراهيم وموسى وعدد غير قليل من شباب آل أبى طالب وجمهور من أهل المدينة وفريق آخر قابل هذه الدعوة الكوفية الجديدة باعراض تام ، وامامهم فى ذلك جعفر بن محمد فانه امتنع من فض الكتاب المرسل اليه وأمر بأحراقه على مرأى من رسول الزعيم أبى سلمة الخلال ، ولما طالبه بالجواب قال : الجواب مارأيت ، ثم شفع هذا الجواب بالانكار على عبدالله بن الحسن ثقته واطمئنانه الى مصدر هذه الدعوة ونصحه الا يندفع وراء الخيال فان الامر قد تم لبنى العباس فى العراق[١] .

عصر بنى الحسن ، أو عصر الزيدية :

يصح أن يحدد عصر بنى الحسن المذكورين بالفترة التأريخية الواقعة بين أواخر الدولة الاموية واوائل العباسية ، ففى هذه الفترة ظهرت دعوتهم الى الخلافة فى الشرق والغرب وانهم أولى الهاشميين قاطبة ـ فضلا عن غيرهم بالامامة ـ وانها ـ أعنى الامامة ـ اليهم انتقلت من بعد الامام الحسين[٢] ،وان محمد بن عبدالله بن الحسن المثنى هو الامام ، اذ كان أهله يسمونه المهدى ويقدرون انه الذى جاءت به الروايات ، كما كان بعض الطالبيين يرون انه النفس الزكية ، وانما قيل له النفس الزكية لزهده ونسكه[٣] .

كان عبدالله بن الحسن أبو محمد المذكور ـ وهو وجه من وجوه الهاشميين فى ذلك العصر ـ يعتقد اعتقادا جازما بامامة ابنه كما كان من أنشط القائمين بالدعوة الى بيعته ، أعانه على ذلك انه زعيم هاشمى موهوب معسول الكلام حلو البيان حتى كان

---

(١) انظر عن تضارب آرائهم فى دعوة أبى سلمة المصادر المشار اليها فى ذيل الصفحة المتقدمة ، وراجع أيضا ذيل الصفحة (٦١) من هذا الكتاب .

(٢) يرجع الى شرح أصول الكافى للشيخ محمد صالح (١٨٥) من هامش الاصل .

(٣) مروج الذهب (٢/١٩٦) .

أمراء الدولتين الأموية والعباسية يحسبون حسابا لبلاغته وأثرها فى النفوس ، فهذا عمر بن عبدالعزيز لم يشأ أن يبيت عبدالله بن الحسن ليلة واحدة فى الشام ـ فى رحلته اليها وافدا على ابن العزيز ـ قائلا : « الحق بأهلك فانك لم تبغهم شيئا أنفس منك ولا أرد عليهم من حياتك أخاف عليك طواعين الشام » ، قال الجاحظ : « كره أن يروه وأن يسمعوا كلامه لعله يبذر فى قلوبهم بذرا ويغرس فى نفوسهم غرسا »[١] ، وكان أبو جعفر المنصور يصف كلام عبدالله بن الحسن بالسحر ، ويقال ماساير عبدالله بن الحسن احدا الا فتله عن رأيه[٢] ، ولذلك استجاب لدعوته التى قام بها لابنه من استجاب من أهل الحجاز .

كثر أنصار بنى الحسن وأتباعهم فى هذا العصر من العلويين والطالبيين ومن غيرهم وبايعتهم فرق الزيدية ، وخرج غير واحد منهم بالسيف على العباسيين شرقا وغربا ، خرج محمد بن عبدالله المذكور فى الحجاز وتلاه أخوه ابراهيم الثائر على المنصور فى العراق وثار أخوهما يحى بن عبدالله فى المشرق أو فى بلاد الديلم وثار أخوهم الرابع ادريس على الرشيد فى المغرب الاقصى أو فى مراكش وفى أقاليم البربر المجاورة للجزيرة الاندلسية الخضراء ، وكان ادريس أكثر اخوته نجاحا فى خروجه على الدولة العباسية ـ كما سنراه عن قريب ـ بيد ان عبدالله بن الحسن كان معنيا أشد العناية بحمل أبى عبدالله جعفر بن محمد على التآزر مع بنى الحسن وقصده غير مرة من أجل الدخول معهم فى البيعة لابنه الا انه عجز عن اقناعه ولم يخرج من محاورته ومداورته بشىء .

كانت حجة جعفر بن محمد أبلغ ورأيه أسد وأصوب ، ولهذا لجأ بعض الطالبيين وأنصارهم من الزيدية الى الشدة مع الامام المذكور ، تولى ذلك ـ فى رواية مشهورة ـ عيسى بن زيد بن على المعروف بمؤتم الاشبال ، وكان عيسى هذا فى أوائل من استجاب لدعوة بنى الحسن مع انه ابن عم جعفر بن محمد ومن أقرب العلويين نسبا اليه

عيسى بن زيد أو الظليم النافر :

تروى لعيسى بن زيد[٣] مؤتم الاشبال فى عنفه وشدته وفى جرأته ومحاولاته

---

(١) نقل ذلك ابن أبى الحديد فى شرح النهج (٣/٤٧٤ ـ ٤٧٥) .

(٢) تاريخ الطبرى (٩/١٩٣) .

(٣) لعيسى بن زيد ترجمة مبسوطة فى مقاتل الطالبيين (٢٧٩-٢٨٧) ويراجع عنه الكتب الآتية : طبقات ابن سعد ، (٦/٢٦١) المعارف لابن قتيبة (٢٢٢) ، فهرست ابن النديم (٢٥٣) . تأريخ الطبرى (١٠/٣) ، تأريخ المدينة للسمهودى (٣٤٩) ، =

لاكراه ابن عمه على البيعة أخبار كثيرة[١] وان غمزها بعض المعنيين فى معالجة هذا الموضوع ، هذا وفى الحكم على عيسى مدحا وذما وجرحا وتعديلا أقوال عدة فهو فى قول مشهور لم يحجم عن ايذاء جعفر بن محمد وتهديده وارادته على البيعة للنفس الزكية وعلى المساهمة فى الحرب فامتنع امتناعا شديدا وامتنع معه أصحابه وطال الاخذ والرد بين الفريقين وتغالظا الكلام ، وكيف لايمتنع الامام وهو يرى أن محمد بن عبدالله هالك لامحالة وأن خروجه فتنة وكيف يستجيب لدعوة القوم وهو يخبرهم بأن صاحبهم مقتول فى حال مضيعة ، وكانت له كلمات موجعة جابه بها عيسى فى بعض المواقف المذكورة رواها أصحاب الاخبار فى حديث طويل منها قوله « ياأكشف ياازرق لكأنى بك تطلب جحرا تدخل فيه وما أنت من المذكورين فى اللقاء وانى أظنك اذا صفق خلفك طرت مثل الهيق النافر »[٢] .

هذا ماقاله أبو عبدالله جعفر بن محمد لابن عمه عيسى وهو يعيبه ويغمزه بالضعف وينذره بوخامة العقبى ، وكان الامر كما قال اذ أن عيسى ـ كما جاء فى سيرته ـ عاش فى البقية الباقية من عمره متنكرا فى الكوفة على حالة يرثى لها ومات متواريا فى بيوت أنصاره وأنصار أبيه من الزيدية ، ولا بد لنا من القول فى هذا الصدد ان جعفر بن محمد فادى فى سبيل اعتراضه على هذه البيعة كما فادى من قبل بمال كثير له واكثر منه لاصحابه صادره العلويون الثائرون ، وكان له فى المدينة عدد كبير من الاصحاب[٣] . ومما لاشك فيه أن أصحابه المذكورين محصوا فى هذه المحنة الثانية كما محصوا فى محنتهم الاولى فى أواخر العصر الاموى طبقا لحديث قال فيه : « لابد للناس أن يمحصوا

= تهذيب التهذيب لابن حجر (٢ / ٢٢١)، مستدرك الوسائل (٣/١٥٣)، ومن رأى صاحب المستدرك هذا ان عيسى ندم على سلوكه تجاه ابن عمه ، وليس من السهل اثبات ذلك .

(١) رويت هذه الاخبار فى أصول الكافى لابى جعفر الكلينى فى باب « تفصيل دعوة المحق من المبطل فى الامامة » (١٨٠ ـ ٢٥١) وفى هذا الباب من ابواب اصول الكافى تقف على طرف من الحجاج والمحاورات فى هذا الموضوع ، ولم يذكر أبو الفرج الاصبهانى قصة عيسى هذه مع أبى عبدالله جعفر ابن محمد فى مقاتل الطالبيين .

(٢) اصول الكافى (١٨٣) ، وفيه حديث مبسوط فى هذا النزاع .

(٣) قف على ذلك في أصول الكافي (١٥٩ ، ١٨٣) وانظر شرح الكتاب على هامش الصفحة (١٨٠) .

أو يميزوا أو يغربلوا »[1] .

هذا ولعيسى المذكور اخوته ، ومنهم الحسين ذو الدمعة ويحيى بن زيد الثائر فى خراسان ، وكان موقف الحسين ذى الدمعة لا يشبه موقف أخيه عيسى فيما يراه أكثر المحدثين بل كان جعفر بن محمد يعنى به ويعطف عليه ولا عجب فانه نشأ فى حجره[2] ، ويلاحظ انه ممن تضاربت فى حاله أقوال القوم فعده بعضهم من الضعفاء[3] ، وخرج له آخرون أحاديث متفرقة فى بعض المسائل الفقهية[4] .

أبناء زيد والزيدية فى صفوف بنى الحسن :

كان فى طليعة من بايع النفس الزكية اثنان من أشهر أولاد زيد بن على وهما : عيسى مؤتم الاشبال والحسين ذو العبرة كما انهما انضما بعد مقتل محمد الى أخيه ابراهيم الثائر فى العراق ، ولذلك قال أبو جعفر المنصور : « مالى ولابنى زيد وما ينقمان علينا ألم نقتل قتلة أبيهما ونطلب بثأرهما ونشف صدورهما ! »[5] ، والاغرب من ذلك ان اثنين من أولاد الامام جعفر بن محمد نفسه مالا الى الزيدية وهما عبدالله ومحمد وقد خرج الاول مع النفس الزكية وكان متهما بالخلاف على أبيه ودعا الى نفسه من بعده وخالط الحشوية فيما يقال وله أتباع يعرفون بالفطحية[6] ، وخرج الثانى على المأمون

---

(١) روى هذا الحديث فى اصول الكافى (١٨٧) .

(٢) يروى السمهودى فى تاريخ المدينة (٣٤٩/٢) أن الحسين هذا ذهب الى اليمن مزودا بكتاب من ابن عمه جعفر بن محمد الى معن بن زائدة أمير اليمن فى خلافة المنصور فرجع من رحلته بمال كثير .

(٣) الشيخ عبدالنبى الجزائرى الحاوى ولا ذكر له فى الخلاصة .

(٤) انظر عن المسائل المذكورة مستدرك الوسائل للنورى (٩٠/٣) .

(٥) انظر هذه الكلمة فى مقاتل الطالبيين (٢٧١) ط النجف ، والحقيقة ان من أولاد زيد من كان يضطلع مع المنصور مؤيدا له فى موقفه من بنى الحسن وهو محمد بن زيدو له ذكر فى كتب الانسان ويراجع عنه كتاب عمدة الطالب لابن عنبة .

(٦) يرجع فى ذلك الى كتاب الارشاد للشيخ المفيد (٢٦١ ـ ٢٦٢) ومقاتل الطالبيين (٢٦٢ ـ ٢٦٣) وكشف الغمة (٢٣١) .

بمكة سنة ١٩٩ وأيدته الزيدية الجارودية ولكن المأمون ظفر به فى قصة مشهورة[1] ،

تناسى هؤلاء الزيدية من العلويين ما كان بينهم من خلاف فى العصر الاموى ذلك ان عددا من وجوه بنى الحسن لم يخرجوا مع زيد ولم يشهدوا الحرب التى دارت فى الكوفة بينه وبين عمال الامويين عليها بل كان هؤلاء الوجوه على صفاء – ولو فى الظاهر – مع هشام بن عبدالملك ومع الوليد من بعده ، ويحكى ان عبدالله بن الحسن خطب فى المدينة مندداً بحركة زيد فى العراق متبرأ منها ، والارجح أنه كان مكرها على ذلك ، ومهما كان الباعث على عمله هذا فان فيه دليلا قاطعا على حيدة بنى الحسن فى الثورة المذكورة .

تناسى القوم ذلك لان ركن الامامة فى عقيدة الزيدية هو الجهاد والخروج أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر مضافا الى شرائط اخرى ، وقد خرج محمد بن عبدالله ودعا الى نفسه فهو الامام ، ويقال ان محمدا هذا أوصى الى عيسى بن زيد بعد أخيه ابراهيم وسرعان ما أصبح عيسى من ثقاة محمد بن عبدالله وصاحب شرطته فى المدينة .

التمييز بين زيد والزيدية :

ظهرت الزيدية فى الفترة الواقعة بين عصر الامام ابى جعفر محمد بن على وعصر ابنه أبى عبدالله جعفر بن محمد منشقة عن الامامية ، والزيدية تفترق عن الامامية بأنها تعد الدعوة والجهاد ركنا من اركان الامامة ، هذا الى فوارق اخرى ذكرها المعنيون بتأريخ الفرق الاسلامية ، وبناء على أصول المذهب الزيدى المذكور بايع الزيدية كل علوى ثائر اذا توفرت فيه شروط الامامة، بايعوا غير واحد من بنى الحسن كالنفس الزكية وأخويه ابراهيم ويحى ثم غيرهم من العلويين الثائرين من أبناء الحسن والحسين .

يعنى المحدثون والمؤلفون فى سيرة أئمة أهل البيت بسيرة زيد وبأخباره فى خروجه

---

(١) تجد أخبار محمد بن أبى عبدالله جعفر بن محمد الصادق فى خروجه على المأمون بمكة وما وقع له من طلب الامان فى تاريخ الطبرى (١٠/٢٣٣ – ٢٣٥) والكامل لابن الاثير (٦/١٢٨–١٢٩) ، وتجد له ترجمة فى تاريخ بغداد للخطيب (٢/١١٣–١١٥) ويراجع عنه الارشاد للمفيد (٢٤٢–٢٤٣) وكشف الغمة (٢٣١–٢٣٢) ، ومقاتل الطالبيين (٣٥٣–٣٥٥) ط النجف .

ومقتله عناية فائقة[1] لايعهد مثلها فيما يكتبونه عن بنى الحسن وعن خروج من خرج ومقتل من قتل منهم فى الحجاز والعراق وخراسان ، ومن ذلك يستنتج أن اصحاب الامام جعفر بن محمد يفرقون بين زيد والزيدية فكان زيد معذورا فى خروجه على هشام بن عبدالملك وان لم يخرج معه ابن أخيه ولا أوصى أحدا من أصحابه بالخروج معه ولم يكن بنو الحسن بهذه المثابة فان خروجهم لم يكن مستساغا لدى الامام المذكور كما يتجلى ذلك واضحا فى جوامع حديثهم وأخبارهم وفى بعض الكتب المؤلفة فى الانساب • ومن المسلم عند كثير منهم انحراف بنى الحسن عن الائمة من أبناء عمهم المذكورين[2] •

خيف على زيد بن على من الخروج وحذره أخوه الامام محمد بن على وأخبره انه مقتول اذا خرج[3] وانه لايملك اكثر من حيطان المدينة ولذلك لم يخرج فى عصر أخيه وانما خرج فى عصر ابن اخيه •

كان لمقتل زيد أثر بالغ فى نفس ابن أخيه جعفر بن محمد وبان عليه حزن شديد يدل على ذلك أنه أبنه بكلمات مؤثرة وواسى أهله وذويه وأهل من قتل معهم وذويهم[4] ويلاحظ انه لم يبد عليه مثل هذا الحزن البالغ فى مقتل من قتل من بنى الحسن فى حربهم بالمدينة ، ومما يدل على ذلك انه خرج قبل وقوع الحرب الى خارج البلد ولم يعد الا بعد مقتل النفس الزكية وبعد أن عاد الهدوء الى المدينة المذكورة •

كان هذا المظهر من مظاهر الحياد معروفا عن الامامين المذكورين فى العصر المذكور ولذلك كانا معنيين باسداء النصح واتمام الحجة على بنى العمومة من علويين وطالبيين وغيرهم من سكان دار الهجرة فان سكانها ضعفاء لا يقاوون الدول الناشئة فى العصر المذكور •

---

(١) انظر اسلوب الشيخ المفيد فى هذا الباب كما جاء فى الارشاد (٢٤٧) وقد حذا حذوه غير واحد من المحدثين والمؤلفين •

(٢) راجع تصريح المازندرانى شارح أصول الكافى (١٨١) •

(٣) قف على ذلك فى أخبار الرجال للكشى (١٨٤) ط بمبى ، وفى باب زيد بن على من كتاب الكافى ، وفى كشف الغمة للاربلى (٢١٥) •

(٤) نقل ذلك الاربلي في كشف الغمة (٢٢٤) •

تخليط وأوهام فى معاجم الرواة :

هذا ويلاحظ شيء غير قليل من التخليط والاوهام فيما يكتب عن بنى الحسن وعن أعيان الزيدية وعن رؤساء بعض الفرق وأصحاب المقالات المختلفة فى الامامة ممن عاصروا أبا عبدالله جعفر بن محمد ، تارة يحسبونهم فى أصحابه وطورا يعدونهم فى خصومه المنحرفين عنه ، وهذا التخليط فى أقوال المؤلفين وأصحاب معاجم الرواة محمول على اضطراب علاقات بنى الحسن وأعيان الزيدية ورؤساء الفرق وأصحاب المقالات المتضاربة المختلفة بالامام جعفر بن محمد تبعا لاختلاف الاحوال والازمنة ، والامثلة على ذلك كثيرة ، ومنها انك ترى جل وجوه بنى الحسن المذكورين معدودين فى بعض هذه الكتب والمعاجم فى أصحاب الامامين محمد بن على الباقر وابنه جعفر بن محمد الصادق المتحملين عنهما مثل عبدالله بن الحسن ، وأخيه زيد بن الحسن ، ومحمد المدعو بالنفس الزكية وأخويه ابراهيم وموسى أبناء عبدالله بن الحسن[١] ، ويحتج القائلون باستقامتهم وصحبتهم برسالة بعث بها الامام المذكور الى عبدالله بن الحسن مصدرة بقوله : « الى الخلف الصالح والذرية الطيبة من ولد أخيه وابن عمه » وليس هذا الاحتجاج بشيء ـ فيما نرى ـ لانها رسالة تعزية بنكبة المنصور لبنى الحسن عند حملهم من المدينة الى العراق وسجنهم فى الهاشمية ، هذا اذا صحت رواية هذه الرسالة ، ونحن لانميل الى صحة هذه الرواية[٢] ٠

ومن هذا القبيل اضطراب رواياتهم وأقوالهم فى عيسى بن زيد ـ المار ذكره فقد عد فى أصحاب جعفر بن محمد المتحملين عنه وقد غمزه وأهمله آخرون[٣] ـ وممن

---

(١) انظر فى هذا الباب فهرست الشيخ الطوسى ومنهج المقال للاسترابادى (٢٣ ، ٩٧ ، ٣٠٣) فانه عد بنى الحسن عبدالله وأخاه وأبناءه من أصحاب جعفر بن محمد ، وانظر أيضا مستدرك الوسائل للنورى (٣/٨٢٠) ولاحظ ميل المؤلف الى دفع الطعون عن عبدالله بن الحسن استنادا الى بعض الروايات ٠

(٢) راجع مستدرك الوسائل للنورى (٣/١٣٨ ـ ١٣٩) ٠

(٣) لاحظ ماجاء فى منهج المقال عن عيسى بن زيد فانه اقتصر على تسميته قائلا : « انه من محدثى الكوفة » ، ولم يذكره العلامة الحلى فى خلاصته ومع ذلك خرج له الطوسى فى تهذيبه والكلينى فى فروع الكافى بعض الاحاديث فى باب « وصية الصبى » وفى باب « العقيقة » ٠

اضطربت أقوالهم فيه الحسن بن زيد بن الحسن والى المدينة للمنصور تارة يعـدونه فى أصحاب جعفر بن محمد ويصفونه بالصدق والفضل[1] ومرة يشيرون الى خصومته وشـدة وطأته على الامام المذكور[2] . ومما لاشـك فيه وشايتـه ببنى عمـه الحسن عنـــد المنصور[3] .

ومن واجب المؤرخ الباحث عن الحق فى هذا الباب أن يقارن ما جاء في بعض معاجم الرواة للشيخ الطوسى والكشى والنجاشي وما ورد فى غيرها من كتب المؤرخين مثل تأريخ بغداد للخطيب ـ وقد ترجم لغير واحد من بنى الحسن ـ ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ـ وقد ترجم كذلك لعدد منهم ومن غيرهم من الهاشميين ، وكتاب التقريب لابن حجر ـ وغيرها من كتب التأريخ ففى هذه التواريخ ـ تواريخ الخطيب وابن عساكر وابن حجر ـ ما فيها من الاعاجيب والروايات الغريبة المدهشة المروية عن بنى الحسن ، وقد اعتبر بعضهم هذه الروايات مفتعلة موضوعة على القوم أو صادرة عن الهوى والغرض ، وليس من السهل ـ فيما نرى ـ تكذيب كل ماورد فى كتب التأريخ عن هؤلاء الهاشميين وان كانت كتب التأريخ والحـديث مشحونة بالاحـاديث الموضـوعة ، وفى وسعك أن تعرف من ايراد هـذه الروايات على ماهى عليه من التناقض والتباين فى كتب اولئك المحدثين والمؤرخين الى أى حد بلغت القطيعة والجفاء والسخائم بين فرق هذه الامة[4] .

ملاحظـات البـاحثين :

لاحظ الباحثون فى نقد الرواة هـذا الاضطراب فحاولوا وضع بعض القواعـد والاصول للتوفيق بين هذه الاقوال المضطربة قائلين ان روايات المتهمين والمضعفين والغلاة

---

(١) انظر ما جاء فى الثناء عليه منهج المقال للاسترابادى (٩٩) .

(٢) راجع رواية صاحب اصول الكافى عن سوء معاملته لجعفر بن محمد (٢٥٨) ، وللحسن بن زيد ترجمة مبسوطة فى تاريخ بغداد للخطيب (٧/٣٠٩ ـ ٣١٣) ، وانظر عن احـوال زيد بن الحسن مهـذب تاريخ دمشق لابن عساكر (٥/٤٥٩ـ٤٦٤) ، وكتاب كشف الغمة للاربلى (١٧٢) وهو يميل الى مدحه والتنويه به مع انه كان مسـالما لبنى أمية وتولى الاعمال لهم ،

(٣) لاحظ ماورد فى عمدة الطالب (٥٥) ط النجف وفىمقاتل الطالبيين(١٤٥) .

(٤) راجع بعض هذه الروايات فى تاريخ ابن عساكر (٥/٤٥٩ ـ ٤٦٤ ، ٦/٢١ ، ٧/٣٥٤ ـ ٣٦٣) فى ترجمة عبدالله بن الحسن ، وراجع تراجم بعض بنى الحسن فى موضعها من تاريخ بغداد للخطيب .

تنقسم الى قسمين فان كان لهؤلاء الرواة حال استقامة وحال غلو أو ضلال عمل بما ورد فى حال الاستقامة وترك مارووه فى حال الخطأ [1] ، وهو موضوع يستدعى كثيرا من التمحيص والاستقصاء ودقة النظر فى تأريخ الاعلام وسير الرواة ٠

وقد توسع آخرون فيهذا الاصل قائلين ان المهم فيالاصل المذكور أن يكون الراوى صادقا غير كاذب وان كان مخطئا في أصول اعتقاده عندهم ، ومن اجل ذلك لم يردوا كثيرا من روايات الرواة المنسوبين الى الفطحية والناووسية والواقفة وغيرها ، ومن أجل ذلك أيضا ذهبوا الى تصحيح مايصح عن بعض الجارودية وغيرهم من فرق الزيدية [2] ٠

ومجمل القول : يعتبر هذا العصر عصر بلبلة ونزاع واختلاف بين رؤساء الفرق وأرباب المقالات فى الامامة وفى الخلافة ، وهو نزاع له علله وأسبابه ـ بلا شك ـ ومن المفيد تحرير هذا النزاع وعلله المذكورة وتقريبها على الصورة الآتية :

الوان من النزاع :

نزاع في الاصول

لهذا الاختلاف بين بطون الاسر العلوية ثم بين اتباعها فى العصر المذكور الوان وعلل شتى ، منها مايدخل فى الاصول ومنها مايدخل فى الفروع ، ومن النوع الاول اختلافهم فى نظام الامامة وفى كيفية عقدها ، فمنهم من عد الجهاد والخروج امرا بالمعروف ونهيا عن المنكر ركنا من اركان الامامة ، وهؤلاء هم الزيدية على اختلاف فرقهم ، ولما لم يكن هذا النوع من الخروج من منهج جعفر بن محمد فى هذا العصر ـ كما رأينا ـ لم تثبت امامته عند هؤلاء فعدلوا الى القول بامامة من خرج من العلويين على الاطلاق ٠

ويفهم من كثير من الروايات أن جعفر بن محمد واصحابه نظروا الى زيد نظرة تختلف عن نظرتهم الى الزيدية المعروفين فى العصر المذكور ، وقد أجمعت كلمتهم تقريبا على ان عقيدة زيد فى الامامة لاتختلف عن عقيدتهم وان كان كثير من الزيدية لايسلمون لهم بذلك ، واذا ماقال أصحاب جعفر بن محمد بأن زيدا امام فانهم يعنون انه امام فى العلم

---

(١) قاله الشيخ الطوسى فى العدة ونقله المحدث النورى فى مستدركه على الوسائل (٣/٧٧٣) ٠

(٢) راجع مستدرك الوسائل (٣/٦٣٠) وانظر الفائدة السابعة من الكتاب المذكور (٧٥٨ ـ ٧٧٠) ٠

والورع والامر بالمعروف والنهى عن المنكر (١) .

من هذه الناحية كانت بين بواعث ثورة بنى الحسن على العباسيين وثورة زيد بن على على الامويين فروق ظاهرة فان ثورة بنى الحسن كانت ـ فيما نرى ـ هجومية مسبوقة بمطالبهم المعروفة فى الخلافة مستندة الى القول بان محمد بن عبدالله هو المهدى الذى بشرت فيه الاحاديث ، وكانت ثورة زيد بن على من نوع آخر كانت ضربا من ضروب الدفاع عن النفس وعن الكرامات والاحساب ، ولا يخفى ان زيدا سيم خطة من الذل والخسف لاتطاق فى مجلس هشام بن عبدالملك وعانى اثناء اقامته فى الشام ماعانى من أمراء الدولة الاموية واستخفافهم به ، ولم يتمالك بعد ان أقيم من مجلس هشام بامره أن يقول : « لم يكره قوم حد السيوف الا اذلوا »(٢) ، ويلاحظ ان أحدا من بنى الحسن لم يساهم فى الثورة ، وقد يكون مرد ذلك الى بعد المدينة عن الكوفة وفى المدينة يقيم جل بنى الحسن ، وبعض اشياخهم يكثر من التردد بينها وبين الشام فهم بعيدون عن العراق لاسيما اذا علمنا ان الثورة الزيدية من الحوادث التى فوجىء بها العلويون فى كل مكان ، هذا ومن رأى بعض المؤرخين أن زيدا كان يحدث نفسه بالخلافة دائما ويرى أنه أهل لذلك(٣) .

عصر الفرق والنحل

ويمتاز هذا العصر بانه عصر مقالات وآراء متضاربة فى الأصول الاعتقادية وفى الفروع الفقهية وما الى ذلك من وجوه الاختلاف ، وبعد ان كانت الزيدية فرقة واحدة فى عصر زيد بن على أصبحت فى هذا العصر فرقا شتى يردها بعضهم الى ثلاث : البترية ، والجارودية ، والسليمانية . وبعد ان كانت الامامية فى عصر الامام محمد بن على وعصر ابنه الامام جعفر بن محمد فرقة واحدة انشعبت بعد وفاة جعفر بن محمد الى فرق منها الفطحية اتباع ابنه عبدالله المعروف بالافطح ـ ولم يبق لهذه الفرقة بعد ظهور دعوتها بقليل أثر يذكر ـ ، ومنها الاسماعيلية وهى من اشهر هذه الفرق ، وكان لها ـ كما لايخفى ـ

---

(١) قف على امامة زيد بهذا المعنى فى الفصول المختارة من العيون والمحاسن للمفيد (١١٣/٢) ط. النجف وراجع غاية الاختصار من كتب الانساب (٧٩ـ٨٠) فهناك فصل فى التفريق بين زيد والزيدية .

(٢) كشف الغمة للاربلى (٢١٤) .

(٣) ابن الطقطقى فى الآداب السلطانية (٩٥) ط. الرحمانية .

شأن خطير فى التاريخ فان هذه الفرقة أبقت آثارا وأنشأت دولا أشهرها الدولة الفاطمية .

شاع الغلو وكثر الغلاة[١] ، ويلاحظ ان اكثر هؤلاء الغلاة ورؤسائهم من الموالى الذين انتحلوا أو انتحل آباؤهم الاسلام بعد الفتح ، اى انهم من سكان البلاد المفتوحة ، فمن السهل والحالة هذه تعليل ظهور أصحاب هـذه النحل والمقالات والفرق الغـالية ، وما من شك ان جل اهل تلك البلاد المفتوحة كانت تدين باديان ونحل قـديمة ، منها أتباع أديان سماوية منسوخة بالاسـلام ، ومنها الوثنية والثنـوية والمانوية ثم صبوا الى الاسلام بعد الفتح وآمنوا برسالة الرسول العربى الكريم الا ان بعضهم ورث عن أسلافه ما ورثه من طباع وأخلاق امتزجت بالدماء وسرت فى الارواح ، ومن هذا القبيل غلوهم فى المخلوق وتقديسهم لانداهم من البشر ، والى هذه الطبائع المتأصلة مرد هذا الشذوذ والانحراف المنكر فى المذاهب والآراء فى أولى العصور الاسلامية .

أضف الى ماتقدم اسراف المسرفين من أصحاب الدول وافراط المفرطين من عمالهم وامرائهم فى العنف وسفك الدماء ومبالغتهم فى كراهية العلويين والتنكيل بهم ـ كما حدث فى عصر الامويين والعباسيين ـ ، وقد نشأ عن هذا الاسراف اسراف آخر يقابله فى الغلو والافراط وقد سبق ذلك كله خصومات عنيفة ودعاوى ومنازعات وفرقة شديدة ، وكانت كل فرقة من تلك الفرق تؤثم الأخرى وتخطئها فى معتقدها كما وقع ذلك بعد الحروب التى اثيرت فى خلافة الامام على بن ابى طالب ، ومنها حرب الجمل وصفين وخروج الخوارج ثم الحروب والوقائع والفتن التى وقعت فى الدولة الاموية ، ومن اشهرها وقعة الطف وحروب مصعب بن الزبير وحربهم مع المختار .

غالى من غالى بوجوه العلويين ـ كما قلنا ـ حتى ادعى بعضهم الحلول كالمغيرة بن سعيد وبيان بن سهيل النهدى[٢] ، وصائد النهدى ، وادعى آخرون التناسخ وذهب فريق الى التحلل وانكار الشرائع والسنن والفرائض ورفضوا تعاليم الاديان وراحوا يدسون الاكاذيب فى الحديث ويختلقون الاخبار ، ومنهم تشعبت فرق من الدهرية والملاحدة[٣] ،

---

(١) انظر القسم الثانى من خلاصة الاقوال للحلى الخاص بذكر الغلاة والضعفاء ولاحظ الصفحات التالية من الكتاب (١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٢) .

(٢) غلط بعض اصحاب المعاجم المؤلفة فى أحوال الرواة فى ضبط اسم (بيان) هذا وممن وقع فى هذا الغلط صاحب الخلاصة وراجع عن ذلك منهج المقال (٧٢ ـ ٧٣) .

(٣) كتاب الفرق للنوبختى (٤٦ ـ ٤٧) .

ومن هؤلاء ابو الخطاب الاسدى الذى ادعى الامامةو النبوة بعد جعفر بن محمد فلعن فيمن لعن من الغلاة لعنه الامام جعفر بن محمد وقتله عيسى بن موسى أمير الكوفة ، ومثله بزيع بن موسى الحارثى ، ومما يذكر للامير عيسى بن موسى انه كافح هؤلاء الغلاة - وكان لهم نشاط ظاهر فى الكوفة - وخصوصا الخطابية وقتل منهم مقتلة عظيمة فى الكوفة أيام ابى جعفر المنصور[١] .

يقال للفرقة التى تبعت المغيرة بن سعيد « المغيرية » وقد ظهرت هذه الفرقة فى عصر أبى عبدالله جعفر بن محمد اثر وفاة أبيه قائلة بامامة محمد بن عبدالله - النفس الزكية الثائر المقتول فى المدينة - لانه خرج بالسيف كما خرج زيد بن على وعدلوا عن القول بامامة جعفر بن محمد لانه لم يخرج ولم يوص احدا من اصحابه بالخروج ، والظاهر أن المغيرة بن سعيد هذا الغالى الخبيث هو الذى وضع بعض الاوصاف فى حديث المهدى المشهور بحيث جعله ينطبق على محمد بن عبدالله النفس الزكية .

قال صاحب التعليقات : « الغلاة معروفون ومنهم أتباع المغيرة بن سعيد » ، وعد فرقا أخرى من الغلاة وذكر مذاهبهم وآراءهم كالمرجئة والقدرية والمخمسة والخطابية[٢] ، وقد كثرت أقوال المؤلفين فى موضوع الملل والنحل فى نحلة المغيرية وفى زعيمها المغيرة ابن سعيد ، ولا تخلو هذه الاقوال من التناقض والاضطراب ، وكان الامام جعفر بن محمد يلعنه ويصرح بأنه من الوضاعين[٣] كما كان شديد الوطأة على زعماء هذه الفرقة وعلى دعاتها فى احاديثه ، وقد أجمعت كلمة محدثى الامامية والمؤلفين منهم فى أحوال الرواة[٤] على ذم المغيرة والطعن فيه وصرحوا بانه كذاب مشعوذ وضاع وأنه من الغلاة دس الاكاذيب فى أحاديث أهل البيت .

---

(١) فرق الشيعة للنوبختى (٦٧ ، ٦٩ ، ٧١) .

(٢) تعليقات البهبهانى (٤١٠ - ٤١٢) .

(٣) هامش كتاب فرق الشيعة للنوبختى (٤١) .

(٤) انظر عن رأى الامامية فى هذه الفرقة كتاب منهج المقال للاسترباذى (٣٤٠ - ٣٤١) وكتاب الفرق للنوبختى (٦٢ - ٦٣) ، ويدعى المجد الفير وزباذى ان المغيرة يلقب الابتر واليه تنسب البترية من فرق الزيدية ، قال ذلك فى مادة « بتر » من معجمه المعروف بالقاموس ، والصحيح ان البترية فرقة أخرى من الزيدية تنسب الى رجل آخر ، راجع عن البترية مقالات الاسلاميين للاشعرى (١/٦٨ - ٦٩) وعن المغيرة الملل والنحل للشهرستانى (٢/١٣ - ١٥) وكتاب الفرق للبغدادى (٢٢٩ - ٢٣٣) .

ومن أشهر فرق الزيدية « البترية » نسبة الى « كثير النوا » وكان أبتر اليد ، وقيل الى المغيرة بن سعيد مولاهم ـ وقد مر ذكره ـ ، والاول أشهر ، وفى سبب تلقيبهم قول آخر[١] ، وقد عرف « البترية » وزعماءها ودعاتها الاسترابادى ومما قاله : « هم يرون الخروج مع بطون ولد علي ويذهبون فى ذلك الى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ويثبتون لكل ولد من ولد على عند خروجه الامامة[٢] وللبهبهانى بحث مبسوط فى فرق الزيدية وعد منهم « البترية » ٠

اما زعيمهم « كثير النوا » فقد ذكره الطوسى والكشى والبرقى والاسترابادى وأجمعت كلمتهم على ذمه[٣] وعلى ذم عدد من البترية أمثاله ذكرت أسماؤهم فى مكانها من الكتب المؤلفة فى الرواة وان لهم روايات مكذوبة نسبوها الى جعفر بن محمد ، وفى منهج المقال ابحاث عدة عن البترية وانها فرقة كانت مضطهدة فى عصر بنى أمية بالكوفة ، ومن المطعون فيهم من رفاق كثير النوا ـ الآنف الذكر ـ الحسن بن صالح بن حى وأخوه ابراهيم بن صالح من أعيان الكوفيين ٠

والواقع ان فى كتب المؤلفين فى الفرق وفى الملل والنحل خلطا كثيرا ، ويلاحظ فيها تسمية فرق لم يكن لها وجود بالمرة أو كان لها وجود لا يعتد به ، ولو قبلنا جميع ما يقوله هؤلاء المؤلفون فى موضوع الملل والنحل والفرق وفى مقالاتها وآرائها الغريبة لجردناها من العقول بالمرة ٠

ولابد لنا من القول : ان جعفر بن محمد انكر هذه الدعوى الغالية وتبرأ منها وحذر اصحابه من الوقوع فى اشراكها ، ومن الاحاديث الموضوعة والروايات المدسوسة فى أخبارهم وفى حديثهم ، وهى روايات يدسها الغلاة المذكورون[٤] وامثالهم ، وقد اعتبر هذا الامام من القرآن ميزانا عادلا يوزن به ما يروى عنه وعن أهل بيته فما وافق احكام القرآن من الاحاديث قبل وما خالفه رد وما خرج عن حدود المعقول ترك ، فما أهل البيت الا بشر مخلوق يجرى عليهم مايجرى على غيرهم من سنن الكائنات ، وان تفويض الخلق والرزق الى المخلوقين ـ كما يقول هؤلاء الغلاة ـ شرك وفساد فى

(١) و (٢) منهج المقال (١٥٦) ٠

(٣) منهج المقال (٤١٧) ٠

(٤) قف على جملة من اسماء هؤلاء الغلاة فى تعليقات البهبهانى على منهج المقال (٨ ـ ٩) وفى مواضع اخرى من هذا الكتاب ٠

العقيــدة (١) ٠

وفى كتب الحديث ـ على مايبدو لنـا ـ ما يدل على ان الامام المذكور كان معنيـا بملاحقة زعماء هذه الفرق وهؤلاء الغلاة الكذبة الذين ظهروا فى عصره وعصر أبيه وتعمدوا الدس والافتراء ، ـ وقد تقدم ذكر بعضهم ـ ومنهم الحرث الشامى وعبدالله بن الحارث وحمزة بن عثمان الزبيرى وبيان النهدى زعيم البيانية ، وقد قتل أكثر هؤلاء ، وبيان النهدى عاش الى زمن المأمون وقتله ابراهيم بن المهدى المعروف فى كتب المؤرخين بابن شكلة الذى خرج على المأمون وبويع له فى العراق (٢) ٠

ولاشك ان الامام جعفر بن محمد نسج فى التحذير من الغلو والغلاة على منوال سلفه الصالح فان جده على بن ابى طالب قتل واحرق جماعة منهم ، وتروى للامام أبى جعفر محمد بن على أقوال تعـد آية فى النصح والحث على القصد والاعتـدال واجتناب الغلو والافراط ، ومن ذلك قوله لاصحابه : « كونوا النمرقة الوسطى اليكم يرجع الغالى وبكم يلحق التالى » قالوا له : وما الغالى ؟ فقال : « الذى يقول فينا مالا نقوله فى أنفسنا ، والله مابيننا وبين الله قرابة ولا لنا على الله من حجة ولا نتقرب اليه الا بالطاعة فمن منكم كان مطيعا لله نفعته ولايتنا ومن كان عاصيا لم تنفعه ويحكم لاتغتروا » (٣) ٠

ومن احاديثهم المروية فى الحث على الاعتدال قولهم : « المفرط فى حبنا كالمفرط فى بغضنا » وهو يشبه الحديث المشهور « هلك فيك اثنان محب غال ومبغض قال » ، ومن دلك « انزلونا بالمنزل الذى انزلنا الله فيه ولا تقولوا فينا ما ليس فينا » (٤) ٠

ويفهم من حديث مبسوط مروى عن جعفر بن محمد ان منشأ هذا الاختلاف بين أصحاب هذه الفرق وعلة العلل فى دس الاخبار ووضع الاحاديث المنكرة هو حب الرياسة وطلب الجاه ، وهو حديث معتبر ختمه بقوله : « كل يحب ان يدعى برأى ، انه ليس من عبد

---

(١) قف على حديث مبسوط يروى عن الامام المذكور فى هذا المعنى فى موضعه من منهج المقال (٣٤٠) وراجع عن التنديد بالغلو والغلاة وضرورة عرض الاحاديث على القرآن كتاب الدرة النجفية للشيخ يوسف البحرانى (١٦٥) ٠

(٢) منهج المقــال (٧٢ ـ ٧٣) ولابراهيم بن المهدى ترجمــة فى تأريخ بغــداد للخطيب (١٤٢/٦ ـ ١٤٨) وتجد أطول ترجمة له فى مهذب تأريخ دمشق (٢٦٣/٢ ـ ٢٨٣) ٠

(٣) نقله صاحب كشف الغمة (٢٢٠ ـ ٢٢١) عن كتاب نثر اللئالى ٠

(٤) **كشف الغمة** (٤١٤) ، وانظر مادة (غلا) ، و (نمرق) من مجمع البحرين للطريحى ٠

رفع نفسه الا وضعه الله وما من عبد وضع نفسه الا رفعه الله وشرفه » [1] .

نزاع في الفروع :

هو نزاع على ولاية صدقات أوقيمومة على أوقاف ، منها ما تصدق به النبي ومنها ما وقفه علي ، وكانت صدقات جليلة لها غلات وافرة [2] ورث هذا الجيل من العلويين الخصومة على ولايتها عن جيلهم السابق ، وقد ذكر أصحاب السير هذه الخصومات التي قامت بين القوم ، ذكروا خصومة عمر بن علي بن أبي طالب لابن أخيه علي بن الحسين السجاد وهو أول نزاع بينهم في هـذه الناحية الفرعيـة ، وذكروا النزاع بين الحسن المثنى ـ بعد ذلك وبين عمه عمر المذكور ، وللحسن المثنى ـ وهو صهر عمه الحسين على احـدى ابنتيه وممن شهد معه واقعـة الطف بيـد أنه سلم منها ـ قصـة مشهورة [3] في هذا النزاع مع الحجاج بن يوسف ومع عبدالملك بن مروان ، وذكروا نزاعا آخر بين زيد بن الحسن بن علي [4] ـ وهو أخ للحسن المثنى ـ وبين ابن عمه أبي هاشم عبدالله بن محمد ابن الحنفية فان ولاية هذه الصدقات قد انتهت الى الاول في زمن الوليد بن عبدالملك فنازعه الثاني مما اضطر زيدا ان يشخص الى الوليد في الشام مكثرا على ابن عمه قائلا : انه يدعو الى نفسه ، الى اقوال اخرى صدقها الوليد فأمر باشخاص أبي هاشم اليه وحبسه في الشام ، وقد تم الافراج عنه بسعي ابن عمه الامام علي بن الحسين فانه سلك في دحض هذه التهم عن أبي هاشم مسلكا لطيفا نفى فيه دعوة ابي هاشم الى نفسه وحمل الوشاية به على مايقع عادة من الوحشة والجفاء بين الاهل وذوي الارحـام في قصـة

---

(1) انظر هذا الحديث في ترجمة زرارة بن اعين من كتاب منهج المقال (١٤٢-١٤٣) .

(2) أنظر عن أعيان هـذه الصدقات الكامل للمبرد وشرحـه المسمى رغبة الآمل (١٣٥/٧ ـ ١٣٨) وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (٢٣٢/٣ ـ ٢٣٤) ووفاء الوفا للسمهودي (٣٤٩/٢) ويراجع في هذا الباب باب الوقوف في كل من فروع الكافي للكليني وبحار الانوار للمجلسي وكلمة (ينبع) من معجم البلدان .

(3) قف عليها في الارشاد للشيخ المفيد (١٧٥ ـ ١٧٧) وفي كشف الغمة (١٧٢) ، وللحسن المذكور سيرة مفصلة في كتب التاريخ والانساب ، وله ترجمة مبسوطة في مهذب تاريخ دمشق لابن عساكر (١٦٤/٤) .

(4) انظر عن زيد بن الحسن وولايته لصدقات النبي الارشاد للشيخ المفيد (١٧٤ ـ ١٧٥) وكشف الغمة (١٧٢) .

طويلة[1] ، ويلاحظ ان الكيسانية وهم القائلون بامامة محمد ابن الحنفية يدعون انه أوصى الى ابنه هذا أبى هاشم بن محمد ، فهم يقولون بامامته وتسمى هذه الفرقة « الهاشمية »[2] ولا شك انها من الفرق البائدة وقد اختلف فيمن اوصى اليه ابو هاشم من بعده اختلافا كبيرا .

ومن اعنف الخصومات والمنازعات ـ التى ذكرها المؤرخون بين العلويين بشأن هذه الصدقات او الاوقاف ـ النزاع الذى قام بين زيد بن على بن الحسين وزيد بن الحسن المثنى ، وكان زيد بن الحسن عنيفا فى خصومته لسميه زيد بن على ، وحاول تهجين نسبه من جهة امه وانها كانت سندية فاعرض زيد بن على عن هذا النزاع واعرض معه بقية اخوانه وابنائهم وامتنعوا من الحديث مع زيد بن الحسن .

انتقل هذا الجفاء الى بعض ابناء زيد هذا وهو الحسن بن زيد بن الحسن والى المدينة للمنصور فكان من أشد ولاته على ابناء عمه من الطالبيين فى المدينة ومن أكثرهم طلبا للولاية على هذه الصدقات وعلى غيرها من الولايات فى عصر الامويين كما ذكر ذلك غير واحد من المؤرخين[3] .

امتازت مراجعات المتخاصمين وخطبهم فى هذه الخصومة التى جرت فى المدينة وفى ديوان اميرها أو قاضيها فى عصر الوليد بن عبدالملك ببلاغة نادرة ، ويروى المؤرخون ان الناس كانوا يتجمهرون ليسمعوا بلاغتهم فى المرافعات المذكورة[4] ـ كما يفعل النظارة الآن فى المرافعات الكبرى ـ وكان امراء بنى أمية وعمالهم فى الواقع لايكتمون

---

(١) يراجع عنها مهذب تأريخ ابن عساكر (٥/٤٦٠ ـ ٤٦١) ، ويراجع عن ترجمة أبى هاشم المذكور مقاتل الطالبيين (٩١ ـ ٩٢) ط النجف ، وله ترجمة تجدها فى موضعها من تاريخ دمشق لابن عساكر .

(٢) انظر عن الهاشمية كتاب الفرق للنوبختى (٣٠ ـ ٣١ ، ٥١ ـ ٥٢) وتراجع حوادث سنة ٩٩ من الكامل لابن الاثير .

(٣) راجع عن هذه الوحشة والجفاء بين الطالبيين والعلويين حسنيين وحسينيين المصادر الآتية : مهذب تأريخ دمشق لابن عساكر (٥/٤٦ و ٤/١٦٤) ، تأريخ الطبرى (٨/٢٦٢) ، العمدة لابن عنبه ، نور الابصار (١١٢) وراجع ترجمة « زيد ابن الحسن » فى محلها من مهذب تأريخ دمشق (٥/٤٥٩ ـ ٤٦٤) وعن خصومة عبدالله ابن الحسن المثنى مع زيد بن على بن الحسين الكتاب المذكور (٦/١ ـ ٢) ولزيد بن على ترجمة فى التهذيب المذكور (٦/١٥ ـ ٢٥) .

(٤) شرح ابن ابى الحديد على نهج البلاغة (٣/٤٨٢) .

غبطتهم أو شماتتهم بهذه الخصومات العنيفة بين العلويين ، وكان ضلعهم على الأكثر مع بني الحسن المذكورين نكاية ببني الحسين ، فهم يعلمون ان بني الحسين كانوا وما زالوا موتورين بمقتل ابي عبدالله الحسين .

تخاصم زيد بن علي بن الحسين بشأن هـذه الصـدقات مع اثنين من ابناء الحسن المثنى احدهما زيد بن الحسن المذكور ، تخاصما عند أمير المدينة ـ كما رأينا ـ اما الثاني فهو اخوه عبدالله بن الحسن ، وكانت المرافعة هذه المرة بين زيد وعبدالله في دمشق وفي مجلس هشـام بن عبدالملك وترتب على وقوعها في الشـام نتائج خطيرة اذ تجسم لزيد تحيز الامويين واضحا في هذه القضية أضف الى ذلك ان زيدا أوذي في دمشق وجوبه بكلام فارص من هشـام ، وهي مشـادة انتهت ـ كما لايخفى ـ بثـورة زيد المعروفة في الكوفة .

من هم بنو الحسن ؟

يعنينا من ذكر هؤلاء الطالبيين والعلويين حسنيين وحسينيين في هذه الفصول ، انهم ممن سنوا للعرب وللناس كافة ، سنة الانفة والاباء ، وعلموهم معنى الصبر والنجدة واختيار الموت على الحياة الدنية ، وتقبل مذاهب الاجداد في اباء الضيم والعزوف عن الذل ، فمنهم القائل : « ذل من أحب الحياة » ومنهم من قال : « لااعطيكم اعطاء الذليل » كرهو الدنية وفضلوا عليها المنية ، الى غير ذلك من محاسن الشيم والاخلاق .

يعرف كثير من العلويين ـ في الكتب المؤلفة في أنسابهم خاصة ـ بالقاب لاتعرف في كتب التأريخ العامة ، ومن ذلك عبدالله بن الحسن أبو الاخوين محمد النفس الزكية وابراهيم قتيل باخمرى ، فهو في كتب الانساب « عبدالله المحض » وفي كتب التأريخ عبدالله بن الحسن ، ويعرف أبوه الحسن « بالحسن المثنى »(١) في كتب الانساب لمطابقة اسمه لاسم أبيه ، ويعرف أخوه الحسن بن الحسن « بالحسن المثلث » في كتب الانساب ولا يعرف بذلك في كتب التأريخ ، ومن ألقابهم « موتم الاشبـال » و « ذو الدمعـة » و « الاطروش » و « الغمر » و « الجـون » و « الديبـاج » و « الأعرج » و « الافطح » وهي ألقاب لاتعرف في كتب التأريخ الكبرى حيث تجد أسماءهم مجردة من هذه

---

(١) له ترجمة مفصلة في تأريخ دمشق لابن عساكر (٤/١٦٢ ـ ١٦٦) وترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب (٢/٢٦٣) شهد مع عمه كربلاء ولم يقتل لاسباب ذكرها المؤرخون ، وله ذكر في مقاتل الطالبيين وعمدة الطالب وغاية الاختصار وكتب اخرى .

الألقاب ، اما فى كتب الانساب فانها ألقاب معروفة مقرونة بذكر أسبابها .

أعيان بنى الحسن وأشهر مشاهيرهم فى صدر الدولة العباسية ـ عبدالله المحض وأبناؤه واخوته وأبناؤهم ـ كانوا على جانب كبير من الوجاهة والرياسة ونفاذ الكلمة ، بويع بعضهم بالخلافة .

امتاز هذا الفرع من العلويين بمناوءة العباسيين وخروج من خرج منهم واحدا بعد آخر فى الدولة العباسية طلبا للخلافة ، ويلاحظ ان أوائلهم كانوا أقل تبرما بحكم الامويين منهم بحكم العباسيين فقد عوملوا فى الدولة الاموية معاملة خاصة تختلف عن معاملة غيرهم من العلويين والطالبيين وخصوصا سلالة ابى عبدالله الحسين فهى سلالة موتورة بمقتل من قتل فى واقعة الطف وبمقتل من قتل فى واقعة الكناسة فى عصر هشام ابن عبدالملك ، وسنرى فى الكلام عن عبدالله بن الحسن ما يؤيد ذلك .

كابد بنو الحسن ما كابدوا فى سبيل تضامنهم ازاء العباسيين وبقاء رابطة العشيرة قائمة وثيقة فيهم مهما تحملوا فى سبيلها ، فقد كانوا مثلا فى التضامن اذا استثنينا بعض من شذ منهم[١] وما لأ المنصور على بنى عمه ، ومن أجل ذلك حاول رجال المنصور فى المدينة التفريق بين العلويين من حسنيين وحسينيين ، وميزوا بعضهم على بعض فى المعاملات[٢] ، ومن أجل ذلك نكل المنصور بهم ذلك التنكيل الشديد حتى مات كثير منهم فى السجون وقتل باقيهم بعد خروج محمد بالمدينة[٣] .

كان ولاة المدينة من قبل العباسيين يتهيبون بنى الحسن فى الحجاز ويخشون بأسهم ويلاحظون منزلتهم وفى مقدمتهم عميدهم عبدالله بن الحسن فيعجزون عن ملاحقة أولاده ، وهم يعدون العدة للخلاف والخروج على المنصور ، بل كان محمد النفس الزكية وأخوه ابراهيم يترددان على المدينة بدون حرج وعلى مرأى ومسمع من الولاة المذكورين اذ كان لوجاهة أبيهم ونفاذ كلمته شأن يذكر فى دفع غوائل السلطان عنهم فى المدينة وقد أحفظ ذلك المنصور وراح يحرق الارم عليه ، ومما زاد فى الطين بلة

---

(١) هو الحسن بن زيد بن الحسن ، الكامل (٥/٢٤٣) وتهذيب التهذيب لابن حجر (٢/٢٧٩) وغاية الاختصار (٣٩ ـ ٤٠) وعمدة الطالب (٥٥) ومهذب تأريخ دمشق (٥/٤٥٩ ـ ٤٦٤) .

(٢) تأريخ الطبرى (٩/١٩٢) والآداب السلطانية (١١٩) والكامل لابن الاثير (٥/٢٤٧) .

(٣) تأريخ الطبرى (٩/١٩٩) .

وأزعج المنصور جداً تحزب جمهور كبير من أهل المدينة لبني حسن عليه وكثرة المؤامرات فيها ومحاولة الفتك به في بعض مواسم الحج حتى لم يعرج على هذا البلد في موسم سنة ١٤٤ وهو الموسم الذي كان التنكيل ببني الحسن احدى الغايات من شهوده ، ومما يؤكد كون المدينة موالية لمحمد بن عبدالله بن الحسن معادية للمنصور دخول محمد لها من حين الى آخر - كما مر ذلك آنفا - واجتماعه باصحابه وأنصاره وذويه فيها مع شدة الطلب والملاحقة له [١] .

نشأت من بني الحسن دويلات في الشرق والغرب ، ولهم في افريقية ومصر وبعض بلاد الروم والفرنج فتوح يحتاج شرحها الى تأريخ منفرد [٢] ، نشأ منهم أئمة الزيدية في بعض الاقطار العربية والاسلامية كالادارسة مؤسسي الدولة المشهورة في مراكش والمغرب الاقصى وأئمة الزيدية في اليمن وبلاد الديلم والاقطار الفارسية .

هذا ويحسن بنا ايراد فذلكة عن أشهر مشاهير بني الحسن على الصورة الآتية :

عبدالله بن الحسن

يعرف في كتب الانساب بعبدالله المحض - كما مر - وأنه أول من اجتمعت له ولادة السبطين ومن هذا لقب « المحض » ، وكان المقدم بين بني الحسن علما وسخاء ومن المنعوتين بأوصاف حسنة منها العلم والبيان والخطابة ، ومما يشهد بذلك أنه أحد الثلاثة الذين حاول أبو سلمة عقد الامر لهم من العلويين ، وقد استجاب عبدالله بن الحسن لدعوة أبي سلمة ولم يلتفت الى تحذير جعفر بن محمد اذ أعلمه أن أهل خراسان ليسوا من أنصاره وان أبا سلمة مخدوع مقتول ، والقصة مشهورة [٣] ، قبل عبدالله بن الحسن بعض الالطاف والكتب التي كتبها اليه بعض جواسيس المنصور على لسان انصاره فكانت حجة للمنصور عليه وأمر بحبسه ، وخلاصة القول وقع في فخ نصبه له المنصور وقامت عليه حجة حسب روايات بعض المؤرخين [٤] . وقد روى عنه فريق من الاعلام منهم أبناؤه ،

---

(١) تاريخ الطبري (٢٠٢/٩) ، وانظر عن مجاملة ولاة المدينة لمحمد بن عبدالله وعن أسباب عزل المنصور لولاته عليها الكامل لابن الاثير (٢٤٣/٥ - ٢٤٥) .

(٢) راجع عن ذلك رسالة أوردها ابن أبي الحديد في شرح النهج (٤٩٢/٣) .

(٣) يرجع اليها في كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري (٨٦) ، وعمدة الطالب لابن عنبة (٨٨) ط النجف .

(٤) انظر عن جواسيس المنصور على عبدالله بن الحسن وابنائه تأريخ الطبري (١٨١/٩) ، والكامل (٢٤٤/٥ - ٢٥١) .

ويقول أبو الفرج الاصفهانى ان مالك بن أنس احتج برأى عبدالله بن الحسن فى بعض المسائل الفقهية[١] ، ويعده الجاحظ من خطباء بنى هاشم وقد روى له كلمة بليغة[٢] وسيرته وأخباره فى عصور الامويين والعباسيين معروفة فى كتب التأريخ والانساب [٣] ومن أشهرها وفوده على عمر بن عبدالعزيز وهشام بن الحكم فى الدولة الاموية ، ثم وفادته على أبى العباس السفاح فى الهاشمية بعد بيعته ، وقد صحبه فى وفوده على السفاح اخوه الحسن المثلث وهو ممن مات فى سجن المنصور بعد ذلك وكانت حفاوة السفاح بهما بالغة وان لم تخل من العتاب والسؤال والجواب بسبب تغيب محمد وابراهيم ، وقد اعتذر الحسن المثلث عن ولدي أخيه بما يدل على علو منزلته ، قال صاحب غاية الاختصار : « كان الحسن المثلث جليلا نبيلا ولو لم يستدل على شرفه الا بالجواب الذى قاله لابى العباس السفاح فى قصة محمد وابراهيم ابنى أخيه لكفى »[٤] .

كان لهذا الزعيم الحسنى ـ اعنى عبدالله بن الحسن ـ رأيه الخاص فى الخطة التى رسمها العباسيون لابادة بنى أمية واستئصالهم اينما وجدوا فى عصر أبى العباس السفاح ، وهو ـ أى عبدالله ـ القائل لداود بن على عم السفاح ـ وقد أمعن فى قتل الامويين فى الحجاز ـ : « يا ابن عمى اذا فرطت فى قتل أكفائك فمن تباهى بسلطانك ؟ ، أو مايكفيك منهم أن يروك غاديا رائحا فيما يسرك ويسوؤهم »[٥] ، وهو فى هذا القول يرى رأى سياسى بعيد الغور .

---

(١) هى مسألة « السدل » فى الصلاة يرجع فى ذلك الى المقاتل لابى الفرج (١٣١) ، ويكثر ورود السدل فى كتب الحديث راجع هذه المادة فى النهاية لابن الاثير وفى مجمع البحرين للطريحى .

(٢) البيان والتبيين (١/١٢٧) .

(٣) قف على بعض اخباره فىالاغانى (١٨ /٢٠٣ ـ ٢٠٩) ، والاصابة (٥/١٣٣)، والمعارف (٩٣) ، وطبقات ابن سعد (٥/٢٣٥) ، وله ترجمة فى تأريخ الخطيب (٩/٤٣٣) ، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٧/٣٥٤ ـ ٣٦٣) ، ومقاتل الطالبيين لابى الفرج ، وعمدة الطالب لابن عنبة ، والكامل لابن الاثير (٥/٢٤٦ ـ ٢٥١) ، وشرح النهج لابن ابى الحديد (٣/٤٧٣ ـ ٤٨٨) .

(٤) للاطلاع على تفصيل القصة يرجع الى غاية الاختصار (٣٤ ـ ٣٥) والحديث منقول فى كثير من كتب الاخبار والتأريخ .

(٥) شرح النهج (٢/٢١٣) ، وانظر هذا الموضع من الكتاب عن أشهر أمراء بنى العباس فى النكاية بالامويين وفى مقدمتهم داود وسليمان وعبدالله ابناء على بن عبدالله ابن عباس ، وهم أعمام السفاح، وراجع الآداب السلطانية لابن الطقطقى (١٠٨ـ١٠٩).

فلما عانى أحـد من وجوه بنى الحسن ماعاناه عبدالله هـذا من الخليفة أبى جعفر المنصور فانه حبسه حبسا شديدا فى المدينة ثم حمله وافراد اسرته الى العراق على حالة يرثى لهـا ، وحبسهم فى الهاشمية حتى الموت ، وقـد أذاقهم من الاذى فى حبوسـهم ما تقشعر له الابدان مما نعلم منـه مبلغ حقد أبى جعفر المنصور على عبدالله بن الحسن وابنـائه [١] .

لم يفعل المنصور ما فعله من هذا القبيل ولم يرتكب ما ارتكبه الا بعد أن لمس فى عبدالله بن الحسن لددا فى الخصومة وصـلابة فى العقيدة وتصميما على المعارضة ، فقد أخفق المنصور فى حمله على تسليم أبنـائه أو الايماء الى الجهـات التى يقيمون فيهـا ، وطالما طلب اليه احضار ابنيه بالتهديد والوعيد وطالما جرى بينهما كلام غليظ فما أجدى ذلك كله وحاول أن يقتله قبل حبسه ثم عدل عن ذلك [٢] .

كان تخلف محمد وابراهيم ولدى عبدالله بن الحسن عن القدوم على أبى جعفر المنصور ـ بعد مبايعته بالخلافة فى الكوفة وتشجيع عبدالله لابنيه المذكورين على الخلاف والثورة حتى قال لهما فيما قال : « ان منعكما أبو جعفر ان تعيشا كريمين فلا يمنعكما أن تموتا كريمين » [٣] ـ فى أولى البوادر التى أثارت شك المنصور وريبته فى نيات بنى الحسن ، ثم توالت عليه أخبار وأنباء بعث بها اليه عيونه وأرصاده اكدت له خلاف بنى الحسن وان محمد بن عبـدالله عازم على الثورة [٤] ، وكان بعض بنى الحسن أنفسهم ـ وهو الحســن بن زيد بن الحســن ـ يؤكد لابى جعفـر المنصـــور ان بنى الحســن ثائرون عليه لامحالة فايقظ الحسن منه عينا لاتنام ، وفى الحسن هذا يقول موسى بن عبدالله ابن الحسن ـ ثالث الاخوين محمد وابراهيم ـ : « اللهم أطلب حسن بن زيد بدمائنا » [٥]

---

(١) للاطلاع على سـوء معاملة هؤلاء المسـاجين من العلويين والتنكيل بهم داخـل السجون يرجع الى مروج الذهب للمسعودى (٢/١٧١ ـ ١٧٢) ، وانظر المقاتل لابى الفرج (١٤٨ ـ ١٥٥) ط النجف ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (٢/٤) ، والآداب السلطانية (١١٨ ـ ١١٩) .

(٢) عقد أبو الفرج فى مقاتله فصلا عنـوانه : « ذكر السبب في أخـذ عبدالله بن الحسن » (١٤٢ ـ ١٥٩) .

(٣) مقاتل الطالبيين (١٥٥) .

(٤) المصدر نفسه (١٤٦ ـ ١٤٧)

(٥) الكامل (٥/٢٤٣ ـ ٢٦١) .

ولا شك انه كان عينا للمنصور يرفع اليه أخبار بنى الحسن [١] ، وللحسن هذا ابن مشهور أسمه القاسم ورث عنه هذه الخصومة لابناء عمه وهو الذى حمل البشارة بمقتل النفس الزكية الى المنصور[٢]

والواقع ان للحسن بن زيد أولادا آخرين لم يتبعوا طريقة والدهم فى مجافاة بنى الحسن بل انهم التحقوا بثوار المدينة وكانت لهم صلة وثيقة بالنفس الزكية[٣] ،

والحق ان المنصور كان بالغ القسوة شديد العقوبة والمؤاخذة لايستطيع ضبط نفسه اذا رأى زعيما من زعماء بنى الحسن وخصوصا ابا محمد هذا ، بل كان لايتردد من ضربهم واهانتهم وتعذيبهم وزجهم فى السجون المطبقة فى الحجاز والعراق ، وقد عبر عما يكن من حنق وحقد غالب عليه بقوله ـ والسياط تنهال بأمره على أحد بنى الحسن فى الربذة ـ : « هذا فيض فاض مني فافرغت منه سجلا لم استطع رده »[٤] .

النفس الزكية :

أنجب عبدالله بن الحسن هذه السلالة التى قادت الجيوش وكانت شجى فى حلق الطبقة الاولى من بنى العباس ، ولا شك ان المنصور قمع ثورة غير واحد من بنى الحسن ـ وفى مقدمتهم النفس الزكية « قتيل أحجار الزيت » ، واخوه ابراهيم قتيل « باخمرى » ـ الا انه قد استطاع غير واحد منهم أن ينشأ ملكا عريضا فى غير ناحية من نواحى العالم الاسلامى شرقا وغربا ، فكانت لبعضهم دولة فى المشرق وكانت لا خرين منهم دولة أخرى تعرف بدولة الادارسة فى المغرب ، وكان لبعضهم ملك كبير فى جهات اخرى .

لاشك أن أبعد بنى عبدالله شهرة وأبقاهم ذكرا هو محمد المعروف بالنفس الزكية الذى ناضل نضال الابطال ـ حتى مات ـ فى طلب الامامة .

ولدت مع مولد محمد بن عبدالله هذا فكرة الدعوة بالامامة وقدر أهله ـ وفى

---

(١) تاريخ الطبرى (٩/١٤٤) .

(٢) الكامل (٥/٢٦٠) ، وراجع عن القاسم هذا كتب الانساب ، ومن ذلك عمدة الطالب (٥٥) ط النجف وانظر عن جهود القاسم بن زيد بن الحسن هذا فى جانب العباسيين وذلك فى واقعة المدينة تاريخ الطبرى (٩/٢٢٢ ـ ٢٢٩) .

(٣) تأريخ الطبرى (٩/٢٣٢) ، وانظر عن شدة ابيهم الحسن على أبناء عمه المصدر نفسه (٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥) .

(٤) تاريخ الطبرى (٩/٢٢٦) .

مقدمتهم أبوه عبدالله الذى كان يطوف به على الاحياء ـ انه المهدى الموعود ، وتقبل كثير من الحجازيين وأهل المدينة خاصة هذه الدعوة ووقعت من نفوسهم موقعا حسنا وصادفت هوى من قلوب المدنيين •

لقن محمد هذا وهو ناشىء أنه المهدى والقى فى روعه وهو حدث الى أن شب وترعرع انه الذى تحدثت بظهوره الروايات فلا سبيل الى مناقشته فى هذا الامر ، بل كان من السهل وصم من يشك فى امامته بالمروق عند كثير من أهل الحجاز والمدينة ، ومن شأن كل ناشىء على هذا النمط من التربية والتلقين أن يكون راسخ العقيدة شديد الايمان بحقه ، وهكذا كان محمد بن عبدالله بن الحسن نشأ وهو واثق انه خليفة زمانه لم يتطرق اليه شك فى ذلك وفى أن له حقا مغصوبا وأن غاصبه هو المنصور ، فلا مناص له من الخروج فى سبيل الحق ، اضف الى ذلك أنه كان فى الواقع على قسط لايستهان به من العلم والنسك والدين ، ومن ذلك لقبه النفس الزكية ، وحسبك أن تتصفح الرسائل القيمة المتبادلة بينه وبين أبى جعفر المنصور قبل خروجه لتجزم بأنه غزير العلم قوى الحجة بصير بالاخبار والانساب[(١)] ، لذلك مال الهاشميون المؤتمرون فى الحجاز فى ذيل الدولة الاموية الى ترشيحه للخلافة وبايعه من بايعه منهم ، وفى مقدمتهم أبو جعفر المنصور نفسه •

كان محمد بن عبدالله موقنا بان بيعة المنصور له لايمكن نقضها شأنه فى ذلك شأن ذوى العقائد أو المبادىء الراسخة والمثل العالية وانها عقد لايصح ابطاله وان الخلافة أصبحت حقا له لاينازع فيه ، والحق فوق القوة ، وكان المنصور على نقيض ذلك من الزعماء أو الساسة الواقعيين الذين يرون ان الحق للقوة وان العهود والمواثيق لاتعدو قصاصة ورق من السهل تمزيقها ، وهكذا كان ، فما أبعد الفرق بين المزاجين والخلقين !

من ذلك عنى أبو جعفر بملاحقة عبدالله بن الحسن وأبنائه أشد العناية ـ على مارأيت ـ ، وكان بينه وبين سلفه أبى العباس السفاح بون بعيد فى هذا الشأن •

بنو الحسن فى خلافة السفاح :

كان أبو العباس لين العريكة اذا قورن بأبى جعفر المنصور لم يسرف كأخيه فى سفك الدماء ـ اذا استثنينا وقايعهم مع الامويين ـ ، والحق ان المنصور يختلف عن

---

(١) تجد هذه الرسائل فى تأريخ الطبرى وراجع عنها ذيل الصفحة (٦٣) من هـذا الكتاب •

سلفه اختلافا ظاهرا من هذه الناحية ونحن نرى السفاح لا يعمل بكثير من آراء أخيه المنصور ولا يوافقه على صرامته وشدته ، أراده المنصور على قتل أبى مسلم الخراسانى فنهاه عن ذلك قائلا : « يمنعنى عن قتله سابقته فى الدعوة وجهاده فى قيام الدولة » ، ولم ينزل أبو العباس السفاح كذلك على رأى أخيه فى قتل وزيره أبى سلمة الخلال ـ وهو الذى حاول نقل البيعة الى العلويين ـ على ان السفاح لم يكن مصرا على ذلك ولهذا تولى قتله بعض العباسيين غيلة ـ بعد استشارة أبى مسلم الخراسانى ـ فى الكوفة (١) ، ولا شك أن المنصور حاول الفتك بمن لقيه من بنى الحسن فى ولاية عهده للسفاح ولكن كان يحسب لغضب أخيه حسابه .

لما استخلف أبو العباس السفاح وفدت عليه ـ وهو فى الانبار قاعدة ملكه الجديدة ـ وفود العرب من كل فج وكان فى طليعتها وفد كبير من الطالبيين والعلويين ؛ وكلهم من أهل المدينة يتقدمهم عميد بنى الحسن عبد لله بن الحسن وأخوه الحسن ، ويلاحظ ان الوفد اقتصر على فريق من مشيخة الطالبيين وآل الحسن ـ اما معظم الشبان وفى مقدمتهم ابناء عبدالله وابناء أخيه فانهم تخلفوا عن المجيء الى العراق ـ وان السفاح احتفى بالوفد المذكور حفاوة بالغة وكان يتفضل أمام عبد الله بن الحسن ويستقبله بمباذله محاولا ازالة الجفاء والوحشة بين البيتين ومن ذلك انه احتمل اثناء هذه الحفاوة بضيوفه فى الانبار اقوالا لا معنى لصدورها منهم الا التعريض بالدولة العباسية ، وقد اسمعه الضيفان الكبيران ما يوهم نزول العباسيين عن ملكهم الى غيرهم فى مستقبل الايام (٢) ، ويلاحظ ايضا ان الحديث على تشعبه بين هؤلاء الهاشميين فى مدينة الانبار لم يتناول موضوع « البيعة » وان المؤرخين الذين عنوا برواية أخبار عبدالله ابن الحسن وأخبار من معه من الطالبيين فى وفادتهم هذه لم يشيروا الى البيعة ولا شيء أهم من الدخول فيها اذ ذاك ، ومن رأينا أن هؤلاء العلويين والطالبيين اشترطوا فى هذه الوفادة عدم التعرض للبيعة كما ان السفاح لم يكن ملحا عليهم فى ذلك ، ولذلك اعتبرت هذه الزيارة « أخوية بحتة » أو « شخصية » ولو كان المنصور مكان السفاح

---

(١) انظر عن مشاركة أبى مسلم فى مقتل أبى سلمة كتاب الامامة والسياسة (٢/١٣١) والكامل (٥/٢٠٨) وراجع هامش الصفحة (٦١) من هذا الكتاب .

(٢) من المراجع فى هذا الباب تأريخ بغداد للخطيب (٧/٢٩٣) ومقاتل الطالبيين لأبى الفرج وغاية الاختصار فى أخبار البيوتات العلوية المحفوظة من الغبار (٢٨) .

فى ذلك الحين لاصر على الدخول فى البيعة ولضرب أعناق القوم ــ لو امتنعوا ــ فورا أو القاهم فى السجون المطبقة والمطامير ليموتوا فيها ابشع ميتة كما قام بعد استخلافه بذلك .

كان زعماء العرب لا يرون فى وفادتهم على أقرانهم وأندادهم وقبول الرفد والهدايا منهم شيئا من الغضاضة لذلك نرى أبا العباس السفاح رضخ للوفد بمبالغ طائلة من المال [(١)]، ومن أهم العوامل فى هذا السخاء أن المال كان ينفق فى الحجاز وهو بلد فاحل جل سكانه من ذوى الفقر والخصاصة ولكنه مهبط الوحى ومبعث الرسالة .

هذا ولابد لنا من القول : ان السفاح أظهر قلقا ووجلا عظيمين من تخلف المتخلفين من شباب بنى الحسن وفى مقدمتهم الأخوان محمد وابراهيم ابنا عبدالله فألحف فى الاستفسار عنهما وعن أسباب تخلفهما ، ومن حق السفاح ان يساوره القلق فانهما تخلفا لأمر عظيم اذ كان محمد بن عبدالله مشغولا ببث الدعوة لنفسه فى الحجاز والعراق وفى الأهواز وفارس وفى أقطار أخرى ــ وكان له ولأنصاره نشاط ملحوظ فى هذه الاقطار يجرى أكثره فى الخفاء وان لم يخف على عيون بنى العباس [(٢)] ــ كما كان معنيا باعداد عدته للخروج ، ولم يكن الغرض من ذلك الالحاف تفقدا أو حبا وانما هو الاطمئنان والوقوف على مذهب الأخوين أو نيتهما فى طلب الخلافة ، وفى وسعك ان تحكم على سياسة السفاح ومبلغ مجاملته ابنى الحسن من تظاهره بقبول المعاذير عن الأخوين الغائبين على مضض فان الحسن المثلث أفهم السفاح بان محاولاته فى الوقوف على أمرهما من العبث [(٣)] ، ولذلك أراح السفاح نفسه باليأس من الظفر بالأخوين بعد الحديث المذكور مع أضيافه فأعرض عن طلبهم الى أن فرق بينهم الموت ، وتعزى مجاملته لبنى الحسن الى خبرته بدخائل بنى عمه الهاشميين والمامه بما يخالج نفوسهم من الشعور بالأنفة ، ولذلك نرى كثيرا من هؤلاء الطالبيين والهاشميين يخاطبون خلفاء بنى العباس مخاطبة النظراء الأكفاء أو مخاطبة الأنداد ، وقد يرون فى آل عباس أتباعا لا متبوعين ومرؤسين لا رؤساء فيما مضى من خلافة الامام على وبعض الأئمة من أبنائه ،

---

(١) غاية الاختصار (٢٨ ــ ٢٩) .

(٢) الكامل (٥/٢٤٥) وراجع الصفحة (٩٤) من هذا الكتاب .

(٣) انظر فى ذلك تأريخ الطبرى (٩/١٨٤ ، ٤٣٣) وتأريخ بغداد للخطيب (٧/٢٩٣ ــ ٢٩٤) والمقاتل لأبى الفرج (١٣٣ ، ١٧١) قال أبو الفرج : « خافه الأخوان وتواريا عنه وكانت بينهما ــ أى بين السفاح وعبدالله بن الحسن ــ مخاطبات » .

فمن أشق الأمور على وجوه العلويين أو الطالبيين أن يروا أنفسهم تابعين مرؤسين للعباسيين بعد ذلك ، وقد تعزى المجاملة المذكورة فيما تعزى اليه الى تأثير عبدالله بن الحسن نفسه فقد اشتهر ـ كما مر بك ان لحديثه تأثيرا كتأثير السحر فى النفوس حتى كان الأمويون والعباسيون يحسبون لبلاغته وعارضته وملاحة أحاديثه حسابا(١) •

بنو الحسن فى عصر المنصور :

كان استخلاف المنصور بعد أخيه السفاح ايذانا بالانتقال الى عصر جديد يمتاز بشدته المتناهية واجتناب سياسة اللين والتهدئة وتفضيل الحلول الحاسمة على أنصاف الحلول ، والواقع ان المنصور واجه فى مستهل خلافته اخطارا شتى منها القريب ومنها البعيد عنى بدفعها عن الدولة ، فهذا عمه الأمير الظافر عميد العباسيين بعد السفاح وقائد جيشهم وقاتل مروان الجعدى يمتنع من بيعة المنصور ويزحف على العراق مدعيا ان السفاح عهد بولاية العهد لمن يظفر بالأمويين وهو الظافر بهم غير مدافع ولذلك فهو أولى العباسيين بهذه الولاية ، وهؤلاء بنو الحسن وأنصارهم فى كل مكان لا يرون فى بنى العباس أهلا للبيعة بل يرون فيهم غاصبين ناكثين بالعهود والمواثيق ولا بد لهم من وثبة على هؤلاء الناكثين الغاصبين ، ثم هذه الفتن الناجمة والخوارج الخارجون فى شتى الأقاليم •

لا شك ان المنصور واجه هذه الأحداث والفتوق فى مستهل خلافته بجأش رابط وعزيمة ماضية فتغلب على عمه بأبى مسلم الخراسانى ثم ثنى بأبى مسلم ففتك به وبانصاره ثم قمع فتنا شتى فى الشرق والغرب تفرغ بعدها لمناجزة بنى الحسن وقد كونت حركتهم خطرا من أعظم الأخطار على الدولة ، وكان هذا الخليفة فى كل هذه الأحداث ثابت

---

(١) من المراجع فى هذا الباب تأريخ الطبرى (٩/١٨٤ ، ١٩٣) وشرح النهج لابن أبى الحديد (٣/٤٧٤ ـ ٤٧٥) قال شارح النهج شكا الى عمر بن عبدالعزيز رجل من رهطه دينا فاعتل عليه فقال الرجل فهلا اعتللت على عبدالله بن الحسن قال عمر : ومتى شاورتك فى أمرى ، وهل أعطيته الا بعض حقه ؟ قال الرجل : ولم تأخرت عن كله ، فأمر باخراجه وما زال محروما منه حتى مات ، قالوا : واعطى هشام بن عبدالملك عبدالله هذا أربعة آلاف دينار وانما اشترى بها ملكه وحصن بها عن نفسه الى غير ذلك •

الجنان يعتمد على القوة ولا محل عنده للعفو والرحمة(١) .

من رأى أبى جعفر المنصور ان الأساس الذى قامت عليه دولة بنى العباس وأخذت بموجبه البيعة لخلفائهم لم يزل مهددا بالانهيار اذا أصر بنو الحسن على المطالبة بحقهم فى البيعة ـ وانهم لمصرون فعلا ـ طبقا لذلك الميثاق الذى اتخذه الهاشميون فى أيام بنى أمية والى هذا الميثاق يستند بنو الحسن ومحمد بن عبدالله فى طلب البيعة وانها لبيعة يعرفها العرب والهاشميون بأسرهم فى ذلك الحين ، وأول من عقدها للنفس الزكية هو السفاح ، ويقال ان المنصور بايعه مرتين احداهما بمكة فى المسجد الحرام فلما خرج أمسك له بالركاب ثم قال : « اما انه ان أفضى اليك أمر نسيت لى هذا الموقف » (٢) ، ومن هذا نعلم ان مناط السياسة ومحورها الذى تدور عليه فى مذهب المنصور هو المصلحة لا غير ، فهو يساوم ويماكس ولا يقيم وزنا لغير هذا النوع من السياسة سياسة المنفعة لا سياسة العاطفة.

كان خبر هذه البيعة ـ بيعة المنصور للنفس الزكية ـ من جملة الأخبار المشهورة المتعالمة فى ذلك العصر ، ومن الأدلة على ذلك حديث عثمان بن محمد بن الزبير مع أبى جعفر المنصور ، وهو حديث يدل على ثبات نادر وجرأة بالغة ، كان عثمان هذا من وجوه أصحاب محمد ولى الشرطة له وله ذكر فى بعض كتب الأخبار(٣) ، وقد هرب الى البصرة بعد مقتل صاحبه فحمل منها الى المنصور فقال له « هيه يا عثمان ، أنت الخارج على مع محمد ؟ » قال : « بايعته أنا وأنت بمكة فوفيت ببيعتى وغدرت ببيعتك » قال : يا ابن اللخناء ، قال : ذلك من قامت عنه الاماء ـ يعنى المنصور ـ فأمر به فقتل ، وهذا الحديث يدل على أثر العقيدة فى هذا الضرب من أصحاب محمد

---

(١) قف على مارواه الطبرى فى تأريخه (٩/٢٥٥) من وصف بليغ لاخلاق المنصور ، وراجع ما نقله الوطواط فى غرره (٢٥٩) وهذا نصه : كان المنصور قلما يظفر بأحد الا قتله ، وهذا ما كان فى أول خلافته وهو القائل لعبدالصمد بن على ـ وقد لامه على اسرافه فى القتل والعقوبة حتى كانه لم يسمع بالعفو ـ « ان بنى أمية لم تبل رممهم وان آل أبى طالب لم تغمد سيوفهم ونحن قوم رأونا بالأمس سوقة واليوم خلفاء ولا تتمهد الهيبة فى صدورهم الا باطراح العفو واستعمال العقوبة » .

(٢) مقاتل الطالبيين (٢٠٩) .

(٣) المصدر نفسه (١٩٥) .

ابن عبدالله وعلى تفانيهم فى ولائه والاخلاص له [١] .

أضف الى ما تقدم ما تناهى الى علم المنصور من أن للعلويين أو لبنى الحسن فى كثير من الأقطار أنصارا يدينون لهم بالولاء ويبعثون لهم بزكاة الاموال وبمختلف الألطاف [٢] ويعنون كثيرا باخبارهم ويتحدثون باحاديثهم ، ومن هؤلاء من يرى رأى الزيدية فى الخروج ، ومنهم من يرى موالاة هؤلاء العلويين على كل حال ، وكانت للقوم هيبة ومكانة فى صدور الناس [٣] ، والى تلك المكانة الرفيعة والبيعة القائمة لبنى الحسن فى أعناق الأول من بنى العباس مرد هذا الحرص من المنصور على الظفر بمحمد وبأخيه ابراهيم ليطمئن على ملكه الجديد ويقيمه على الأساس الذى يريد ، وقد تذرع الى تحقيق بغيته بشتى الوسائل ونصب مختلف الحبائل [٤] .

يدهش المتأمل فى سيرة المنصور لعنائه البالغ بعد استخلافه ـ وقبل ذلك أيضا ـ بالتضييق على وجوه بنى الحسن ، كان ذلك شغله الشاغل أينما حل ، ملأ الجزيرة بالعيون والأرصاد وبذل الأموال الطائلة وفرق الأعراب يفتشون عنهم فى البوادى ، وكان أولئك العيون والأرصاد يتلقون تعاليم دقيقة من المنصور [٥] .

والحقيقة ان بنى الحسن من ناحيتهم ـ وقد عقدوا النية وصمموا على الخروج ـ أذكوا لهم عيونا وجواسيس يوافونهم بأخبار المنصور بل كان ابراهيم بن عبدالله نفسه يتغلغل فى مملكة المنصور وفى قواعده العسكرية فى الشام والعراق ، ويروى أنه تناول الطعام على مائدة المنصور مرة وحضر مجلسه متنكرا ، وقد بلغ المنصور بذلك الا أنه عجز عن الظفر به ، ويلاحظ ان عامة الناس فى العراق كانوا يساعدون ابراهيم على الافلات والنجاة [٦] ، وكان المنصور يقول : « غمض على أمر ابراهيم لما اشتملت

---

(١) قف على هذا الحديث فى تأريخ الطبرى (٩/٢٣٤ ـ ٢٣٥) والكامل (٥/٢٦١) ، والمقاتل (٩٧) ، ولاحظ الاختلاف فى سرد النصوص ، وفى رواية صاحب المقاتل تفصيل لا يوجد فى غيره من كتب التأريخ .

(٢) انظر ص (٩٣) من هذا الكتاب .

(٣) مقاتل الطالبيين (٢٠٩) .

(٤) تأريخ الطبرى (٩/١٩١) .

(٥) انظر عن جواسيس المنصور على بنى الحسن تأريخ الطبرى (٩/١٨١) ، والكامل (٥/٢٤٣ ـ ٢٤٤ ، ٢٥١) .

(٦) من المراجع المفيدة فى هذا الباب تأريخ الطبرى (٩/٢٤٤ ـ ٢٥٥) .

عليه طفوف البصرة »[1] .

عزل المنصور ولاة المدينة واحدا بعد آخر لفتورهم فى طلب القوم ونسب هؤلاء الولاة الى الغش والمداهنة ، والواقع أنهم دهشوا وأخذتهم الحيرة من هذا الولاء البالغ الذى ينعم به هؤلاء العلويون فى الحجاز وتفضيل القوم لهم على العباسيين فلم يجد الحكام مساغا لاراقة الدماء نزولا على هوى المنصور ، والغالب ان لعبدالله بن الحسن والد الأخوين المتواريين دخلا قويا فى ضعف هؤلاء الولاة عن الاهتداء الى مكان ابنائه وعجز المنصور عن الظفر بهما ، ومرد ذلك الى منزلة عبدالله هذا وحرمته الكبيرة فى الدينة ولدهاء وعقل فيه ، فكان الولاة المذكورون يسمعون عنه ويطيعون[2] .

المنصور يلح :

ما زال المنصور يلح وعبدالله يدافع ، وقد نجح المنصور أو كاد فى اشاعة الاضطراب والارتباك فى نفوس بعض بنى الحسن ، وكانت بين عبدالله بن الحسن وسليمان بن على ـ عم المنصور وعامله على البصرة ـ قرابة قريبة ومصاهرة فاستشاره فى اظهار ابنيه على شرط ان يعفى عنهما فقال سليمان : لو كان المنصور من أهل العفو لعفى عن عمه عبدالله بن على [3] ـ وهو أخو سليمان هذا ـ فلم يسع عبدالله بن الحسن الا قبول هذا الرأى الذى ارتآه صهره وقريبه سليمان ، ومن ثم أمعن فى تشجيع أولاده على الثبات والمضى فى الخلاف وهان عليه السجن فى هذا السبيل وطال لبثه فيه على وجه أثار اشفاق أولاده ورثاءهم لحالته ، وكان محمد ابنه يزوره فى سجنه بالمدينة وخطر له أن يسلم نفسه للمنصور ليخلص والده ولكن الوالد الجلد الصابر ظل وهو رهين السجن يحث أولاده على الثبات والمقاومة حتى الموت وقد اشتهر له فى هذا الشأن كلمته التى خاطب بها ابنيه قائلا « ان منعكما أبو جعفر ان تعيشا كريمين فلا يمنعكما أن تموتا كريمين »[4] .

وكان عبدالله أول من بث الدعوة لابنه وبايعه ، ولذلك كان المنصور يكنيه « ابا قحافة » تشبيها له بعثمان بن عامر التميمى لان أبا بكر ابنه بويع وهو حى كما بويع النفس الزكية

(١) تأريخ الطبرى (٢٤٦/٩) .

(٢) الكامل (٢٤٦/٥ ـ ٢٤٨) وتأريخ الطبرى (١٨٧/٩) وراجع الصفحتين (٩٢ ، ٩٣) من هذا الكتاب .

(٣) يراجع فى هذا الباب المقاتل لأبى الفرج (١٤٦) والكامل (٢٤٣/٥) .

(٤) المقاتل (١٥٥) .

وأبوه على قيد الحياة (١) •

طلائع الثورة :

أجمع المؤرخون على أن طلائع الثورة الحسنية على الدولة العباسية بدأت بتضييق أبى جعفر المنصور على عبدالله بن الحسن وأهله وزجهم فى سجنهم الأول بالمدينة ـ بعد استخلافه بنحو سبع سنين ـ متهما اياهم بتهم مختلفة ناسبا اليهم انهم يكيدون للدولة العباسية ويبغونها الغوائل ، ولم يأمر المنصور بسجن عبدالله ـ بعد أن حاول قتله (٢) ـ الا بعد أن أراده على احضار ابنيه وهدده وطالما تكاشفا وتغالظا فى الكلام (٣) ، وقد أراد المنصور بالتضييق عليه فى سجن المدينة أن يضطره الى تسليم ابنيه ولما امتنع أشد امتناع أمر باشخاص بنى الحسن الى العراق وأشرف بنفسه على وضع الأغلال فى أعناقهم والقيود فى أيديهم وسامهم فى الطريق من الحجاز الى العراق ألوانا من العذاب والتنكيل والقتل الى أن أودع من بقى على قيد الحياة منهم سجنه فى قصر ابن هبيرة أو الهاشمية (٤) ، وكان ذلك سنة ١٤٤ هـ •

بقى عبدالله بن الحسن فى سجن المنصور ثلاث سنين ، وكان ينتحل لغياب ابنيه شتى الأعذار ، مرة يقول : انهما منهومان بالصيد وطلبه وانهما هجرا لذلك الأهل والديار ، وتارة يقول : انه لا يعلم من أمرهما شيئا ، وطورا يدعى ان خوف المنصور اكرههما على الغياب وعلى الخروج الى اليمن والى السند والى العراق والى اقطار أخرى •

كان محمد خبيرا بالتنكر والاختفاء جوابة للبوادى ورادا على المياه الأواجن وقد تزيا بشتى الأزياء (٥) ، تزيا بزى الأعراب والعمال وغيرهم ولم يزل يتنقل من موضع الى موضع الى حين خروجه بالمدينة •

ظهور محمد بالمدينة :

ألح أمير المدينة فى طلب محمد وضيق عليه وأرهقه الطلب طبقا للأوامر التى

---

(١) غاية الاختصار (٢٥ ـ ٢٦) •
(٢) تأريخ الطبرى (٩/١٨٣) •
(٣) تأريخ الطبرى (٩/٢٤٣ ـ ٢٤٤) والمقاتل (١٤٨ ـ ١٥٠) والغرر للوطواط (٢٥٩) والكامل (٥/٢٤٧) وغاية الاختصار (٢٩) •
(٤) الكامل (٥/٢٤٨ ـ ٢٤٩) •
(٥) انظر عن تنكر محمد بن عبدالله فى مختلف الأزياء وعن مختلف الجبال والأودية التى يتنقل بينها تأريخ الطبرى (٩/١٨٣ ، ١٩٠ ـ ١٩١ ، ١٩٤ ، ٢٠٣) •

تلقاها من أبى جعفر المنصور بعد قفوله الى العراق بمن حملهم من بنى الحسن فلم يسع محمدا الا الخروج والثورة بعد أن بعث بأخيه ابراهيم يجوس خلال مملكة المنصور فى العراق ، وهى الثورة التى قمعت على يد الأمير عيسى بن موسى ـ بعد ثلاثة أشهر ـ طبقا لما توقعه الامام جعفر بن محمد ـ وقد مر شرح ذلك ـ (١) ٠

تتضارب أقوال المؤرخين فى أسباب نجاح المنصور فى قمع ثورة بنى الحسن بمثل هذه السرعة فيقال : ان محمدا خرج قبل وقته الذى واعد أخاه ابراهيم على الخروج فيه وقيل خرج بميعاده وكان التأخير من أخيه (٢) ، ويبدو لنا أن أهل المدينة برموا من القلق والاضطراب وسئموا من الانتظار على وجه اضطر معه محمد الى الخروج (٣) ، ويقال أيضا ان أهل المدينة لم يكونوا أهل حرب كأهل العراق وكانت ذخائرهم ومؤنهم قليلة ، وقد اتصل ذلك ببنى العباس من جواسيسهم فى الحجاز (٤) ، ومن أجل ذلك هان على المنصور اخماد الثورة فيها ، وفى كتب التأريخ روايات تدل على ان المنصور كان بارعا فى نصب المكايد والخدع للثائرين فكانوا يتلقون رسائل مذيلة بتوقيع قواد الجيش العباسى وأمرائه يحثون فيها بنى الحسن على الظهور ويخبرونهم أنهم من أنصارهم ، الى ذلك ونحوه مما جعل محمد بن عبدالله يعتقد بانحياز قادة الجيش العباسى الى جانبه اذا ثار (٥) ، وما كتبت تلك الكتب والرسائل اليه الا بأمر أبى جعفر المنصور ٠

عنى المنصور باستشارة أصحابه فى كيفية التغلب على محمد بن عبدالله فكانت لهم آراؤهم فى هذا الشأن ، وكثير منهم هون على المنصور أمر الثورة قائلين ان أهل المدينة ليس معهم آلة الحرب ولا قدرة لهم على الزحف ، وقد يستطيعون الدفاع مدة قليلة (٦) ، ومما يدل على ذلك ان عالما كثيرا من سكان المدينة تركوها الى البادية والجبال لما دنا منها جيش المنصور يقوده ابن أخيه الأمير عيسى بن موسى ، ولم يبق مع محمد بن

---

(١) لاحظ الصفحات التالية من هذا الكتاب (٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٧١ ، ٧٢ ٧٤ ، ٨٠) ٠
(٢) الكامل (٢٥٠) ٠
(٣) راجع المصدر نفسه (٢٤٤) ٠
(٤) المصدر نفسه (٢٥٣) ٠
(٥) تأريخ الطبرى (٢٠٥/٩) والكامل (٢٥١/٥) ٠
(٦) قف على آراء رجال الدولة الذين عنى المنصور باستشارتهم فى قمع الثورة فى الكامل (٢٥٢/٥) ٠

عبدالله عدد يؤبه له وتفرق عنه جل أصحابه فى أحرج لحظة [1] .
أضف الى ذلك ان أصحاب محمد اختلفوا فى كيفية إدارة رحى الحرب داخل أسوار المدينة [2] بيد ان محمدا مع ذلك كله ثبت ثبات المؤمن بحقه وقاتل قتال الابطال حتى قتل وقتل معه من أهل المدينة قوم لم يسع المنصور الا الاعتراف ببسالتهم ونجدتهم البالغة [3] .

بعض مميزات الثورة :

امتازت ثورة النفس الزكية ببعض المميزات الخطيرة وفى مقدمتها مشاركة عدد غير قليل من وجوه الدولة العباسية بالدعوة والبيعة له فى الشرق والعراق والحجاز ومنهم عدد من احفاد الصحابة والتابعين وعدد من النساك والقراء والفقهاء ونقلة الحديث والأثر ، وكان أعيان معتزلة البصرة من واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد من دعاته وأنصاره ، ويقول بعض المؤرخين : بايعه الأئمة من أهل عصره كمالك وأبى حنيفة ومن فى طبقتهما [4] .

خرج مع محمد جماعة من آل أبى طالب من أبناء الامام على ومن أولاد جعفر الطيار وخرج معه اثنان من أولاد زيد بن على عيسى وحسين وخرج معه جماعة آخرون اعتقدوا امامته وقتلوا على ذلك ، ومنهم بعض من آل الزبير كعثمان بن محمد بن خالد ابن الزبير المتقدم ذكره ، وقد خرج أكثر من خرج معه على أنه المهدى الموعود .

ومن السهل تعليل هذا التأييد الذى لقيه محمد بن عبدالله من العلويين والطالبيين وغيرهم وكذلك الانحراف الذى منى به المنصور والعباسيون فان مردهما الى الاعتقاد أو الى القول بالامامة فاننا نعرف عن أولئك الفقهاء ونقلة الأثر والحديث فى ذلك العصر وأمثال هؤلاء ـ ممن اعتزل الحكم وتجرد للتفقه والنسك والعبادة ـ أنهم يرون ان مناصب السياسة أهون من أن تراق فى سبيلها ملء محجمة من الدم ، ولما كان الأمويون ومن بعدهم العباسيون على النقيض من ذلك فى عدم التحرج من سفك الدماء فى سبيل

---

(١) الكامل (٥/٢٥٨ ـ ٢٥٩) .
(٢) المصدر المذكور (٢٥٥ ـ ٢٥٨) .
(٣) المصدر ذاته (٢٦٠) .
(٤) خلاصة الكلام فى أمراء البيت الحرام لابن دحلان ط القاهرة سنة ١٣٠٥ .

الملك والسلطان لم يسع أولئك الا المجاهرة بالخلاف والخصومة العنيفة ، وعقد غير واحد من المؤرخين فصولا خاصة سموا فيها من أجاب دعوة محمد بن عبدالله أو خرج معه من أعيان ذلك العصر وأئمته فى عدة من الأقطار [1] ، وهى فصول تصلح للاحتجاج على متانة مركز بنى الحسن من الناحية المعنوية فى العصر المذكور وان اضطربت آراء فريق من وجوه الطالبيين فى خروجه وامتنع من امتنع منهم عن تأييده [2] .

عمال محمد بن عبدالله :

أرسل محمد قبل ثورته وبعدها عماله ودعاته الى مكة والى الشام واليمن والعراق ، ومن أشهر هؤلاء العمال والدعاة اخواه ابراهيم بن عبدالله وجه به الى العراق قبيل ثورته وموسى ويعرف « بموسى الجون » فى كتب الأنساب ، وقد استعمله على الشام ، ومنهم محمد بن الحسن بن معاوية من أحفاد جعفر بن أبى طالب استعمله على مكة ، ويظهر من قوائم المؤرخين التى وردت فيها أسماء عماله أنه اختارهم من ذوى قرباه [3] ولم يكتب لأكثر هؤلاء العمال نجاح يذكر فى الأقطار المذكورة ، فهذا عامله على مكة لم يقم الا يسيرا فيها حتى استدعاه محمد لما خرج اليه عيسى بن موسى ولكن محمدا قتل وعامله هذا فى طريقه الى المدينة فهرب الى العراق ولحق بابراهيم بن عبدالله وأقام عنده حتى قتل [4] ، وقد منى موسى أخو محمد وعامله على الشام بالفشل أكثر من غيره ، تجهمه أهل الشام واستقبلوه استقبالا رديا وكان أثر الرعب والوجوم باديا على القوم منذ زوال الدولة الاموية واستئصال امرائها وابادتهم . تدلنا على ذلك رسالته

---

(١) يرجع فى ذلك الى تأريخ الطبرى (٩/٢٣٢ ـ ٢٣٥) ، وقد سمى ابن سعد فى طبقاته من خرج مع محمد من أهل المدينة (٣/١٧٣) ط ليدن ، وفى مقاتل الطالبيين (١٩٢ ـ ٢٠٦) ط النجف فصل عنوانه « ذكر من عرف ممن خرج مع محمد بن عبدالله بن الحسن من أهل العلم ونقلة الا ثار ومن رأى الخروج معه وأفتى الناس » ، وعقد ابن الأثير فى الكامل (٥/٢٦١ ـ ٢٦٢) فصلا عنوانه « ذكر بعض المشهورين من كان معه » ، وانظر الصفحات التالية من تأريخ الطبرى (٩/٢٠٣ ، ٢٠٥ ـ ٢٠٦ ، ٢٢٩) ، وانظر ميزان الاعتدال للذهبى (٢/٥٧) .

(٢) انظر عن أسماء هؤلاء المعارضين تأريخ الكامل (٥/٢٥١) .

(٣) الكامل (٥/٢٥٦ ـ ٢٥٧) وشفاء الغرام فى أخبار البيت الحرام للفاسى ط لايبسك (١٨٠ ـ ١٨٣) .

(٤) الكامل (٥/٢٥٦) .

التى بعث بها الى آخيه من دمشق وقد جاء فيها : « اخبرك أنى لقيت الشام وأهله فكان أحسنهم قولا الذى قال : والله لقد مللنا البلاء وضعفنا حتى ما فينا لهذا الأمر موضع ولا لنا به حاجة ، ومنهم طائفة تحلف لئن أصبحنا من ليلتنا وأمسينا من غد ليرفعن أمرنا ، فكتبت اليك وقد غيبت وجهى وخفت على نفسى »(١) وقد ترك موسى الشام بعد رسالته هذه الى المدينة وقيل الى البصرة ـ وهو الأصح فيما نرى ـ والمرجح أنه ترك الشام بعد أن حوصر أخوه فى المدينة وذهب رأسا الى البصرة ملتجئا الى قريبه محمد بن سليمان العباسى فى البصرة ولكن هذا وبخه توبيخا شديدا وجبهه بكلمات نابية تدل على اضطراب ورعب من المنصور ، وقد أشار المؤرخون الى مصير موسى بعد وصوله الى العراق وسجنه فى أيام المنصور والافراج عنه فى عصر ابنه المهدى وذكروا انه عاش الى أيام هرون الرشيد وله معه أحاديث لطيفة (٢) هذا ولم يغفل المؤرخون أسماء ولاة محمد بن عبدالله وقضاته على المدينة ووزرائه فى ادارة الشؤون الحربية والمالية والقضائية (٣) .

ابراهيم يثأر لاخيه فى العراق :

هرب عدد من أقرب المقربين الى محمد بن عبدالله ـ بعد مقتله سنة ١٤٥ ـ وعدد من ولاته وعماله الى البصرة ، وقد اشتملت باديتها على كثير من أنصار بنى الحسن عقدوا البيعة لأخيه ابراهيم بن عبدالله ونادوا بامامته وأعلنوا الخلاف على الدولة العباسية .

يعد ابراهيم بن عبدالله ـ أخو النفس الزكية ـ من أشهر رجال بنى الحسن علما وفقها لم يملأ عين المنصور بعد أبيه وأخيه غيره من بنى الحسن (٤) ، وله ضلع فى الأدب ويروى له شعر ، ومن رأى بعض المؤلفين فى الأدب والتأريخ ان « المفضليات » من جمع ابراهيم بن عبدالله جمعها من دواوين العرب لما كان مختفيا فى منزل « المفضل الضبى » فلما قتل ابراهيم نسبت المفضليات الى المفضل المذكور ، وكان المفضل زيديا ومن رواة حديثه وشعره كما كان ابراهيم يكثر من الاقامة عنده(٥) .

---

(١) الكامل (٢٥٦) .

(٢) انظر عن موسى الجون هذا تأريخ الطبرى (٩/٢٣٣ ـ ٢٣٤) وعمدة الطالب (٩٨ ـ ٩٩) ط النجف ، وغاية الاختصار (٢٢ ـ ٢٥) .

(٣) الكامل (٥/٢٥١) وانظر عن ولاة بنى الحسن على المدينة خلاصة الكلام فى امراء البيت الحرام لابن دحلان ط القاهرة سنة ١٣٠٥ .

(٤) المقاتل لأبى الفرج (٢٢٧) .

(٥) المصدر نفسه (٢٢٩ ، ٢٥٢ ـ ٢٥٥) وراجع عن أدب ابراهيم عمدة الطالب (٩٥) .

كثر المادحون من الشعراء لابراهيم ، ومن مداحه بشار بن برد ، وحسبنا من شعره فى ابراهيم قصيدته السائرة التى تعد من عيون الشعر العربى وفيها يقول :

أقول لبسام عليه جلالة ... غدا أريحيا عاشقا للمكارم

من الفاطميين الدعاة الى الهدى ... سراج لعين أو سرور لعادم(١)

أتى ابراهيم نعى أخيه فخرج وأخبر الناس فى البصرة ، وكانت البصرة موالية له جدا كما كان البصريون من أكثر أنصاره واشدهم انقيادا وطاعة له ، ولابراهيم كلمة بليغة فى الثناء على البصريين لايوائهم اياه مع أصحابه وقد أتخذ أصحابه من هذه الكلمة شعارا لهم وانشودة ينشدونها ، وقد جاء فى ختام الكلمة قوله : « ان املك فلكم الجزاء وان اهلك فعلى الله الوفاء »(٢) .

توالت على المنصور الفتوق ـ بعد خروج ابراهيم ـ من البصرة والأهواز وفارس وواسط والمدائن والسواد الى جانب كثير من أهل الكوفة (٣) ، ويبدو لنا ان كثيرا من زعماء العراق فى الكوفة وفى الموصل وغيرهما مالوا الى ابراهيم وبايعوه (٤) وقد أجمع المؤرخون على ان ابراهيم وجم واغتم بخروج أخيه وأمره أياه بالخروج فلعله كان يرى خروجه مبتسرا أى قبل أوانه ، ويفهم أن المنصور أكثر من استشارة رجال دولته فى أمر ابراهيم وخروجه ، وقد أخذ برأى من ارتأى منهم بأن يقاتله بجند من أهل الشام لانهم لا يميلون الى آل أبى طالب بخلاف العراقيين (٥) .

استولى ابراهيم على واسط والقسم الجنوبى من العراق وأرسل الى تلك الجهات

---

(١) وأبدع ما فى قصيدة بشار هذه قوله :

اذا بلغ الرأى المشورة فاستعن ... برأى صديق أو اشارة حازم

وخل الهوينا للضعيف ولا تكن ... نؤوما فان الحزم ليس بنائم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فان الخوافى قوة للقوادم

وحارب اذا لم تعط الا ظلامة ... شبا الحرب خير من ركوب المظالم

انظر الملاحم والفتن لرضى الدين بن طاووس (١٦١ ـ ١٦٢) ورويت هذه المقطوعة لبشار فى شرح « درة الغواص » للشهاب الخفاجى فى بحث له عن لفظة « المشورة » .

(٢) المقاتل لأبى الفرج (٢٢٧) وتجد بعض خطبه فى غاية الاختصار (١٨) .

(٣) الكامل (٥/٢٦٨) وتأريخ الطبرى (٩/٢٥٥) .

(٤) تاريخ الطبرى (٩/٢٤٩ ـ ٢٥٠) .

(٥) المصدر نفسه (٢٤٨) .

عماله ، بايعه أهل واسط بعد البصريين وبايعه الزعماء والفقهاء ولم يبق أحد الا تبعه ، وقد سمى أبو الفرج جميع من خرج معه من الفقهاء والمحدثين ونقلة الآثار (١)، وكانت وجهته الكوفة وفيها المنصور ، ويلاحظ ان كثيرا من أصحابه لا بصر لهم بفنون الحرب ولكنهم شجعان(٢) وقد وقعوا فى هفوات حربية اليها مرد ظفر الجيش العباسى(٣) ، وبعض هذه الغلطات الحربية فى واقعة « باخمرى » أدت الى مقتله وتشجيع جيش أبى جعفر المنصور على الثبات بعد الهزيمة (٤) ، وعلى كل حال كانت ثورة ابراهيم فى العراق أخطر من ثورة أخيه فى المدينة ، وبين الثورتين فروق أخصها ان ثورة ابراهيم الحقت بالدولة العباسية خسائر كبيرة فى الأموال والأرواح وهى اضعاف ما الحقته ثورة أخيه المذكورة وكانت وقعة باخمرى قريبة من الكوفة وفيها سرير المنصور .

نقلة الآثار يؤيدون الثوار :

خرج مع ابراهيم عدد غير قليل من أهل العلم والفقه ونقلة الآثار سماهم وترجم لهم أبو الفرج الأصفهانى (٥) ، كما أفتى بالخروج معه فقهاء آخرون سماهم غير واحد من المؤرخين كابن سعد والطبرى ، وقد عللنا فيما مر تأييد أهل الفقه والنسك فى صدر الدولة العباسية للثائرين عليها من العلويين ، ومرد ذلك الى هوان السياسة وطلب الملك والدولة على هذا الفريق من الفقهاء والنساك وان ذلك فيما يرون أقل شأنا من أن تراق فى سبيله الدماء وأحرى ان يركن بسببه الى العزلة والانزواء فقد صح ان ابا حنيفة كان يجهر بآرائه فى نقد سياسة المنصور وأصحابه نقدا لاذعا يعلن عن مناوأته للخليفة ولعماله فى شدة وطأتهم على العلويين على رؤس الأشهاد ، حتى قال له بعض أصحابه : « والله ما أنت بمنته حتى توضع الحبال فى عناقنا » (٦)، والواقع ان أبا حنيفة عارض سياسة الامويين المجافية للدين والمبنية على اضطهاد العلويين قبل معارضته لسياسة العباسيين

---

(١) المقاتل لأبى الفرج (٢٣٩ ــ ٢٤١ ، ٢٤٥) وعمدة الطالب (٩٥) ط النجف .

(٢) المقاتل (٢٣٢) .

(٣) عمدة الطالب (٩٦) .

(٤) انظر عن معركة باخمرى وعن الهفوات الحربية فيها شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد (٤/٢٤٩) .

(٥) المقاتل (٢٣٩ ــ ٢٤١) .

(٦) قف على هذا القول واسم قائله في تاريخ الخطيب (١٣/٣٣٠) .

فرفض ولاية القضاء فى أيام مروان بن محمد ، وضرب وحبس فى هذا السبيل[١] ، وفى هذا الامتناع الشديد عن ولاية القضاء فى العصرين الاموى والعباسى بعد ذلك ما فيه من الدلالة على تبرمه بالسياسة وعلى مجافاته للحكام من أمويين وعباسيين ، ويعده المؤرخون كافة من الموالين لآل على ، وكان لخروج زيد بن على وقتله على الصورة التى قتل فيها – فى أيام هشام بن عبدالملك – أثر عميق فى نفسه ومشت بين زيد الشهيد وأبى حنيفة رسل وبعث اليه بمال وأطلعه على بعض الموانع التى منعته من الخروج[٢] .

ومما لا شك فيه ان اغتباط أبى حنيفة كان عظيما بزوال دولة بنى أمية وانتقال الأمر الى العباسيين ، وتروى له خطبة فى الكوفة عند بيعة السفاح استقبل فيها الدولة الناجمة استقبال الولى الناصر[٣] ، ولم تعرف عنه خصومة لهذه الدولة فى أيام السفاح وفى شطر غير قليل من أيام المنصور ، ولما خرج محمد بن عبدالله النفس الزكية بعد مضى عشر سنوات على بيعة المنصور – وكانت تربط أبا حنيفة بالنفس الزكية رابطة قديمة اذ كان أبوه عبدالله بن الحسن من أجل أشياخه – ظهرت الخصومة بينه وبين أمراء الدولة العباسية ولم يسعه الا المجاهرة بآرائه فى مناصرة العلويين ، لذلك نرى كتب التأريخ حافلة باخبار سخطه على بنى العباس بعد هذه الثورة وبعد مقتل العلويين الثائرين .

آراؤهم فى الخروج على السلطان :

وقد عقد الخطيب فصلا عنوانه « ذكر ما حكى عن أبى حنيفة من رأيه فى الخروج على السلطان »[٤] ، وهذا الفصل عبارة عن احاديث يستنتج منها أن أبا حنيفة يرى

---

(١) عقد الخطيب فصلا عنوانه « ارادة ابن هبيرة أبا حنيفة على القضاء وامتناعه عن ذلك » تجده فى تأريخ بغداد (١٣/٣٢٦ – ٣٢٩) ، وانظر مناقب المكى (٢/٢١ – ٢٤) عن هذه القصة ومنها يظهر انها وقعت فى سنة ١٣٠ أى قبل قيام الخلافة العباسية بسنتين .

(٢) انظر فى هذا الباب مناقب أبى حنيفة للمكى (١/٢٥٥) ط حيدر آباد .

(٣) رويت هذه الخطبة فى مناقب المكى (١/١٥١) ومناقب ابن البزاز (٢/٢٠٠) ويذهب بعضهم الى ان أبا حنيفة كان فى مكة عند بيعة السفاح بعد فراره من ابن هبيرة ، وقد يقال : انه دعى دعوة خاصة الى حضور الاحتفال بالبيعة فى مدينة الكوفة ثم عاد الى مكة .

(٤) تأريخ بغداد (١٣/٣٩٥ وما يليها) .

الخروج بالسيف على سلطان زمانه الجائر ، وقد ناقش هذه الروايات فريق من المؤلفين والمحدثين زاعمين انها روايات واهية الاسناد ، وقال آخرون : انها كذب وافتراء على أبى حنيفة ودليلهم على ذلك ان فقهاء الحنفية مجمعون على القول بعدم جواز الخروج على السلطان وان طاعته واجبة ما لم يأمر بمعصية ، ويفهم مما قالوه أن ما نقله الخطيب فى هذا الشأن لا أصل له فى مذهب أبى حنيفة (١) .

وممن ناقش الخطيب البغدادى فيما حكاه عن أبى حنيفة واسند اليه والى أصحابه أقوالا تنافى الأقوال الواردة فى تأريخه وانكر تلك الاقوال المنسوبة اليه فى جواز الخروج على ولاة الامور الملك عيسى بن العادل الايوبى فى كتابه : « السهم المصيب » وقد نقل عن أبى حنيفة قوله « ولا نرى الخروج على أئمتنا وأولياء أمورنا وان جاروا علينا وندعو لهم » ثم قال : « واجماع أصحاب أبى حنيفة على ذلك » (٢) .

ومن رأى بعض المؤرخين ان هـذا القول مرجوح وان فى اجماعهم على محنتـه ما يكفى لترجيح قول القائلين بخلاف ذلك ، فالمنصور اعقل من ان يؤذى أبا حنيفة لمجرد امتنـاعه عن القضاء وانما اتخـذ من هـذا الاضراب ومن مواقف اخرى عارض بها أبو حنيفة رغبات المنصور (٣) ذريعة يتذرع بها لايقاع هذه المحنة ، وقد ثبت أن فى اعوان المنصور ووزرائه من يحرض على أبى حنيفة ويثير الخصومة بينـه وبين الخليفة ومنهم الربيع بن يونس وأبو العبـاس الطـوسى والأمير عيسى بن موسى أمير الكوفة الآنف ذكره وغير هؤلاء .

كان أبو حنيفة وهو فى الكوفة يحث الناس على الخروج مع ابراهيم بن عبدالله ويأمرهم باتباعه ويشجع ابراهيم على الطلب بدم أخيه ويدعوه الى نزول الكوفة مهونا عليه أمر عيسى وعمه المنصور ، وقد أفتـاه ـ على ما يقول هـذا الفريق ـ أن يسير معهم سيرة جده مع أهل الشام (٤) ، وكان بقاؤه فى الكوفة ـ وهى علوية فى دعوتها ـ خطرا

---

(١) انظر هذه الروايات وكيف نوقشت فى تأريخ بغداد (١٣/٣٩٥ ـ ٣٩٩) .

(٢) السهم المصيب (٦٠ ـ ٦٣) .

(٣) قف على معارضة أبى حنيفة للمنصور فى انفاذ جيشه الى الموصل للفتك بأهلها فى الكامل (٥/٢٧٧) .

(٤) قف على تفصيل ذلك فى مقـاتل الطالبيين لأبى الفرج الاصبهـانى (٢٤٧ ـ ٢٤٨ ، ٢٥٦) .

على القوم ، ولذلك هم واليها الأمير عيسى بهدر دمه ثم اكتفى بأن أشخصه من الكوفة الى بغداد بأمر من المنصور ، وتوفى أبو حنيفة سنة (١٥١) على اصح القولين أى بعد مقتل ابراهيم بن عبدالله بست سنوات ، ويجب أن تكون اقامته هـذه المدة ببغداد أو انه كان يتنقل بينها وبين الكوفة ، وفى كيفية وفاته ببغداد أقوال بيد ان المؤرخين مجمعون على وفاته وهو فى المحنة .

هـذا ويلاحظ أن مذهب أبى حنيفة فى الفقـه أصبح مذهب الدولة العباسيـة فى عصر الهادى والرشيد بعد ان نوهض صاحب المذهب فى عصر المنصور ، وقد اختير جل القضاة من بين المنتمين الى المـذهب المذكور ، وكان لأبى يوسف [١] صـاحب أبى حنيفة شأن يذكر فى ذلك حتى قيل : مذهبان انتشرا فى بدء أمرهما بالرياسـة والسلطان الحنفى فى الشـرق والمـالكى فى الغرب [٢] ، وكان مرد رغبة كثير من الطلاب بعد ذلك بدرس الفقه الحنفى الى تولى المناصب القضائية [٣] أو مناصب التدريس.

محنـة اخرى :

كان المنصور يلاحق من خرج مع محمد وأخيه ابراهيم أو افتى بجواز الخروج معهما ، وقد أجمعت كلمة المؤرخين على محنة امتحن بها مالك بن أنس المدنى صاحب الموطأ فضرب بالسياط ومدت يداه حتى انخلعت كتفاه وقيل : ضرب سبعين سوطا فى المدينـة [٤] هذا ما أجمع عليه المؤرخون وأصحـاب السير ، وفى أسباب هذه المحنة المتفق عليها أقوال أشهرها فتوى مالك المعروفة فى « يمين المكره ، وفى « طلاق المكره »

---

(١) له ترجمة فى تأريخ بغداد (١٤ /٢٤٢) .

(٢) يراجع فى ذلك بحث للمقريزى فى خططه (٤/١٤٤ ـ ١٤٤٦) .

(٣) يراجع للوقوف على الأقاليم التى غلب فيها مذهب أبى حنيفة كتاب (أحسن التقاسيم) للمقـدسى ، ويراجع عن بعض البلدان التى شاع فيها المذهب المذكور معجم البلدان لياقوت (٢/١٩٣) ومقدمة ابن خلدون (٣١٢ ـ ٣١٤) ط المطبعـة البهية ، ومقدمة الفوائد للكنوى .

(٤) روى ذلك الطبرى فى تأريخـه (٩/٢٠٦) ونقـله ابن الأثير فى الـكامل (٥/٢٥١) والسمعانى فى كتاب الأنساب فى مادة « الاصبحى » من الورقة (٤١) وقد نسب الضرب الى والى المدينة وسمى فى كتاب الأنساب هذا « سليمان بن على » والمشهور انه « جعفر بن سليمان بن على » ، انظر تأريخ الطبرى (٩/٢٦٤ ، ٢٧٨) وانظر كتاب الامامة والسياسة ، وقـد ولاه المنصور المدينة وعزل به واليها عبدالله بن الربيع وبقي جعفر علي ولاية المدينة الى سنة (١٥٠) وفيها عزله المنصور .

اذ استفاض في كثير من كتب المؤرخين ان مالكا افتى بجواز الخروج مع محمد بن عبدالله وبصحة البيعة له :فقيل له : ان في اعناقنا بيعة للمنصور فقال انما بايعتم مكرهين[1] أو قال : ليس على مكره يمين[2] ، وقد احتج من احتج بهذا الحكم على بطلان بيعة أبي جعفر المنصور وبايع أهل المدينة النفس الزكية[3] ، وعلى هذا فان التحلل من بيعة أبي جعفر المنصور هو المقصود من هذه الفتوى ونفى آخرون عن مالك الخوض في السياسة والتحريض على السلطان ذاهبين الى أن هذه الفتوى عامة لم تقصد بها نازلة أو حادثة بعينها ، وهذا الفريق من المحدثين والمؤلفين يذهبون الى أن مالكا التزم الحيدة في حرب المدينة بين الأمير عيسى بن موسى مقدم جيش المنصور والعلويين ومقدمهم النفس الزكية ، بيد ان بعض حساد مالك ومثيرى الخصومة بينه وبين المنصور استندوا الى هذه الفتوى فيما جرى بين مالك ووالى المدينة .

بين قرطبة والمدينة ، محنتان مختلفتان :

والحقيقة ان محنة الامام مالك هذه تختلف في جوهرها عن محنة أبي حنيفة ، ومن رأينا أن مرد محنته ـ مضافا الى ما مر ـ الى جنوح مأثور عنه لبعض امراء بنى أمية ، وقد يستند القائلون بذلك الى انه كان قليل الرواية عن على وعن ابن عباس ، وقد أجاب من سأله عن ذلك بأنه لم يلق من أخذ عنه من أصحابهما ، والواقع ان « الموطأ » لا يخلو من الرواية عن الامام على وعن بعض أبنائه[4] ، بيد ان صاحبه يروى أكثر من ذلك عن

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير (١٠/٨٤) .

(٢) هذا النص في تاريخ الخلفاء للسيوطى (١٠٢) وقال السمعانى لفتياه في يمين المكره ، وقال ابن النديم سعى به الى جعفر بن سليمان فقيل له ، انه لا يرى أيمان بيعتكم انظر الفهرست (١٩٨) .

(٣) الانتقاء لابن عبدالبر والبداية والنهاية لابن كثير (١٠/٨٤) ، ومن أوفى المراجع في قصة مالك مع والى المدينة جعفر بن سليمان ومع المنصور بعد ذلك كتاب الامامة والسياسة للدينورى (١٥٠ ـ ١٥٩) وانظر عن حكم يمين المكره في البيعة وفتوى مالك بشأنها وعن محنته بسبب فتواه المذكورة مقدمة ابن خلدون (١٤٧) ط المطبعة البهية .

(٤) قف على ذلك في الموطأ (١/١٤ ، ٨٢ ، ١٨٨ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨٠) و (٢/١٦٦) ط البابى الحلبى .

ابن عباس ويتحدث مالك فى « الموطأ » عن أبى عبدالله جعفر بن محمد [١] ، والمشهور أنه من المتحملين عنه ـ كأبى حنيفة ـ ، وقد يستندون أيضا الى رأى مالك فى عدالة بنى أمية فان صاحب الموطأ احتج بعمل مروان بن الحكم وهشام بن عبدالملك وبأحاديث مروية عن غيرهما من الأمويين [٢] ، وممن حكى ذلك عنه ابن خلدون فى معرض بحثه عن عدالة الطبقة الأولى من أمراء بنى أمية [٣] ، ولا يخفى ان الجنوح الى أمراء بنى أمية ذنب لا يغتفر عند بنى العباس .

وقد أشار المؤرخون الى رابطة وثيقة بين ملوك بنى أمية فى الأندلس ومالك ابن أنس نشأت عن الثناء على مالك فى محافل « قرطبة » من قبل الراحلين الى الحجاز من علماء الأندلس ، فان الحجاز منتهى رحلة الاندلسيين فى ذلك الحين .

الى هذه الرابطة الوثيقة تعزى غلبة المذهب المالكى على بلاد الاندلس والمغرب فى عصر الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل اذ جاهر مالك بالثناء على سيرتهم خلافا لسيرة بنى العباس التى لم تكن مرضية عنده بل تمنى مالك فى حديث له مع علماء الاندلس فصل الحجاز عن دولة بنى العباس والحاقه بالدولة الاموية فى قرطبة[٤] ، وهناك تعليل فلسفى لطيف علل به ابن خلدون غلبة المذهب المالكى على المغرب والديار الاندلسية[٥] والراجح ان هذه الصلات بين مالك وملوك قرطبة تعززت بعد وفاة المنصور ولم يقع شيء من ذلك والمنصور على قيد الحياة ، ومن ثم قام الامويون الاندلسيون بدعوتهم لتغليب مذهبه على غيره من المذاهب الفقهية لان الجو خلا لذلك المذهب فى تلك الأيام حتى كان لاصحاب مالك وللفقهاء على مذهبه كلمة نافذة ووساطة مقبولة فى حسم الخصومات السياسية[٦] .

---

(١) الموطأ (١/ ١٥١ ، ١٨٨ ـ ١٨٩ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٨١ ـ ٢٨٢) ، وفى ميزان الاعتدال للذهبى قال مصعب عن الدراورى : لم يرو مالك عن جعفر بن محمد حتى ظهر أمر بنى العباس (١٩٢/١) .

(٢) الموطأ (١٤١/١ ، ١٥١ ـ ١٥٢ ، ١٥٩ ، ١٦٤) و (٢٢٤/٢ ، ٢٢٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ ، ٢٥٣ ، ٢٦٢ ، ٢٧٩) .

(٣) مقدمة ابن خلدون (١٤٧) ط البهية .

(٤) نفح الطيب للمقرى (١٥٨/٢ ـ ١٥٩) .

(٥) المقدمة (١٤٧) .

(٦) انظر الكامل (٦٨/٦ ـ ٦٩) .

مالك بن انس والمنصور :

تتوفر الأدلة التأريخية على قيام هذه الصلات بين مالك وملوك قرطبة بعد موت المنصور ـ لا قبل ذلك ـ وفى مقدمة الأدلة المذكورة ان المنصور من بعد ظفره بنى الحسن فى حروب المدينة والعراق واستقامة الأمور له عمد الى تحسين صلاته بعدد من فقهاء الحجاز الناقمين عليه ، وفى زيارته لتلك البلاد سنة ١٤٨ وفدت عليه وفود الفقهاء وكان مالك فى مقدمة الوافدين ، وتدل روايات المؤرخين على ان حفاوة المنصور بوفود مالك عليه كانت بالغة •

كانت حادثة المدينة ومحنة مالك المعروفة بعاملها جعفر بن سليمان أول موضوع تناوله الحديث ، ويقول المؤرخون ان المنصور اعتذر لمالك عما جرى وكان لطيفا فى اعتذاره وفى نسبة المحنة الى عامله المذكور الذى عزل بعد ذلك ، وكان موقف المنصور من بقية الوافدين غير موقفه من مالك كما تدل على ذلك خطبة القاها عليهم كانت غاية فى شدة اللهجة (١) ، ومما هو جدير بالذكر ان حديث المنصور مع مالك يدل على المامه ـ أى المنصور ـ بخصائص بعض المذاهب الفقهية فى عصره من عراقية وحجازية •

احتفى المنصور بمالك ـ كما قلنا ـ حفاوة بالغة فى هذا الاجتماع ولم يعهد منه ذلك بالنسبة الى الامام أبى حنيفة فى العراق ، ومرد ذلك فيما نراه الى خطة مرسومة لمحاسنة أهل المدينة وسكان الحرمين بعد ان ارتكب قواد المنصور ما ارتكبوه مع اشياخ بنى على وبنى الحسن وسادات أهل البيت فى تلك البلاد ، ولم يجد المنصور ما يدعو الى محاسنة الكوفيين وأئمتهم لان الجفاء بينه وبينهم بلغ غايته القصوى وهو جفاء قديم أكرهه على نقل سرير ملكه منها الى الهاشمية والانبار •

أضف الى ما تقدم ان مالك بن أنس كان ينتمى الى بيت عربى مشهور ، وللبيوت العربية حرمتها عند المنصور ولما بلغه ان بعض الخدم فى بعض قصوره ينتمون الى قبيلة عربية أعفاهم من الخدمة(٢) ، هذا الى فروق أخرى ملحوظة بين المحنتين مردها الى الفرق الظاهر بين موقف أبى حنيفة وموقف مالك من سياسة المنصور فان موقف الأول امتاز بالعنف والشدة وقد تجاوزت خصومته حد القول ومرحلة الكلام الى مرحلة

---

(١) قف على هذه الخطبة وعلى أسماء الوافدين من فقهاء الحجاز وغيرهم على أبى جعفر المنصور فى كتاب الامامة والسياسة (٢/ ١٥٠ ، ١٥٨) •

(٢) قف على تحرى المنصور عن اجناس خدمه فى تأريخ الطبرى (٩/ ٣١٦ ـ ٣١٧) •

العمل والى المساهمة الفعلية فى تأييد دعوة العلويين وخروجهم على سلطان المنصور ولم يعرف ذلك عن مالك كما عرف عن أبى حنيفة .

الأمويون والمذهب المالكي في عصر المأمون :

ويلاحظ ان كثيرا من الأمويين نسبا أو الأمويين ولاء قلدوا مالكا وفضلوا مذهبه على غيره فى أكثر عصور الدولة العباسية تقدما وازدهارا وهو عصر المأمون ، ويبدو لنا ان ذلك ناشىء عن تلك الرابطة القديمة بين مالك بن أنس وملوك قرطبة ، وقد انتقل الانحراف عن الدولة العباسية من مالك بن أنس الى بعض أصحابه أو الى بعض القضاة على مذهبه وكانوا من المسخوط عليهم عند أكثر بنى العباس ، وقصة « الحارث بن مسكين » (١) وهو من أشهر القضاة فى مصر معروفة مع المأمون .

ثورة في مسلك القضاء :

لا نبالغ اذا قلنا ان الحارث هذا أحدث ثورة فى مسلك القضاء بعد ولايته اياه من قبل المتوكل فى مصر فانه تقلد القضاء مدة تناهز الخمس سنوات فى مصر وأمر باخراج اصحاب ابى حنيفة من المسجد واضطهد فقهاء الحنفية وقضاتهم ، وكان شديدا صارما فى قضائه موصوفا بالجرأة والاقدام عرض المامون وجها لوجه فنفاه عن مصر وكان يظهر الميل الى بنى امية والانحراف عن السلطان والمباعدة لاسبابه فى أيام المأمون ، وهو أول قاض ترك تلقى القضاة والسلام عليهم (٢) .

كان الحارث بن مسكين شديدا على الكوفيين وأهل العراق عامة رفع اليه أن رجلا شهد عنده وقد حلق شعر رأسه فقال : شامى أم عراقى ؟ فقال له الشاهد : بل كوفى ، فقال الحارث أخبث واكسر ، وله نكته ونوادره (٣) .

كان الحارث يحكم على مذهب المدنيين ـ أى أهل المدينة ـ كما كان أهل بغداد يحكمون على مذهب الكوفيين فيخطئونه ، ويتناولونه بالسنتهم حتى اضطروه الى الاستعفاء وكان ذلك سنة ٢٤٥ ، وتوفى الحارث بعد ذلك بخمس سنوات وقلد المتوكل قضاء مصر

---

(١) تجد للحارث بن مسكين ترجمة مفصلة فى كتاب الولاة والقضاة للكندى (٤٦٧ ـ ٤٧٦) وتأريخ بغداد للخطيب (٨/٢١٦ ـ ٢١٧) .

(٢) الولاة والقضاة (٤٦٩ ، ٤٧٣) .

(٣) المصدر عينه (٤٧٣ ـ ٤٧٤) .

بعده لاحد الأمويين [١]، وليس ذلك بغريب عن المتوكل العباسى وانه شذ الشذوذ كله عن مذاهب أسلافه وعرف بتحامله على مذهب المأمون فى هذا الشأن ، وقال ابن حجر فى (رفع الاصر عن قضاة مصر) : كان الحارث منحرفا عن الدولة العباسية لانه كان من موالى بنى أمية اعتقل فى العراق أكثر من عشر سنوات وقد افرج عنه فى أيام الواثق وكانت مدة ولايته للقضاء ١٢ سنة الا شهرا [٢] ، ويقول ابن خلدون وهو كما لا يخفى من اعيان الفقهاء على المذهب المالكى القائمين بنشره فى مصر والمغرب ما نصه « زخرت بحار المذهب المالكى فى الأفقين ـ افق الأندلس وافق المغرب ـ الى انقراض دولة قرطبة » [٣].

هذا ومرد محنة الحارث بن مسكين فى عصر المأمون ـ على ما نرى ـ الى نزعته الاموية العنيفة وتظاهره بالانحراف عن الدولة العباسية مع انه يعيش فى كنف الدولة المذكورة .

دولة لبنى الحسن فى المغرب :

لم يكون بنو عبدالله بن الحسن الذين خرجوا على بنى العباس فى صدر دولتهم أو فى خلافة خلفائهم الأول دولة تذكر فى المشرق ولا أمهلتهم الأيام أن يقوموا بذلك وان قامت لاعقابهم وأحفادهم امارات ودويلات بعد ذلك فى بعض ديار العجم كبلاد الديلم وفى بعض بلاد العرب كاليمن ، وانما قلنا دولة فى المشرق لأن بنى الحسن كونوا لهم ـ والحق يقال ـ أكثر من دولة واحدة فى المغرب الأقصى وفى بلاد الأندلس ، عرفت الدولة الأولى فى كتب التأريخ بدولة الأدارسة وعرفت الثانية بدولة بنى حمود من أعقابهم ، وقد استندت هاتان الدولتان فى قيامهما على حزب لا يستهان بقوته وشدة مراسه قوامه البربر والمغاربة المراكشيون ، وقد نسبت دولة الأدارسة الى ادريس بن عبدالله بن الحسن والى ابنه الذى خلفه فى المغرب وسمى باسمه ، ويقال لادريس

---

(١) أورد ابن الاثير وفاته مع من توفوا سنة ٢٥٠ قائلا : من ولد أبى بكر الثقفى ، انظر الكامل (٨/٥٢) .

(٢) ملحق أخبار القضاة عن ابن حجر وسبطه وعن تأريخ الاسلام للذهبى (٥٠٢ ـ ٥٠٤) .

(٣) مقدمة ابن خلدون (٣١٥ ـ ٣١٦) ط البهية .

ابن عبدالله « ادريس الاكبر »[1] تمييزا له عن ابنه الذى يقال له « ادريس الاصغر » كما يقال لكل منهما « صاحب البربر » لان جل من استجاب لدعوتهما وشد ازرهما من قبائل البربر – وكان ذلك فى عصر هارون الرشيد – وادريس الأكبر أو الاول ثانى اثنين من أولاد عبدالله بن الحسن المثنى افلتا من وقعة « فخ » المشهورة[2] ، اما أخوه وهو يحيى بن عبدالله الذى افلت معه من هذه الواقعة فيقال له « صاحب الديلم » لخروجه على الرشيد فى بلاد الديلم[3] وان خاب يحيى فى حركته بخلاف أخيه

---

(١) راجع عن سيرة ادريس هذا تاريخ الطبرى (٢٤/٩ – ٣٢) ومروج الذهب (١٨٣/٢ – ١٨٤) ومقاتل الطالبيين ط النجف (٣٢٤ – ٣٢٧) والكامل (٣٦/٦ – ٣٨) والعبر (١٢/٤ – ١٤) والبيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب لابن عذارى المراكشى ط ليدن (٨٢ – ٨٤ ، ١١٠ – ١١٥) ، وفى هذا الفصل اخبار الادارسة من بعد دخولهم الى المغرب ، وراجع ايضا نفح الطيب للمقرى (١٢٤/١ – ١١٧) وكتاب الاستقصا لدول المغرب الأقصى للسلاوى ط مصر (٦٧/١) وما يليها ، ومنهج المقال للاسترابادى ط طهران وقد عده فى أصحاب جعفر بن محمد ، ولاحظ اختلاف الروايات فى تاريخ خروج الادارسة .

(٢) واقعة « فخ » من اشهر الوقائع فى صدر الدولة العباسية بين العباسيين وبنى الحسن وانصارهم وقعت سنة ١٦٩ ، ورد ذكرها فى كثير من كتب الاخبار والتاريخ والانساب ، تجد تفصيلها فى الكامل لابن الاثير (٢٦/٦ – ٢٨) أما صاحب فخ فهو الحسين بن على بن الحسن المثنى خرج فى أيام الهادى العباسى وتغلب عليه عسكر العباسيين فى « فخ » فقتل وقتل معه جمهرة من أهله وأبناء عمه العلويين ، ويروى له ابن الاثير (الكامل ، ٣٨/٦) نادرة من نوادره فى الكرم والسخاء ، ومما هو جدير بالذكر ان صاحب فخ أراد الامام موسى بن جعفر على البيعة فرده ونهاه وأخبره بمقتله كما فعل أبوه جعفر بن محمد مع غيره من بنى الحسن فكان كما قالاه وأخبرا به ، أنظر فى هذا الشأن « باب تفصيل المحق من المبطل فى الامامة » من كتاب الكافى (١٨٥) ، أثارت وقعة فخ حماسة الهادى بن المهدى – وكان شاعرا – فأنشأ فيها أبياتا يراجع عنها معجم الشعراء للمرزبانى (٣٧٩) .

(٣) ومما هو جدير بالذكر ان ملوك طبرستان والديلم وجرجان ومازندران والطالقان ملكوا تلك الأقطار أكثر من مائة وثلاثين سنة بعد ذلك ، وخطب لهم على المنابر وضربت بأسمائهم النقود وحاربوا الدول وقادوا الجيوش وأحدثوا ما أحدثوه من الآثار ينتمون على الأكثر الى زيد بن على وبعضهم الى غيره من أولاد الامام الحسين . وجلهم على مذهب الزيدية ، أنظر عن ذلك شرح نهج البلاغة (٤٨٦/٣ – ٤٨٧) وكتاب غاية الاختصار (٦٦ – ٦٧ ، ٧٨) وراجع عنهم مقاتل الطالبيين .

ادريس وابنائه الذين حالفهم التوفيق فى تكوين الدولة الادريسية .

خيبـة صـاحب الديلم :

تيسر للرشيد احباط حركة يحيى لوقوعها فى اقليم غير بعيد عن العراق ، وشتان بين البلاد التى ظهر فيها ادريس - وهى مراكش - وبين بلاد الديلم من هذه الناحية ، لذلك لم يستطع ان ينشأ ملكا أو دولة كالتى أنشأها الأدارسة .

كذن ساعد الرشيـد فى احباط حركة صاحب الديلم الناجمة فى المشرق وزيره الفضل بن يحيى ، وهو وزير عرف بحنكته وكياسته واجتنابه سفك الدماء وميله الى حل المعضـلات سلميا ، فلما ندب الرشيـد وزيره المذكور الى قتال هذا العلوى الثائر استـماله وأقنعـه بالتسليم بشـروط ، منها أخـذ الأمان له بخط الرشيـد فى حادثة مشهورة (١) يظهر منها ان يحيى عاش فى عاصمة الرشيد بعـد تسليمه عيشـة امرائها المرفهين مدة ثم مات مسموما ، وفى رواية ابن الأثير حبسه فمات فى الحبس بعـد أن أفتـاه بعض فقهائه بأن أمـانه منقوض (٢) ، هذا وليحيى بعـد ذلك ضلع فى التأريخ والعلم بالأنسـاب والأيام ، ومناظـراته مع بعض خصومـه فى مجلس الرشيد تدل على ذلك (٣) .

ولصاحب الديلم حـديث مع الامام موسى بن جعفر فى الموقف الذى يجب أن يقفه العلويون من الدولة العباسية فى هذا العصر ، وقد تبودلت بينهما رسائل طريفة (٤) وهذه الرسائل صريحة جدا فى الخلاف الناشب بين هذين البطنين من العلويين فى هذا الباب ، وقد نهاه فيها الامام موسى بن جعفر عن الخروج على هارون الرشيـد وأوصاه بالاخلاد الى السكينة ، ويقول أحد شراح اصول الكافى (٥) : يكثر الزيدية من الثناء

---

(١) قف على أخبـار يحيى هـذا فى كتاب الـوزراء للجهشيارى (١٨٩) وتأريخ الطبرى (١٠/٨٤ - ٨٩) والمقاتل (٣٠٨ - ٣٢٤) وشرح ابن أبى الحديد (٣/٤٨٨) والكامل (٦/٥٠) ، ووفيات الاعيان (١/١٥٨) ط باريس .

(٢) انظر عن جمع الفقهاء بأمر الرشيد واستفتائهم فى صك الأمان واختلافهم فى الحكم كتاب المقاتل لأبى الفرج ط النجف (٣١٩ - ٣٢٠) ، والكامل (٦/٥٠) .

(٣) يرجع فى هذا الباب الى المقاتل (٣١٦ - ٣٢٠) والى شرح النهج لابن أبى الحـديد (٤/٣٥٢) .

(٤) أورد الكلينى نص هـذه الرسـائل فى أصـول الكافى بأب تفصيل المحق من المبطل فى الامامة » (١٨٥ - ١٨٦) .

(٥) يراجع فى هذا الباب شرح اصول الكافى على هامش الكتاب المذكور (١٨٢) .

على يحيى ويروون أنه فيمن أوصى اليه جعفر بن محمد بعد ابنه موسى الكاظم ، وليحيى ذكر فى بعض معاجم الرجال وأصحاب الحديث(١) .

ورثة الحضارة الأندلسية :

بدأت دعوة الأدارسة فى مراكش أو المغرب الأقصى سنة ١٧٠ ، وفى قول بعد ذلك بقليل ، وجل انصارها من البربر الذين استجابوا لدعوة ادريس الأكبر (٢) ثم بايع البربر ابنه ادريس الأصغر ، وهو اول من بويع بالخلافة من بنى ادريس بيعة عامة فى البلاد المذكورة (٣) ، وقد خلفه من خلفه من ابناء ادريس الأكبر واحدا واحدا ، والخلاصة : عبثا حاول الرشيد وأد هذه الحركة الادريسية بدس السم لادريس الأكبر فان أولاده خلفوا أباهم فى تلك البلاد فعاشت هذه الدولة رغم ارادة بنى العباس ، ويقول ابن بسام (- ٥٤٢) - فى معرض ذكره لبنى الحسن واسباب خروجهم الى المغرب ما هذا نصه - « بلغنى ان عقبهم الى اليوم هنالك » (٤) .

لا شك ان الدولة « الحسنية » القائمة الآن فى مراكش وعاصمتها « الرباط » هى دولة ادريسية لأن ملوكها من ذرية الأدارسة ، وامارة الأدارسة المعروفة أخيرا فى عسير شرقى اليمن انشأها بعض ذرارى الأدارسة المعروفين فى البلاد المغربيه وكانت بين بنى الحسن فى المغرب وبنى الحسن فى المشرق - وهم أئمة الزيدية فى اليمن - مراسلات .

مقارنة بين الدولتين الفاطمية والادريسية :

عاشت دولة الأدارسة مدة تناهز مائة وثمانين سنة ، وقد ناوءت الدولة الفاطمية

---

(١) ذكره الشيخ الطوسى فى فهرسته والاسترابادى فى منهجه ولم يذكره العلامه فى خلاصته .

(٢) توفى ادريس بسم دسه اليه الرشيد على يد أحد الزيدية من الفرقة البترية ودفن فى جبل « زرهون » المطل على مكناسة ، وفى تأريخ وفاته بعض الاضطراب ، انظر عن كيفية سمه كتاب الفرق بين الفرق (٢٤) .

(٣) فى تأريخ وفاته اقوال مضطربة قد يعزى بعضها الى تحريف النساخ ، وقد أورد ابن الأثير وفاته فى حوادث سنة ٢١٤ قائلا : « وفيها توفى ادريس بن ادريس ابن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب عليه السلام بالمغرب وقام بعده ابنه محمد بأمر مدينة فاس فولى اخاه القاسم البصرة - بصرة المغرب - وطنجة وما يليها واستعمل باقى اخوته على مدن البرابرة .

(٤) الذخيرة (ق١/م١/٧٨) .

الاسماعيليه هؤلاء الأدارسة فى أواخر أيامهم واستولى القائد جوهر على عاصمتهم فاس سنة ٣٤٧ ، وكان الفاطميون أنبه ذكرا وأبعد مغزا حتى أن دولة الادارسة التى استولت على المغرب كانت خاملة الذكر بالنسبة اليهم ، ومرد ذلك الى انزواء الأدارسة فى المغرب الأقصى واقتصارهم على الدفاع عن انفسهم ومملكتهم وخوفهم من بنى العباس بخلاف دولة الفاطميين التى غزت المشرق وهددت بنى العباس فى عقر دارهم وأزالت دولتهم من مصر والشام ، الى غير ذلك مما لم يحلم به الأدارسة ، ومع ذلك لا ينكر فضل هؤلاء الأدارسة على المغرب الأقصى أو مراكش ، ففى عهدهم قطعت هذه البلاد شوطا بعيدا فى مراحل الحضارة ، ومن مظاهرها تأسيس المدن الكبيرة .

لا شك ان المدن الكبرى فى المغرب الأقصى - وفى مقدمتها « فاس » وهى مدينة الأدارسة ، « ومكناس » و « سلا » و « تطوان » وغيرها من آثارهم أو ملحقات مملكتهم - تعد وارثة الحضارة الاسلامية فى الأندلس ، وأهلها - أعنى أهل هذه المدن المغربية - يمثلون مسلمى الأندلس فى عاداتهم وأطوارهم وثقافتهم ، وتعد مدينة فاس [١] معقل الثقافة الاسلامية فى المغرب وبه جامع القرويين المشهور يؤمه طلاب العلم من سائر انحاء البلاد .

البربر ودعوة الاسلام :

الى هؤلاء الأدارسة يعود قسط كبير من الفضل فى نشر دعوة الاسلام بين قبائل البربر حتى أصبحت من أشد قبائل المغرب الأقصى شكيمة وأحسنها بلاء فى الدفاع عن بيضة الاسلام ، وكان اكثرهم على غير ملة الاسلام [٢] لأن المسلمين الفاتحين - قبل ذلك - كانوا يلمون بقبائل البربر المامة فى طريقهم الى الأندلس ، ولما فر ادريس الاكبر فى خلافة الرشيد أقام فى بلادهم وتزوج اليهم وولد له أولاد كثر من أم بربرية اندمجوا هم وأحفادهم من بعدهم فى القبائل البربرية ، ويقول غير واحد من

---

(١) يفهم مما يكتب عن « فاس » فى أسفار البلدانيين انها تنقسم الى عدوتين - أى جانبين - الأولى « عدوة الأدارسة » وهى أقدم العدوتين ، والثانية « عدوة الأندلسيين » أسسها أهل ربض قرطبة اذ فروا من « الحكم الربضى » سنة ١٩٢ ، انظر عن ذلك البيان المغرب ط ليدن (١/٢١١ ، ٢٦٣) وانظر أيضا مادة « فاس » من معجم البلدان ، وكان الحكم المذكور سفاكا للدماء جاهر الأندلسيون بعداوته وعداوة بنى أمية وثاروا عليه غير مرة ، الكامل (٦/٧٥ ، ٨٠) .

(٢) الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى ط القاهرة .

المؤلفين والمؤرخين فى هذا الصدد - أى فى صدد اندماج أعقاب ادريس الأول فى قبائل البربر المذكورة «تبربر ولده»[1] ، وهم - أعنى هؤلاء الأدارسة المندمجين فى البربر - الذين قاموا بنشر الدعوة الى الدين الحنيف فى تلك الأقطار الشاسعة فأنشأوا دولتين من أشهر الدول الاسلامية فى تلك البلاد .

وفى سبب دخول البربر دين الاسلام رواية أخرى رواها بعض المؤرخين ، ومردها الى كاهنة بربرية غلبها المسلمون الفاتحون فى مستهل الفتح الاسلامى فأوصت أبناءها بالاسلام فأسلموا[2] ، وفى هذه الرواية ما يشبه الأساطير [3]، على اننا لا نشك فى أن للفاتحين الأولين شأنا كبيرا فى انتشار الاسلام بين القبائل البربرية ، وقد خلفت هذه القبائل دولة الأدارسة فى مراكش وما يليها من بلاد الأندلس وأسست غير دولة من دول البربر كدولة الموحدين وبنى مرين والمرابطين ولكنها لم تعش كما عاشت دولة الأدارسة ، ولبعض هذه الدول البربرية مواقف مشهورة فى الدفاع عن بيضة الاسلام فى الأندلس والنكاية بمن هاجمها من طغاة الفرنجة مثل ملوك أرغون وقشتالة [4] فى غرب البلاد الأندلسية ، وقد توارثت هذه القبائل - الى اليوم - ولاء أهل البيت والاخلاص لهم ، وما أكثر بيوت العلويين على اختلاف بطونهم فى مراكش والمغرب الأقصى ، وما زالوا يتمتعون بحرمة وافرة .

ثقافة الأدارسة :

قل من العلماء والباحثين فى « البلدان » من لا يعرف الشريف الادريسى صاحب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، ويعد هذا الكتاب من امتع ما ألفه البلدانيون المسلمون فى موضوعه، وللادريسى مصور جغرافى مشهور نشر باللاتينية والعربية ، ويعرف هذا الادريسى بالشريف الصقلى لأنه عاش فى « صقلية » وقد يقال له « القرطبى » لأنه درس فى قرطبة واختص بصاحبها « رجار » كبير « النورمان » الذى أنشأ بصقلية

(١) ابن قتيبة ونقله ابن بسام فى الذخيرة (ق١/م١/٧٨) ، ونفح الطيب (١/٢٢٤ - ٢٢٧) .

(٢) العبر (٣/٨ - ٩) ، ومن رأى السلاوى صاحب الاستقصا ان البربر أسلموا على يد ادريس بن عبدالله .

(٣) تجد مفصل خبر هذه الكاهنة أو الملكة وحروبها مع العرب فى البيان المغرب (١/٣٥ - ٣٩) .

(٤) العبر (٦/٢٨١) وأزهار الرياض (٣/٢٠٥) .

وما اليها من الجزر ملكا عريضا ودولة فرنجية قامت على أنقاض دولة بني الأغلب والدولة الفاطمية بعد ذلك ، وكان « رجار » المذكور ممن ورث عن قومه النورمان اعجابهم بنظم الحكم التى سارت عليها الدول الاسلامية بعد استيلائها على صقلية[١] ، وعني بمحاسنه المسلمين والاستفادة من علوم علمائهم أمثال صاحبه الشريف الادريسى[٢] وهناك أشراف ادريسيون يقال لهم : « آل الصقلى » اختصوا بصناعة الطب فى حاضرة القطر التونسى وتوارثوها خلفا عن سلف ، والغالب انهم من ذرية الشريف المذكور ، وأصل هذا البيت الادريسى من « سبتة » ثم من « مراكش » هجر بعضهم الى صقليه وبعضهم الى تونس والى غيرها من آفاق الأقطار المغربية .

هذا ومن أجل مؤلفات العالم الادريسى المذكور أو هو أجلها على الاطلاق كتاب علمي فى النبات سماه « جامع اشتات النبات » يورد فيه اسماء النباتات فى لغات عدة قد يوصلها الى أكثر من عشر لغات شرقية وغربية ، ومن هذا الكتاب يستنتج ان الادريسى حذق فى علم النبات والمواليد وعلوم الطبيعة والطب أكثر من حذقه فى ناحية الجغرافيه والبلدانيات ، والكتاب يدل على علم واسع وتحقيق بالغ ، وهو من المخطوطات النادرة[٣] ، والشريف الادريسى بالاضافة الى ذلك رحالة جاب آفاقا شرقية وغربيه غير قليلة كما تدل مؤلفاته التى طالعناها على ذلك وهو أيضا شاعر مجيد .

---

(١) انظر كيفية فتح صقلية على يد بنى الأغلب فى الكامل (٦/١٣٧ ـ ١٤٠ ، ٢٠٢ ، ٢١٣) وانظر عن ولاية بنى الاغلب على افريقية وأخبارهم البيان المغرب (١/٩٢ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٧ وما يليها ، ٣١٨) .

(٢) يؤثر عن ملوك صقلية والجزر الأخرى التابعة لها الواقعة بينها وبين الساحل الافريقى انهم عاهدوا المسلمين من أهل الجزر المذكورة وآمنوهم على دمائهم وأموالهم واحترموا كثيرا من حقوقهم وقربوا أعلامهم فأهدوا لهم المصنفات النفيسة وأجازوا شعراءهم ، وقد وثق النورمان بأمانة المسلمين الصقليين واتخذوا منهم الحرس والأعوان كما يشهد بذلك ابن جبير فى رحلته المعروفة ، وقد سيم الصقليون من أبناء صقليه سوء العذاب وعانوا ما عانوه من القسوة والاضطهاد فى عهد الجرمان بعد ذلك حتى اضطر جمهور كبير من مسلمي صقلية والجزائر الأخرى الى الهجرة واجتازوا البحر الى السواحل الافريقية ، وكانت بقايا آل الادريسى من بعض أولئك المهاجرين .

(٣) رأينا من « جامع اشتات النبات » نسخة خطية نفيسة فى مكتبة اللجنة الثقافية بالقاهرة ووصفناها فى احدى جلسات المؤتمر اللغوى فى دورته السابعة عشرة .

دولة بني حمود :

هى الدولة الثانية بعد الدولة الادريسية من دول بنى الحسن ، وهذه الدولة ـ أى دولة بنى حمود ـ الى ان تكون دولة اندلسية أقرب من أن تكون دولة مراكشية ، وحمود الذى تنتمى اليه هذه الدولة من أعقاب ادريس بن عبدالله بن الحسن المثنى السالف الذكر [١] ، والواقع أن روايات المؤرخين فيما يتعلق بدولة بنى حمود فى الأندلس لا تخلو من غموض واضطراب بل من تناقض فى كثير من الأحيان ، وقد مهد لظهور هذه الدولة الحمودية فى الأندلس انحلال الدولة الأموية فى قرطبة وغرناطة واشبيلية ، وهو انحلال نشأ عن الفساد والثورات والحروب الداخلية ، وبعضها حروب تشيب لهولها الولدان مثل واقعة « الربض [٢] » ، وتأريخ القرطبيين والاشبيليين ومن اليهم من الأندلسيين حافل بمناوءة السلطات الحاكمة ، هذا من جهة كما انه حافل من جهة أخرى بمظاهر الشدة والقسوة من الامويين ، ومن ذلك توالت الفتن والحروب بين الفريقين .

ملك بنو حمود جبل طارق ومالقة وأجاز من أجاز منهم العدوة الى الأندلس مع شيعتهم من البربر وحاربوا الأمويين فى تلك البلاد وانتزعوا الملك منهم ، وعلى يد

---

(١) تجد سياق نسبه الى ادريس فى الذخيرة (ق١/م١/٧٨) ، ومن أوفى المراجع واتقنها عن دولة بنى حمود « المعجب فى تلخيص اخبار المغرب » ط القاهرة ، ذكرهم فى دول الأندلس وأشار الى أولية بنى حمود وسمى أمراءهم (٤٩ ، ٥٢ ، ٦١ ، ٦٩) ، والعبر لابن خلدون (٤/١٥٤ ـ ١٥٥ و ٦/١٤٦) والذخيرة لابن بسام (ق١ /م١/٤٧ ، ٧٠ ، ٧٣ ـ ٧٨ ، ٢٧١ ـ ٢٧٣) و (ق١/م٢ من هذا الكتاب /١٢ ـ ١٨ ، ٤٠١) ، والبيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب (١/١٩٩ ، ٢٣٣ ـ ٢٣٦) ولا تخلو رواية ابن عذارى صاحب المغرب من خلط واضطراب فى هذا الشأن ، وكتاب « المرقبة العليا لمن يستحق المرتبة العليا » للمالقى الأندلسى ط مصر (٨٧ ، ٩٤) ، ونفح الطيب « ١/٢٠١ ـ ٢٠٣ ، ٢٢٤ ـ ٢٢٧) .

(٢) واقعة « الربض » من أشهر وقايع الأندلس فى دولة الحكم بن هشام الاموى ، وفى مقدمة المؤرخين الذين بلغوا الغاية فى وصفها وفى وصف غيرها من وقايع الحكم بالاندلسيين ابن الأثير فى الكامل (٦/٧٩ ـ ٨١ ، ١٢٢ ـ ١٢٣) وقد عاد ابن الأثير بعد ذلك فأثنى على الحكم المذكور ووصفه بالحزم والشجاعة وأنه هو الذى مهد الملك لعقبه فى الديار الأندلسية ، انظر (١٥٥) من كتابه المذكور ، ولاحظ اختلافهم فى تأريخ واقعة الربض المذكورة .

بنى حمود زالت الدولة الاموية من قرطبة واشبيلية وغلبت دعوتهم على كل دعوة وبويع غير واحد منهم بالخلافة ، وأول من بويع منهم بالخلافة فى قرطبة ولقب الناصر لدين الله ولم يتخلف أحد عن بيعته « على بن حمود » فى مستهل القرن الخامس ، ويلاحظ ان بنى حمود استندوا فى تكوين دولتهم الأندلسية على حزب قوامه البربر والمغاربة المراكشيون وهو الحزب الذى استند اليه أجدادهم الأدارسة فى تكوين الدولة الادريسية ، كما مر . ومن هذه الناحية لم يكن مفر من تأصل العداوة بين البربر وأمويى الأندلس على توالى الايام ، وكانت الوقائع بين الفريقين تترى فى المغرب وما اليها من بلاد الجزيرة كما يبدو لنا من مطاوى التأريخ (١) ، ومن ذلك يتضح ان البربر أمة ذات كيان خاص تعتز به وتحرص على بقائه .

عاشت الدولة الحمودية الى منتصف المائة الخامسة ، ولا حاجة الى القول بان هذا العصر هو العصر الذى تبربر فيه الحموديون - كما تبربر قبلهم الادريسيون - فلم يعد هناك فرق بين الادريسى او الحمودى وبين البدوى البربرى لغة وزيا وطباعا الى غير ذلك بل عنى غير واحد من مؤرخى المغرب بالاشارة الى هذه العجمة التى غلبت على السنة بنى حمود فى المغرب والأندلس حتى أصبحت البربرية لغة ثانية وربما تغلبت على العربية(٢) .

مشاهير بنى حمود :

أشهر مشاهير بنى حمود الذين ملكوا قرطبة وما اليها ثلاثة ؛ على وأخوه القاسم ابنا حمود ويحيى بن على ، وعلى أشهر بنى حمود قاطبة(٣) ، وقد نوه المؤرخون بسطوته وسخائه وشجاعته وسيطرته على البربر كافة وأنه استمال أهل قرطبة بعدله وحذوه فى بعض سيرته حذو الصدر الأول فجلس للمظالم بنفسه وانتصف من الظالم للمظلوم على ما يقول بعض المؤرخين(٤) ، والواقع ان سيرته لا تخلو من شذوذ

(١) يرجع فى هذا الباب الى الكامل (٦/ ١٧٠) .

(٢) الذخيرة (ق١/م١/٧٨) ، ونفح الطيب للمقرى (١/ ٢٢٥) .

(٣) انظر عن كيفية بيعته وعن سطوته وأمارته الذخيرة (ق١/م١/٧٨ - ٧٩) ، وتجد نبذة عن سيرة الأمير على بن حمود وعن مدة ملكه فى المصدر المذكور (٨٣) ، وفى كتاب « المرقبة العليا فيمن يستحق المرتبة العليا » وهو تأريخ قضاة الأندلس للمالقى الأندلسى (٨٩) .

(٤) الذخيرة (ق١/م١/٥٢) .

واضطراب بين صلاح وفساد وجور وانصاف ورضا وسخط [1] الى ان قتله بعض مماليكه من الصقالبة فى قرطبة سنة ٤٠٨ [2] .

كان الناصر على بن حمود حسبما يقول المقرى [2] على عجمة فيه يصغى الى الشعر ويثيب عليه [3] وله شعراؤه المختصون به وحسبك من هؤلاء ابن دراج القسطلى الذى كان يراسله نظما ونثرا ، ويظهر من أقوال ابن بسام ان ابن دراج الشاعر الأندلسى المشهور كان ادريسى العقيدة ومن أولياء بنى حمود ، وقد أطلق على بعض قصائده التى أنشأها فى مدح الأمير على اسم « الهاشميات » ، ومنها قصائد اعجب بها أبو الحسن بن بسام ونشرها فى الذخيرة [4] .

اسباب سقوط دولة بنى حمود :

استطاع الناصر على بن حمود بماله من سلطان ان يجمع كلمة البربر من حوله ، وما ان قتل فى قرطبة حتى فتن أنصاره البرابرة وانشقت كلمتهم فمال بعضهم الى أخيه القاسم بن حمود وكان واليا على اشبيلية ، ومال قوم من البربر وهم الأكثر الى ابنه يحيى بن على [5] وكان واليا على سبتة وتوالت الفتن بين يحيى وابن أخيه القاسم وتداولا قرطبة غير مرة ، وقد أشار المقرى وغيره من المؤرخين الى نتائج الانشقاق الذى استشرى بين بنى حمود ثم عصف بالدولة الحمودية بعد ذلك [6] ، ومجمل القول كانت هذه الفتن المستمرة بين بنى حمود أنفسهم بعد مقتل الأمير على علة العلل فى سقوط دولتهم المذكورة على يد بنى عباد أمراء اشبيلية وبنو عباد هم الذين قتلوا يحيى بن حمود فى وقعة طاحنة ، ويلاحظ انتهاك المحارم وضعف الوازع الخلقى والدينى فى بنى عباد

---

(١) الذخيرة (ق١/م١/٨٢) .

(٢) المأخذ المذكور (٨٣) ، ونفح الطيب (١/٢٢٥) .

(٣) نفح الطيب (٣/٢٢٥) .

(٤) الذخيرة (ق١/م١/٤٧ ، ٧٠ ـ ٧٣) وانظر عن أحمد بن دراج القسطلى اليتيمة للثعالبى (٢/٩٠) والقسم المذكور من الذخيرة .

(٥) يحيى بن على هذا من أشهر ملوك بنى حمود فى اشبيلية وقرطبة وقد اثنى عليه صاحب الذخيرة ثناء بالغا ، وكان الوزير الكاتب ابن شهيد من المختصين به وله فيه أشعار ومدائح قف على ذلك فى القسم المذكور من الذخيرة (٢٧١ ـ ٢٧٣) وانظر عن ابن شهيد الكتاب المذكور (١٦١ ـ ١٧٠) .

(٦) نفح الطيب (٣/٢٢٥ ـ ٢٢٨) .

وتحللهم من القيود الشرعيـة[1] ، وهكذا مرج الأمر فى الأندلس وانتقـل السلطان من ملوك الجماعة الى ملوك الطوائف[2] بنى عباد وبنى جهور ، كانت خصومة ملوك الطوائف فيما بينهم اعنف واشد من خصومتهم للفرنجة وللاسبانيين الواقفين للاندلسيين بالمرصاد بل كانوا لا يحجمون عن التحالف مع هؤلاء الطواغيت المجاورين لهم ليأمنوا شرهم فى هذا النزاع القائم بينهم وبين بنى حمود وغيرهم من أمراء الأندلس وهكذا تطغى الأنانيـة وتغلب الأحقـاد الجـاهلية وهـكذا فقـد سلموا الأندلس ذلك الملك العريض وفقـدوا معه الكرامة والاستقلال واكره من بقى منهم فى البلاد على الخروج عن دينهم بعـد ذلك ، ولم يطل الأمر بأمراء الطوائف هـؤلاء حتى خضعت الأندلس لدول بربرية ناشئـة من مرابطين[3] وموحدين[4] ومرينيين الى ان طـوى بسـاط الدول البربرية المذكورة •

مصير الأمير عيسى بن موسى :

هؤلاء هم بنو الحسن الذين شردهم العباسيون وقتلوا من قتلوا منهم فى صدر دولتهم على يد أمرائهم وقادة جيوشهم ، وفى مقدمتهم الأمير عيسى بن موسى وابنه ، ويحسن بنا الآن ـ وقد فرغنا من البحث فى شؤون بنى الحسن ـ أن ننتقل الى البحث عن مصير هذين الأميرين فى الدولة العباسية •

تولد مع كثير من الدول آفاتها التى تجهز عليها يوما ما ، ولا يستثنى من ذلك دولة بنى العباس فقد ولدت مع هـذه الدولة غير آفة منها • نذكر من بينها الأنانية والأثرة والطمع وهى آفات تفضى أولا الى احن وضغائن ثم الى شقاق وانقسام وبعد ذلك الى حروب وسفك دماء بين ذوى القربى ، فاذا تنازع المتنازعون من هؤلاء فيما بينهم واذا قتل بعضهم بعضا خرج الأمر من أيدى الجميع غالبا • اعتبر ذلك بما جرى فى الدولة الاموية فما اندفع الهاشميون الى الثورة عليها الا بعد مقتل الوليد بن يزيد ـ المعروف بالناقص ـ

---

(١) الذخيرة (ق١/م١/٥٧٣) •

(٢) يعتبر انحلال الدولتين الأموية والحمودية الهاشمية فى الاندلس بداية لعصر ملوك الطوائف •

(٣) بدأ عصر المرابطين فى سنة ٤٦٢ وانتهى بانتصار الموحدين عليهم فى سنة ٥٤٢ •

(٤) تبتدأ دولة الموحدين فى المغرب سنة ٥١٤ وتنتهى سنة ٦٦٨ ، وهي من الدول التى امتد سلطانها الي الديار الاندلسية •

بأيدى أهله أنفسهم ، وفى هذا الصدد يقول عبدالله بن الحسن : « لم نزل نسمع ان هؤلاء القوم اذا قتل بعضهم بعضا خرج الأمر من أيديهم وهاهم قتلوا صاحبهم - يعنى الوليد - فهلم نبايع محمدا فقد علمتم أنه المهدى »[1] ، واعتبر بعد ذلك بما جرى فى الدولة العباسية - من ايثار الابناء والاخوان واستبعاد غيرهم من ذوى القربى وان كانوا أحق بولاية الأمر من بعدهم - وكيف انشق العباسيون بمجرد الانتهاء من تصفية الحساب مع الامويين وكيف ثار بعض العباسيين على بعض واتهم وعاقب بعضهم بعضا بأشد العقوبات ، ولا يستثنى منها القتل ، فهذا أبو العباس السفاح آثر أخاه أبا جعفر لانه ابن أبيه واستبعد عمه عبدالله بن على مع انه يستند الى عهد يدعى ان السفاح قطعه له[2] ، ولو كان للسفاح ولد جامع لشرايط البيعة عندهم لآثره فيما نرى على أخيه ، وهذا أبو جعفر المنصور حرم منافسيه من أعمامه وابنائهم وحرم غيرهم من الهاشميين من منصب الخلافة فانحصرت فى نسل محمد بن على بن عبدالله بن عباس دون غيره وتوارثوها خلفا عن سلف أولهم السفاح وآخرهم المستعصم ، أى من حين قيام الدولة الى زوالها فى مدة أربت على الخمسة قرون ، ولا تنكر جهود داهية بنى العباس فى هذا الشأن ، ولا نبالغ اذا قلنا انه احد دهاة التأريخ على الاطلاق .

لنا أن نقول ان ولاية العهد هذه زجت الدولة بكثير من الازمات السياسية والفتن الدامية من مستهل حياتها الى أواخر أيامها وجلبت عليها ماجلبت من مظاهر الضعف

---

(١) وردت هذه الكلمة فى خطبة لعبدالله ألقاها على مؤتمر حضره الهاشميون فى ذيل الدولة الاموية ، تجدها فى مقاتل الطالبيين ط النجف (١٧٦) .

(٢) استند عبدالله بن على فى الدعوة الى نفسه وانكار بيعة المنصور واعلان الثورة عليه الى عهد ادعى ان السفاح قطعه له ، والقصة مروية فى أشهر كتب التأريخ وخلاصتها ان السفاح آلى على نفسه ان يعهد بالأمر من بعده لمن يظفر بعميد الامويين مروان بن مروان ، وقد حقق عبدالله بن على هذا الظفر للعباسيين فى واقعة الزاب فهو بطل هذه الواقعة غير مدافع ، وهو اذن ولى عهد السفاح الخليق بالبيعة من بعده ، والواقع ان الروايات فى هذا الصدد ليست قاطعة ، والمرجح صدور وعد عام من السفاح فى هذا الشأن ثم حدث ما اوجب العدول عنه ، انظر فى هذا الباب تأريخ الطبرى (٩/١٥٦) والمروج (٢/١٦٧) ط الأزهرية ، وفى رواية المسعودى ما يدل على تقدير السفاح لجهاد عمه حق قدره وانه لا يستكثر عليه ولاية العهد لولا أخوه المنصور ، وراجع الكامل (٥/٢٢٠ - ٢٢١) وذيل الصفحتين (٤١ ، ٤٢) من هذا الكتاب .

والوهن ، وقد شهد عصر آبى العباس السفاح أول آزمة من هذا القبيل مردها الى تعدد الأمراء الاكفاء المتنافسين على السلطان من بعده فكان يقارن ويوازن بين بعضهم ويتحدث الى بعض خاصته بذلك الا ن هوى الخليفة ـ فى الحقيقة ـ لم يعد المنصور أخاه ، ولذلك كان معنيا بالبحث عن مخرج من هـذه المشكلة السياسية وقـد استوحى عبر التأريخ فاذا الحكمة واذا المصلحة لاتعدو ايثار أخيه واذا العثرة التى لا تستقال واذأ الخطأ الفاحش لا يعدو اشراك عمه فى الولاية ، ولم يستلهم السفاح عبر التأريخ هذه الا من حديث تحدث به اليه أبو جعدة بن هبيرة المخزومى أحد سمار الملوك وندمائهم فى العصر المذكور ، والحديث فى جملته يدل على عناية بالغة من الامويين والعباسيين بايثار ابنائهم واخوانهم بولاية العهود فى أغلب الاحيان (١) ، فالملك عقيم تقطع بسببه الارحام وتنكث العهود والايمان ، والسياسة مصلحة والحق فيها للقوة ، وعلى ذلك شهادة التأريخ تأريخ بنى امية وتأريخ بنى العباس وتأريخ كثير من الدول فى القديم والحديث ، فاذا ما أديل للقوى الغالب من الضعيف المغلوب مال الناس الى تأييد القوى بالحق والباطل وأسرفوا فى تقريع المغلوب واطراء الغالب وأفرطوا فى الملق والدهان وشوهوا الحقايق وأدخلت السياسة أنفها فى شؤون العلم وفى شؤون التأريخ ، وما دخلت السياسة شيئا الا أفسدته ، ومن هذه الناحية شك من شك فى صحة كثير من الاخبار والروايات ، ومن ههنا نسب ما نسب من الخلط والتلفيق الى كثير من المؤرخين :

---

(١) جاء فى حديث المخزومى ما هذا نصه : « كنا مع مسلمة بن عبدالملك عام الخليج فى القسطنطينية اذ ورد عليه كتاب عمر بن عبدالعزيز ـ ينعى سليمان بن عبدالملك ومصير الأمر اليه ـ أى عمر بن عبدالعزيز ـ فرمى الى بالكتاب فقرأته ثم اندفع يبكى فقلت : أصلح الله الأمير لا تبك على أخيك ولكن ابك على خروج الخلافة من ولد أبيك الى ولد عمك فبكى حتى اخضلت لحيته » ، ثم قال المخزومى فى آخر هذا الحديث : « لما فرغت من حديثى قال أبو العباس السفاح : « حسبك قد فهمت عنك » ومعنى ذلك ان السفاح تأثر تأثرا بالغا بالحديث المذكور ، وهو يدل على ان مصيبة مسلمة ابن عبدالملك بانتقال الولاية الى عمر بن عبدالعزيز اعظم من مصيبته بنعى أخيه سليمان • تجد أخبـار المخزومى ونص حديثـه هـذا فى مروج الذهب للمسعودى (٢/١٥٣) ومما هو جدير بالذكر ان المخزومى المذكور كان أحد وزراء بنى أمية الا أنه ترك خدمة الأمويين الى العباسيين عند ظهورهم فى العراق ، وهو من ولد جعدة بن هبيرة المخزومى من فاختـة أم هانىء بنت أبى طالب ومن هـذه الناحيـة كانت صلتـه بالطالبيين فالطالبيون أخوال أبى جعدة بن هبيرة المذكور •

والناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهى ولام المخطىء الهبل

نقد كثير من المؤرخين بل نددوا بالنظام الذى راعاه الامويون والعباسيون بعد ذلك بشأن ولاية العهد وعقدها لاكثر من واحد من ابنائهم وذويهم • فانه نظام لم يحترم فى كثير من الاحيان ولم يطبق ، والعبرة فى التطبيق بل أفضى الى ضروب من الاحن والمحن ، وقد مر بك ما كان من سياسة السفاح فى ايثار أخيه ثم ما ترتب على ذلك ، وهذا المنصور ينهج منهج السفاح فى سياسته فيؤثر ابنه المهدى ويستنزل الامير عيسى بن موسى عن ولاية العهد من أجله ، وهذا المهدى يحذو حذو ابيه فيؤثر ابنه الهادى على الامير المذكور وينسج الهادى على منوال أبيه وجده فيحاول استنزال هارون الرشيد عن ولاية العهد لابنه جعفر مع ان البيعة اخذت للرشيد فى حياة أبيهما المهدى ولكن الهادى لم يفلح فى محاولاته لقصر أيامه ، ولو امتد به العمر لتمكن من حرمان الرشيد ولتغير بذلك على الارجح تأريخ الدولة العباسية(١) •

جاء دور الرشيد بعد الهادى فخلع جعفرا ولى عهد اخيه وعهد بالامر الى الامين والمأمون والمؤتمن ابنائه فحدث ماحدث من جراء ذلك بين الاخوين •

هكذا ادى الاخلال بميثاق واحد الى سلسلة من نقض العهود والمواثيق ، وقد لاحظ ذلك المؤرخ البارع جمال الدين بن تغرى بردى فقال بعد اشارته الى عهد الرشيد لاولاده الثلاثة ما هذا نصه : « وهذا من العجائب لان الرشيد رأى ما صنع أبوه وجده بعيسى بن موسى حينما خلع عيسى نفسه من ولاية العهد ثم ما صنع آخوه الهادى به ليخلع نفسه ثم هو ـ اى الرشيد ـ يبايع للمأمون بعد الامين حتى وقع بعد موته ما فيه عبرة لمعتبر »(٢) •

هذا وفى تأريخ العباسين بعد العصور المذكورة امثلة من هذا النزاع وصور من العبث بالوصايا والعهود ، من اشهرها ما وقع بعد وفاة الواثق بن المعتصم ، فقد مات

---

(١) تجد محاولة الهادى فى خلع أخيه الرشيد واخذ البيعة لابنه جعفر وسعى البرامكة فى صده عن ذلك فى تأريخ الطبرى (١٠/٣٤ ـ ٣٨) والمروج (٢/٨٦ ـ ٨٧) والكامل (٦/٤٠ ـ ٤١) ويلاحظ ان هرون الرشيد الذى حاول أخوه خلعه هو الذى أخذ البيعة لأخيه الهادى اذ كان بعيدا عن العراق •

(٢) النجوم الزاهرة (٢/٩٨) •

عن ولد قاصر لا تصح بيعته فاختلف رجال الدولة وشجر النزاع بين ذوى الحل والعقد فيمن يرشحون للبيعة ، فمنهم من مال الى مبايعة ذلك الامير الصغير ليسهل لهم التغلب عليه الا ان بعض رجال الجيش اعترضوا على مخالفة هذه البيعة للسياسة الشرعية ، ومن هاهنا عدل القوم الى مبايعة المتوكل بعد منازعات ومشادات .

آفات وكوارث أخرى :

وقد قتل المتوكل ـ كما لا يخفى ـ أقدم على قتله ابنه المنتصر ، وقد استند المنتصر لدى الفتك بأبيه على فتوى صدرت من بعض فقهاء عصره صرحوا فيها بسوء مذهب أبيه كما رواه المؤرخون (١) ، وقد بويع المنتصر بعد اختلاف ونزاع بينه وبين اخوته على الولاية ـ فى حياة أبيه ـ والمشهور ان الفتح بن خاقان وزير المتوكل كان يضلع مع اخوة المنتصر فقرروا خلعه لانه أرشد وأجلد بنى أبيه (٢) .

يعتبر مقتل المتوكل أول حادثة من نوعها تقع فى الدولة العباسية ولا توازيها حتى الحادثة التى قتل فيها الامين اذ لم يجرأ الموالى والمماليك على قتل خليفتهم كما وقع هذه المرة ، وفى وسعنا ان نحصى أعظم المحن والفتن الكبرى التى هزت كيان الدولة العباسية على الصورة الآتية :

١ ـ فتنة الاخوين التى قتل فيها الأمين بسبب النزاع على ولاية العهد والبيعة .

٢ ـ غلبة الموالى وسيطرة المماليك ، وجلهم من الأتراك على الدولة العباسية بعد مقتل المتوكل .

٣ ـ استيلاء الديالمة والسلاجقة بعدهم على دار الخلافة ، وبذلك تجردت الدولة العباسية من سلطانها السياسى وانحصرت وظائفها فى شؤون روحية بحتة ، وكان عدد من الخلفاء فى عصر الديلم والسلاجقة كالمساجين داخل أسوار دار الخلافة وفى حريم تلك القصور ، وليس من النادر سمل العيون وازهاق الأرواح ، الى غير ذلك من فنون التنكيل والتعذيب ، وهو أسوأ ما منيت به الدولة العباسية فى تأريخها الى ذلك الحين ، وكل واحدة من هذه الكوارث تكفى فى الواقع لمحو دولة كبرى ولكن الدولة العباسية كانت تلوذ بسياج الاسلام والخلافة الاسلامية ، وهذا

---

(١) الكامل (٧/٣٥ ـ ٣٦) .

(٢) المصدر المذكور (٣٩ ، ٤١) .

سياج لا يسهل اقتحامه فى كثير من الاحيان •

مقارنات تأريخية :

ولنا ان نعتبر سيطرة الديالمة وبنى سلجوق على دار الخلافة انكى وأمر من سيطرة الموالى والأتراك قبلهم ، ويبدو لنا ان سلطة العباسيين فى فترة هؤلاء الموالى كانت أعظم وحرمتهم ـ على علاتها ـ كانت أوفر لان هؤلاء الأتراك الثائرين لم يكونوا دولة مستقلة ذات سيادة بخلاف الديالمة ومن بعدهم السلاجقة ، وما ابعد الفرق بين الموالى والاتباع والدول المستقلة ، ومجمل القول : كان لديوان الخلافة فى فترة غلبة الموالى أو الأتراك سلطته واستقلاله وبهاؤه الى حد ما بل كان النقض والابرام والنصب والعزل وكانت الأوامر والنواهى تصدر من ديوان الخلافة وتنفذ بواسطة هؤلاء المماليك من الأتراك ورجال الجيش ، وفى هذه الفترة كان غير واحد من الخلفاء العباسيين يقود الجيوش ويسير فى مواكب رائعة كما كان بعضهم يجلس للنظر فى المظالم ويحكم بين الناس ويتشبه فى سيرته بسيرة بعض الراشدين ، ومن اشهرهم فى ذلك المعتضد والمهتدى والمعتز والمستعين وآخرون من القوم(١) ، الى هذا ونحوه مما لم يكن له أثر فى ديوان الخلافة بعد ذلك أى بعد استيلاء الديالمة والسلاجقة •

فرج موقوت :

ويلاحظ ان الدولة العباسية تنفست الصعداء فى الفترة الواقعة بين أواخر عصر الدولة السلجوقية وظهور المغول اذ استعاد فيها بعض الخلفاء المتأخرين سلطانهم واستقلالهم ، ومن أشهرهم فى ذلك الخليفة الناصر ففى هذه الفترة عادت بعض الاقطار القريبة من العراق كبلاد اربل فى الشمال أو الشمال الشرقى وكاقليم الأهواز فى الجنوب الى حظيرة الدولة ، ومرد ذلك الى الانقسام والشقاق الذى وقع بين أمراء السلاجقة وقتل بعضهم بعضا مما استنفذ قواهم وشغلهم عن البقاء فى العراق أو التدخل فى شؤون دار الخلافة ولكنه كان فرجا موقوتا لان التتار شرعوا فى الزحف على الشرق ، وقد انتهى زحفهم بعد جيل او أكثر قليلا بالاستيلاء على العراق وسقوط الدولة العباسية ، ولابد لنا من القول ان تلك الاقطار التى عادت الى الالتحاق بالعراق فى هذه الفترة عادت

---

(١) يرجع فى هذا الباب الى المروج (٢/٣٣٧ ، ٣٤٧) والآداب السلطانية (١٨١ ـ ١٨٢) •

الى دولة انهك اهلها نظام الأقطاع وارهقهم سوء سيرة الحكام واودى بحضارتها وعمرانها ومجدها تعاقب الفتن والحروب ٠

مذهب آخر في السياسة الشرعية :

اطلعت ـ فيما مر ـ على طرف مما اخذه بعض المؤرخين على اولئك النفر من خلفاء بنى العباس وغيرهم من ناحية غلبة الاثرة والانانية والطمع عليهم وتمكن العاطفة منهم فى ايثار ابنائهم وفتنتهم بأولادهم ، ويلاحظ ان الفقهاء الباحثين فى الاحكام السلطانية والسياسة الشرعية يتحاشون التحامل على هؤلاء الخلفاء ويتجنبون النقد والتجريح، ولهم فى تخريج هذه المآتى والأعمال وتسويغ هذه السياسة مذهب آخر يختلف عن مذهب بعض النظار ، اجاز بعض هؤلاء الباحثين أن يعهد الخليفة الى اثنين او أكثر بالبيعة ، وعنى بعضهم بالبحث فى تصرف المنصور وسياسته من الناحية الشرعية فارتأى ان من حق الوازع او من حق ولى الامر ان يفعل ذلك وارتأى آخرون انه كان مبطلا غير محق ، وقد اشار الماوردى الى تضارب آراء الفقهاء فى هذه الناحية (١) وصحح عمل الرشيد فى عهده الى ثلاثة من بنيه وأسنده الى مشورة من عاصره من العلماء وكانوا لا يجدون فى ذلك محذورا (٢) ، وقد عرض الماوردى فى الأحكام السلطانية لقصة عيسى بن موسى وما فعله المنصور والمهدى من بعده فى استنزال هذا الأمير عن حقه الذى يدعيه فى الولاية واشار الى مذاهب الفقهاء واختلافهم فى جواز ذلك أو عدمه وفى صحة هذه السياسة او بطلانها ، ويظهر ان جمهورا من الفقهاء طعن فى سياسة المنصور وابنه المهدى فى هذا الشأن بدليل ان المنصور اراد من عيسى بن موسى ان يخلع نفسه بنفسه طيب النفس غير ساخط ولا متظلم ، وقد دافع الماوردى عن أبى جعفر وحاول تصحيح تصرفه فى ولاية العهد بقوله : « اما استطابة المنصور نفس عيسى بن موسى فانما أراد به تألف أهله لانه كان فى صدر الدولة والعهد قريب والتكافؤ بينهم متيسر وفى احشائهم نفور ففعله سياسة » ، ومن رأى ابن خلدون ان ايثار الصدر الاول كالمنصور والمهدى من بنى العباس لابنائهم فى ولاية العهد لا يقدح

---

(١) الأحكام السلطانية (١١ ـ ١٢) ط الاتحاد ٠

(٢) المصدر نفسه (١٠ ـ ١١) ٠

فى عـدالتهم [1] .

هذا ما قاله ابن خلدون ، والحقيقة ان كثيرا من هؤلاء الباحثين والفقهاء المتأخرين الذين صححوا تصرف الأول من خلفاء بنى العباس على الاطلاق ، لم يسعهم التجرد عن الهوى ، والهوى اله معبود كما قيل وطالما غلب عليهم التقليد ومجاراة الاقدمين .

بدء الصراع :

بدأ الصراع بين أبى جعفر المنصور وابن أخيه بشأن ولاية العهد عقب مضى مدة لا تقل عن عشر سنين على بيعته ، ولم يكن للجفاء الشديد والوحشة بينهما أثر ظاهر خلال هذه المدة ، ذلك لكثرة الفتوق والهيجات على الدولة فيها ، وهى فتوق وهيجات استغرق رتقها معظم أوقات المنصور، ولهذا ونحوه عنى فى الفترة التالية ـ فترة الاستقرار واتساق الامور والظفر بالثائرين ـ أول ماعنى باعادة النظر فى نظام ولاية العهد، وهو نظام خليق بذلك لانه يقرر مصير الخلافة ، وليس فى خلفاء بنى العباس من يهون عليه خروج الامر من عقبه مهما كانوا ، فكيف اذا فتن القوم بأولادهم وغلبت عليهم العاطفة فيهم ، ويحكى أن المنصور كان مشغوفا بابنه المهدى .

من اجل ذلك قام وقعد وجـد واجتهـد فى تبـديل النظام المذكور على أسـاس استنزال عيسى بن موسى عن الولاية وعلى أن تكون البيعة من بعد المهدى بعيسى نفسه ترضية له وهى سياسة لا مناص معها من الاختلاف ومن القال والقيل ، بل هو ضرب من الاثرة يوشك أن يؤدى الى فتنة وسفك دماء بين العباسيـين أنفسهم ، ففيهـم كثير من الاكفاء المتطلعين الى المنصب المذكور وفيهم عدد غير قليل من الناقمين على المنصور فى هذه الفترة ، وكانت لابى جعفر فى صراعه مع ابن أخيه مكائد وحيـــل معروفة .

مكائد المنصور :

يقال : لم يعرف رجـل فى سلم أو حرب أمكر ولا انكر ولا أشد تيقظا من المنصور [2] ، ويروى المؤرخون مكائد عدة نصبها هذا الخليفة لتوريط ولى عهده وابن

---

(١) المقدمة (١٤٨) المطبعة البهية .

(٢) قف على أصل هذه الكلمة لقائلها يزيد بن عمر بن هبيرة فى تأريخ الطبرى (٩/ ٣١٣) وفى الآداب السلطانية ط الرحمانية (١١٥) ، وفى آخر هذه الكلمة يقول ابن هبيرة : « حصرنى المنصور فى مدينتى ـ أى واسط ـ تسعة أشهر ومعى فرسان العرب فجهدنا كل الجهد أن ننال من عسكره شيئا فما تهيأ ، وقد حصرنى وما فى رأسى بيضاء وخرجت اليه وما فى رأسى سوداء » .

اخيه ، من ذلك أنه أمره بقتل عمه عبدالله بن على سرا ليقتله به بعد ذلك فيستريح من خصميه معا ، وقد أوشك ان ينخدع عيسى وأن يقع فى الفخ المنصوب له لولا فطنة كاتب عنده قال له : اياك ان تفعل ، انه يريد ان يقيدك به والا لأمرك بقتله علانية فاستصوب عيسى هذا الرأى وأبقى عبدالله عم المنصور حيا عنده فهو مدين فى بقائه حيا وفى نجاته من القصاص لكاتبه المذكور ، وبذلك بطلت حيلة المنصور وحقن عيسى دمه فى قصة غريبة يستنتج منها ان عيسى كان على جانب عظيم من المنزلة فى ديوان المنصور (١)

هذا وللمنصور حيلة أخرى دبرها ليقع فيها ابن أخيه وذلك عندما جهزه الى الحجاز لقتال النفس الزكية اذ كان من بعض أغراض المنصور أن يلقى به الى التهلكة يتضح لنا ذلك من جملة فاه بها الخليفة بعد حركة عيسى الى الحجاز ، وهى قوله : « لا أبالى أيهما قتل صاحبه » (٢) ولهذه الجملة دلالتها فهى تعنى أن المنصور لا يفرق بين عدوه وأمير جيشه ولا يعنيه اذا دفع به الى المهالك ، ولا ندرى كيف شاعت هذه الجملة وكيف تناقلها الرواة عن المنصور وهى تنم عما يضمره من الشر لابن أخيه •

ليس هذا فحسب بل رأينا بعض رجال الديوان العباسى فى العصر المذكور يتفننون فى نصب الفخاخ وحبك الدسائس لهذا الامير تزلفا الى الخليفة وطمعا فى الحظوة عنده ، من ذلك أنهم أشاروا عليه مرة ان يقلده أعمالا ديوانية محرجة من شأنها اثارة الخواطر عليه مثل أعمال الخراج والجباية ، فصاحب الجباية اذا مال الى الضبط والدقة ذمه الناس واذا جنح الى التساهل والرفق عجزته الدولة ، ثم ان هؤلاء الخاصة أشاروا على الخليفة ان يحتفظ لابنه المهدى بأعمال من شأنها أن تحبب أصحابها الى الجمهور مثل النظر فى « ديوان المظالم » ، وهو ديوان يشبه « مجلس الدولة » فى هذا العصر (٣) وكانت له فى صدر الدولة العباسية سلطة واسعة ، ومن وظائف هذا الديوان مراعاة السنن العادلة وتطبيق الاحكام الشرعية ورد الحقوق الى مستحقيها والمظالم على أهلها •

---

(١) تجد هذه القصة فى كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى (١٣٠) ، وفى تأريخ الطبرى (٩/٢٦٤ ـ ٢٦٥) والمروج (٢/٧٤) والكامل (٥/٢٧٥ ـ ٢٧٦) ، واسم الكاتب الذى أنقذ الأمير عيسى يونس ابن أبى فروة •

(٢) رويت هذه الكلمة عن المنصور فى الكامل (٥/٢٢٧) •

(٣) انظر فى هذا الباب حكاية رواها الجهشيارى فى كتاب الوزراء والكتاب ووردت فيها أسماء بعض خواص المنصور الذين يعول على آرائهم ومشورتهم فى هذه الامور (٣٧ ـ ٣٨) •

وبهذا الديوان بعض الاسس والاصول فى تأريخ العرب قبل الاسلام [١] تجدها فى بعض مواثيقهم وأحلافهم ومنظماتهم العامة مثل « حلف الفضول »[٢] و « حلف المطيبين »[٣] و « دار الندوة »[٤] وغير ذلك من أحلاف العرب وهيئاتهم السياسية فى الجاهلية وان كانت منظمات أو هيئات سياسية محدودة ٠

كان المنصور اذا كوشف بمثل هذا الدس على ابن أخيه يغرق فى الضحك ، وفى اغراقه بهذا الضحك دليل بالغ على انه ممن يطيب له هذا النوع من احاديث الكيد والتغرير بهذا الأمير[٥] ولا تخلو دولة من الدول من طبقة مصانعة تتظاهر

---

(١) من أوفى المراجع فى البحث عن ولاية المظالم وتحديدها وشروطها وعن الفرق بين ولاية المظالم وولاية القضاء وعن أشهر ولاة هذا الديوان فى الدولتين كتاب الاحكام السلطانية للماوردى ، ط الاتحاد (٦٤ ــ ٨٢) وانظر عن ديوان المظالم فى الدول الاسلامية مقدمة ابن خلدون ط البهية (١٥٥ ــ ١٥٧) ٠

(٢) كانت للعرب فى جاهليتهم الأخيرة بعض العهود والمواثيق والاحلاف والمنظمات العامة التى تعاهدوا بموجبها على ردع الظالم وانصاف المظلوم ومنع البغى والعدوان على الضعيف ، ومن أشهرها حلف الفضول وهو بمثابة محكمة عليا اليها تحتكم قبائل العرب المتنازعة فى ذلك العصر أو هو ميثاق من مواثيق عدم الاعتداء ، وقد ظهر هذا الحلف فى أعقاب فترة من فترات الفوضى والظلام استباح فيه القوى حمى الضعيف وانقادت كل عشيرة الى حكم طاغيتها وركبوا رؤسهم فى همجية منقطعة النظير فكان حلف الفضول يقوم مقام ديوان المظالم ويؤدى وظيفته من بعض الوجوه أو يؤدى وظيفة مجالس التحكيم ، ظهر هذا الحلف فى مكة ويعد من مفاخر العرب وقد بقى له شأن لا يستهان به فى صدر الاسلام وهدد به الامام الحسين بن على بعض أمراء بنى أمية فى نزاع بينه وبينهم فأوشك ان يهتف بحلف الفضول ، وقد أذعن له خصومه بعد هذا التهديد ، انظر عن حلف الفضول طبقات ابن سعد (١/٨٢) وسيرة ابن هشام (١/١٢٥ ــ ١٢٦) ومروج الذهب (١/٢٧٥) وثمار القلوب للثعالبى (١١٠) وشرح نهج البلاغة (٣/٤٦٤) ٠

(٣) انظر عن حلف المطيبين سيرة ابن هشام (١/١٢٦) وثمار القلوب للثعالبى (١١٠) ٠

(٤) دار الندوة أو دار الشورى يقال أنها أول دار أحدثت بمكة تقضى قريش وتقطع فيها أمورها ، يجتمع اليها أهل الحل والعقد للمشاورة وتقليب وجوه الرأى فى أمورهم العامة ، انظر عن دار الندوة تأريخ الطبرى (٢/١٨٢ ــ ١٨٤) وسيرة ابن هشام (١/١١٨ ــ ١٨٢) ومعجم البلدان للحموى ط لايبسك (٢/٥٢٤) وشرح النهج (٣/١٥٤) ٠

(٥) الجهشيارى فى كتاب الوزراء والكتاب (٣٨) ٠

بالغيرة على مصلحة السلطان أكثر من غيرته نفسه ، وبهذا الضرب من المصانعة والنفاق يعظم جاه هذه الطبقة وترتفع منزلتها في الدولة ، والويل لدولة يعلو جاه السفلة فيها وينحط قدر الغلبة في أيامها .

قيمة المواثيق :

لما كبر المهدي ابن ابي جعفر المنصور شغف به ابوه شغفا شديدا وعز عليه حرمانه من البيعة بعده واستكثر ذلك على ولي العهد عيسى واراده على التنازل عن منصبه تارة بالترغيب وطورا بالترهيب فامتنع عيسى عن خلع نفسه ، واحتج بان عليه أيمانا مغلظة ومواثيق قاطعة ، ومجمل القول ظهر الجفاء بين عيسى وعمه ومرد ذلك فيما نرى الى أمور ، منها وجاهة عيسى ومكانته وكثرة اتباعه وأنصاره ، ومن اجل هذا اختلفا اختلافا بعيدا في كثير من الاحداث وفي كثير من الاشخاص ، ومن هذا القبيل اختلاف رأيهما في ابي مسلم الخراساني اذ كان لعيسى في صاحب الدولة او الدعوة رأي يختلف عن رأي المنصور فكان من رأي عيسى وقد جاهر به امام المنصور ان لا خطر على الدولة من وجود ابي مسلم في هذه المرحلة من مراحل حياتها وان صاحب الدعوة لم يزل على نصحه وطاعته واخلاصه طبقا لرأي ابراهيم الامام فيه ، ولكن المنصور بادر الى قتله خلافا لرأي ابن اخيه فيه ، اذ كان من رأي عمه ان ابا مسلم اصبح اعدى أعداء الدولة على وجه الارض وأنه لا امر ولا رأي ولا سلطان مع وجود ابي مسلم ، وقد دارت بين عيسى وعمه محاورة في هذا الشأن كان المنصور فيها كثير الاستخفاف بآراء ابن أخيه (١) ، ومما زاد في الطين بلة ان المنصور لم يلتزم بالامان الذي اعطاه لابي مسلم ، وكان عيسى كفيلا له في ذلك ، وقد اضاف عيسى امان المنصور لأبي مسلم الى غيره من المكائد والخدع التي خبرها بذاته في سيرة عمه المنصور قبل خلافته وبعدها فانه صاحبه في الهجرة من الحميمة الى الكوفة وهو الذي مهد الأمور ووطأ الأكناف وأخذ البيعة له في العراق ، وهو عامله على الكوفة وقائد جيوشه في كثير من الحروب الطاحنة ، فلا يوجد بين امراء بني العباس من يماثله في الاتصال الوثيق بعمه المنصور وفي مباشرة اعماله والاطلاع على دخائله ، وكان أول من يؤذن له في الدخول عليه قبل حدوث هذا النزاع .

---

(١) تجد نص هذه المحاورة في مروج الذهب (١٦٨/٢) والكامل (٢٢٧/٥) .

لم يكن هذا الامان الذى اعطى لأبى مسلم ثم لم يلتزم به المنصور بأول امان من هذا القبيل فقد آمن المنصور بن أبى هبيرة ثم فتك به وآمن عمه عبدالله بن على ثم فعل مافعل به ، ولذلك عيره محمد بن عبدالله النفس الزكية بالغدر وابى ان يقبل منه الأمان .

لماذا قتل أبو مسلم ؟ :

ما من شك أن ارتيابا وشكا كبيرا فى اخلاص أبى مسلم وفيما ينطوى عليه من نيات قد خامر المنصور ، وهؤلاء المؤرخون من قدماء ومحدثين يقولون تبعا لما قاله ابو جعفر المنصور قبل مقتل ابى مسلم : ان ابا مسلم يكيد للدولة العباسية ويبغيها الغوائل ، وفيهم من يزعم أنه يريد احياء مجد الدولة الساسانية البائدة من جديد ، وليس هناك دليل قاطع او نص صريح فى هذا الشأن ، والصحيح فيما نرى ان ابا مسلم كان يخشى المنصور على نفسه قبل خلافته لما اتصل به انه حاول قتله فى خلافة أخيه السفاح فكيف وقد صار الأمر اليه ، ومعنى ذلك ان ابا مسلم كان يكيد لشخص ابى جعفر نفسه اكثر من كيده للدولة العباسية ، وكان يضلع مع أمراء آخرين من بنى العباس فى مقدمتهم هذا الامير عيسى بن موسى .

كانت بين الأمير عيسى وابى مسلم صحبة اكيدة ومودة قديمة على خلاف ما كان بينه وبين المنصور ، وحسبك انه – أعنى الامير المذكور – كان رسول المنصور الذى حمل رسالته اليه طالبا فيها أن يعدل عن التوجه الى خراسان وان يتجه الى العراق بعد وقعة « نصيبين » ، ولولا هذه الرسالة التى حملها عيسى ولولا عهد قطع بالامان فيها – وكان كفيله فيه عيسى نفسه – لم يأمن ابو مسلم جانب المنصور ولم يسكن جاشه المضطرب ولم يقدم عليه ، وكان ابو جعفر يعرف هذه الصلة الوثيقة بين الرجلين ويحسب لها حسابها ، ولو عاش أبو مسلم وشهد محنة صاحبه الامير عيسى واكراهه على التنازل عن ولاية العهد لآزره والحال بين المنصور واستنزاله عن الولاية .

لا عجب اذا خذل ابو مسلم ابا جعفر ولا غرابة اذا وقف هذا الموقف من تاييد عيسى وتقديمه على المهدى – لو عاش – فان مرد ذلك الى جفاء والى فتور قديمين بين ابى مسلم وابى جعفر ، ولهذه الجفوة بين الرجلين اصول تمتد الى عصر ابى العباس السفاح لما جهز المنصور الى خراسان لتصفح احوالها ، وكان ذلك فى أواخر أيامه فاستخف آبو مسلم الخراسانى بأبى جعفر وثقل مقدمه عليه ولم يبالغ ببره ولم يحتفل كثيرا به [1] ، على

---

(١) الاخبار الطوال للدينورى (٣٦٥) وتاريخ الطبرى (٩/١٥٣) .

ان المنصور شاهد فى رحلته هـذه طاعة أهل خراسان لصـاحبهم وتعظيمهم البالغ له ، ولاحظ ان أبا مسلم يأمر وينهى ولا راد لامره فى خراسان وخيل اليه ان سلطة الخليفة العليا تتضاءل شيئا فشيئا وان الناس لا يعرفون الخليفة ولا يهابونه كما يهابون ابا مسلم ، ولذلك عاد المنصور وفى نفسه أشياء عن أبى مسلم زعيم الشرق وعن استخفافه به فهو لا يرى بدا من قتله ، وكان أول ما قاله لأخيـه السفاح : « أطعنى واقتـل أبا مسلم فوالله ان برأسه لغدرة فلست بخليفة ما دام أبو مسلم حيا فاحتـل لقتله قبـل أن يفسد عليك أمرك » (١) ، وقد هون المنصور على أخيه قتل أبى مسلم وتعهد أن يقوم به بنفسه بيد أن السفاح استعظم الفتك به لأنه مطاع فى قومه وله على جنوده سلطة منقطعة النظير ، وهو الى ذلك حبيب الى أهل تلك الاقطار (٢) ، وقد فطن المنصور الى تنكر أبى مسلم له فصار يوجس خيفة منه على نفسه خاصة ، وأصبح يخشى جانبه ويحذر من ادخال أنفه فى شؤون الخلافة .

لما فاجأ المنصور الأمير عيسى بأنه قد فرغ من قتل أبى مسلم لم يتمالك الأمير من اظهار أسفه لأنه كان يثق به ، وأهم من ذلك أنه كفيله عندما أخذ الأمان له من المنصور ، ولذلك ظل يسترجع ثم عراه شىء من الوجوم كما لو كان يخاطب نفسه قائلا : ما معنى هذا الأمان وما نتيجة ذلك الضمان (٣) ! .

والغالب أن الأمير عيسى شعر فى هذه الفترة بأن دوره قد حان ، وأن العهـد اليه بالولاية فى عصر السفاح أصبح أضغاث أحلام فى عصر المنصور .

دور الأمير :

أصبح الأمير عيسى بن موسى ينتظر دوره ، ويلاحظ ان عمر المهدى عندما بويع أبوه أقل من عشر سنين قليلا وهو سن لا تنعقد فيـه بيعـة لذلك أمهـل المنصور عيسى بن موسى فلم يحرك ساكنا فى السنين العشر الأولى من خلافته وكان ينتظر نشوء ولده لأن البلوغ شرط فى صحة البيعة وفى مستهل العقد الثانى من خلافته أى فى حدود سنة ١٤٦ لم يبق مانع يمنعه من النشاط فى هذا السبيل ــ أعنى اعادة النظر فى نظام ولاية العهد ــ ففى هذه الفترة شب ولده المهدى وبلغ مبالغ الرجال ، فلم يكن من الصعب عليه ان يجعل من ابنه ــ وقـد بلغ مبالغ الرجال ــ ندا منافسا

---

(١) و (٢) و (٣) الاخبار الطوال للدينورى (٤٦٥) وتأريخ الطبرى (٩/١٥٣) .
(٤) قف على اشـارة صاحب الآداب السلطانيـة الى الأمان والكفالة المـذكورة ط الرحمانية (١٢٥) .

لابن أخيه فى المناصب والولايات الجليلة مع تفاوتهما فى السن وفى كثير من المؤهلات السياسية(١) ، ولكن لعيسى حق فى البيعة لابد من نقضه والتحلل منه ، والا خرج الأمر من عقب المنصور ـ ولو الى زمن محدود ـ وقد حذا العباسيون حذو الأمويين فى عقد الولاية لواحد أو أكثر من أولادهم أو اخوانهم حتى لا تخرج الخلافة منهم الى غيرهم من ابناء العشيرة وكان المنصور أول عباسى عقد البيعة لابنه (٢) .

لا يبالى بمعارضة الخليفة :

على هذا فوتح عيسى بن موسى من قبل عمه فى معنى خلع نفسه وتقديم المهدى عليه ، فاحتج وامتنع امتناعا شديدا مستندا الى براهين لا تخلو من قوة ، وفى مقدمتها وصية أول الخلفاء العباسيين أبى العباس السفاح ، وقد بعث عيسى فى هذا المعنى رسالة وبخ فيها عمه توبيخا عنيفا على نكث العهد وقطيعة الرحم خاطبه فيها خطاب الأنداد والنظراء ، وكيف لا يكون عيسى ندا للمنصور وهو زميله فى الولايات قبل الخلافة فقد كان أميرا على الكوفة بينما كان المنصور أميرا على الجزيرة فى عصر السفاح ، وفى هذه الرسالة وكانت نفثة مصدور وصيحة موتور تقف على مبلغ اعتداده بنفسه وعلى ما كان له من شأن فى الدولة (٣) .

كان لهذه الرسالة أثر سيىء فى نفس الخليفة عاد بعدها الى التهديد والوعيد فعانى عيسى ما عاناه من السخرية والاهانة فتفاقمت الأزمة حتى مشى شيوخ العباسيين وكبار القواد فى اصلاح ذات البين وفى مقدمتهم عيسى بن على عم المنصور(٤) ، وممن

(١) انظر ما رواه الجهشيارى فى كتاب الوزراء والكتاب (٣٧ ـ ٣٨) .

(٢) انظر المروج (٢/١٥٣) عن مبلغ عناية الامويين والعباسيين فى عقد البيعة لاخوانهم وابنائهم .

(٣) قف على هذه الرسالة فى تاريخ الطبرى (٩/٢٧٠ـ٢٧٢) .

(٤) عيسى بن على بن عبدالله بن عباس صاحب « قصر عيسى » و « نهر عيسى » و « قطيعة عيسى » من أشهر اعمام المنصور ، وله اخوة آخرون يعدون من أشهر امراء الدولة العباسية فى عصرها الاول ، كان عبدالله بن المقفع كاتبا عنده وبسبب اخلاصه لآل على قتله المنصور ، والقصة مشهورة ، كان الامير عيسى بن علي وافر الحرمة عند المنصور لانه اعتزل السياسة مطلقا فى الدولة العباسية ، وتجد ترجمة له فى تاريخ بغداد (١١/١٤٧ـ١٤٨) وفى كتاب للوزراء والكتاب للجهشيارى نبذة من اخباره تجدها فى الصفحات الآتية (٣٧ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٢٥) وانظر عن ثروته وضياعه وعن نعمته معجم البلدان ط لايبسك (٤/١١٥ـ١١٨) ومن اوفى المراجع فى أخبار آل على وفى قصة كاتبهم ابن المقفع وفيات الاعيان ط باريس (١/٢٢٢ـ٢٢٣) وفى هذا البحث من الوفيات ملاحظات تاريخية دقيقة ، وراجع مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى فى حوادث سنة ١٤٥ .

سعى بالاصلاح خالد بن برمك وآخرون من خواص المنصور [1] ولكن بدون جدوى .

حزب ولي العهد :

وكان ولي العهد عيسى بن موسى هذا يستند في رد طلب المنصور الى حزب قوامه بعض مشيخة بني العباس وبعض وجوه القواد والزعماء ممن يرون رأيه في الامتناع من بيعة المهدي ، فقد اعتبرت سياسة المنصور ضربا من الاعتداء على حق ابن أخيه في نظر كثير من انصاره واصحابه ، فهم حزب يرى ان عيسى أحق بولاية العهد ، أحق من المهدي واحق من غيره من الامراء وان المنصور يغمطه حقه اذا اراد تأخيره عن ابنه المهدي ، ومن أشهر هؤلاء الانصار هرثمة بن أعين القائد المشهور كان يبث الدعوة لعيسى بخراسان فأمر المنصور بالقبض عليه واشخصه مقيدا الى العراق [2] وكان عيسى بن علي عم المنصور الانف ذكره يقول لولي العهد هذا ولابنه : « اني لأعلم أنه لاخير في هذا الامر بعدكما وانكما احق ولكن المرء مغرى بما تعجل به [3] .

كان هذا الحزب مصدر قلق ومتاعب جمة للمنصور بيد ان الخليفة لم يدخر وسعا في مقاومته حتى تغلب عليه ولم يكن له بد من رجال ينظمون الدعوة لابنه ويزكون سياسته ، وقد بذل المنصور في هذا السبيل اموالا طائلة لبعض المرتزقة من الشعراء الذين انتقم منهم عيسى شر انتقام بعد ذلك .

كانت الجرأة البالغة من مميزات هذا الأمير بل كان ينقصه شيء غير قليل من المداورة والمداراة ، وقد رأيناه مثالا في الجرأة والاعتداد بالنفس غير مرة ، وحسبنا عدم امتثاله أمر المنصور بقتل عمه عبدالله بن علي ، ويقول الطبري : آمن عيسى بن موسى وهو أمير على الكوفة جماعة من أبناء علي واكرمهم وحباهم فلم ينسوا له هذه الصنيعة [4] ، وهو لا يحجم عن الرد على الخليفة وعن معارضته بمرأى ومسمع من

---

(١) انظر الكامل (٥/٢٧٥) .

(٢) قال ابن الاثير : (قبض المنصور على عباد مولاه وعلى هرثمة بن اعين بخراسان واحضرهما مقيدين لتعصبها لعيسى بن موسى) الكامل(٥/٢٨٨-٢٨٩)ولهرثمة قصة مع ابن يوسف صاحب ابي حنيفة يراجع عنها تاريخ بغداد (١٤/٢٥٠) ، وانظر عن مصير هرثمة تاريخ الطبري (١٠/٣٦-٣٧) ، ويراجع عنه ص (١٥٥) من هذا الكتاب .

(٣) تاريخ الطبري (٩/٢٧٢-٢٧٤) .

(٤) المصدر نفسه (١٩٥) .

الناس ، وقد يستبد بآرائه وأعماله ولا يلتفت الى عواقبها الوخيمة كما يفعل الحاكم الجبار ، فهو الذى سفك دم شاعر مجيد لا ذنب له سوى بث الدعوة لابن عمه المهدى وتقديمه على غيره فى قصيدة من قصائده ، وقد ارتكب عيسى هذه الجريمة غير مكترث بموقف المنصور من هذا الشاعر ومن اعجابه بقصيدته على ملأ من الناس ومن صلته المالية الكبيرة التى وصل بها الشاعر المذكور(١) .

الى هذا ونحوه من مظاهر الجرأة والشجاعة ـ فيما نرى ـ مرد بعض مظاهر الاعجاب به والاكبار له ، ولا شك انه كان يعتمد فى اطراح المبالاة وعدم الاكتراث بنتائج أعماله على دالته وسابقته وانه ممن ذللوا المصاعب ووطأوا الأكناف فى هذه الدولة، وقد فاته ان هذه المميزات لاقيمة لها فى عالم السياسة وانها قد تزيد أصحابها بعدا واضطهادا من السلطان ومقتا من خواصه وايثارا لغيرهم من السفلة الساقطين ، فالسياسة غير العاطفة ، وما آكثر شواهد التأريخ على ذلك ، وما أحوج هذا الا مير فى صراعه مع عمه الجبار الى الحزم وبعد النظر والفطنة ، فهو من رجال الحرب وليس من رجال السياسية .

دم الشباب وحكمة الشيوخ :

سعى شيخ بنى العباس عيسى بن على صاحب « قصر عيسى » فيمن سعى من وجوه الدولة فى الصلح وفى الوصول الى تسوية ما فى هذا النزاع .

كان الشيخ واسع الحيلة موفور التجربة الا ان آل عيسى بن موسى يكرهونه ويتهمونه ، وقيل انه كان يغرى المنصور بهم مرة ويتظاهر بالتظلم لهم آخرى ، فهو الذى لفت المنصور الى أن عيسى بن موسى انما يتربص بالخلافة لابنه فاذا امتحن واذا عرض الولد على السيف نزل ابوه عن الولاية ، وهكذا كان(٢) وقد مضى ان للأمير عيسى ولدا شابا سماه باسم جده « موسى » وقد شهد موسى الصغير هذا مراحل الصراع العنيف بين آبيه وعمه ورأى كيف يسام ابوه الهوان وكيف يهدد وتدس له المكائد ويعبث به القواد والحجاب ويؤخر اذنه على باب المنصور(٣) ، والى موسى

---

(١) تجد تفصيل ذلك فى تاريخ الطبرى (٩/٢٧٢ـ٢٧٤) وانظر قصة الشاعر المذكور وشيئا شعره فى أبى العباس السفاح فى المروج (٢/٢٥٥) .

(٢) الكامل (٥/٢٧٤ ـ ٢٧٥) .

(٣) تأريخ الطبرى (٩/٢٦٧) .

هذا فيما شاع مرد هذه الأزمة وأن أباه كان يرشحه للخلافة فهو أثير عنده ، ولا يقل شغف عيسى به عن شغف المنصور بالمهدى وقد بلغ موسى ان الخليفة واجد عليه وأن له دخلا فى خلاف والده وامتناعه وأنه يحدث نفسه بولاية العهد من بعد أبيه فضاق موسى ذرعا بهذه الشايعات وكان دم الشباب يغلى فى عروقه وحاول أن يفشى سرا خطيرا له صلة بهذا النزاع من شأنه أن يودى بحياة عيسى بن على فنهاه أبوه عن ذلك .

خوف الوجوه[1] ولى العهد وأنذروه عاقبة هذا النزاع وتلطف شيخ بنى العباس فى مدخله الى الاصلاح مستعينا على الأمير بابنه وقبل الابن أن يعرض على القتل ظاهرا فى ديوان المنصور وأن تشهر عليه السيوف وأن يخنق بالحمالات ، ولا شك ان أباه الذى امتنع عن خلع نفسه سيلين ويستجيب ، وهكذا تنازل ولى العهد ابقاء على فلذة كبده المذكور .

من رأينا أن تصرف الشيخ العباسى فى هذا النزاع على أساس نزول عيسى بن موسى لا يخلو من حكمة فان قوى الدولة من مال ورجال كانت فى قبضة الخليفة[2] ، ومن ثم أعلن الأمير عيسى خلع نفسه عن الولاية فى يوم مشهود وقد تم تدبير هذه الحيلة مع العباس بن محمد أخى المنصور[3] فانهالت الهدايا الثمينة والأموال الطائلة على الأمير المخلوع وعلى أولاده وأتباعه كافة[4] .

أزمة نفسية :

على هذه الكيفية تم خلع عيسى وكان أثر الألم الممض باديا على ملامحه ظاهرا

---

(١) لم ينفرد عيسى بن على بمسعاه اذ سعى معه فى هذا السبيل غير واحد من وجوه الدولة وفى مقدمتهم خالد بن برمك فانه استساغ شهادة الزور لمصلحة المنصور ، انظر تأريخ الطبرى (٢٧٢/٩) .

(٢) المصدر المذكور .

(٣) يعدون العباس بن محمد أخا المنصور من رجالات بنى هاشم ، ولى دمشق والشام سنة ١٤٠ وولاه الرشيد امارة الجزيرة ثم عزله سنة ١٥٥ ، وله ذكر فى كتب الأدب ، وهو ممدوح ربيعة الرقى بأبياته السائرة التى أولها :

لو قيل للعباس يا ابن محمد قل : لا وأنت مخلد ماقا لها

كان الرشيد يعظمه جدا وفيه يقول : « العباس يذكرنى بأعلامنا » له ترجمة مفصلة فى مهذب تأريخ دمشق لابن عساكر (٢٥٢/١ـ٢٥٥) ، وفى الكامل (٢/٥ـ٣) .

(٤) انظر عن ذلك تاريخ الطبرى (٢٧٥/٩) .

على وجوه أهله وأنصاره وعددهم غير قليل بيد أن القوم لم يحرموه بتاتا فإن الولاية جعلت له بعد المهدى،وقد تم أخذ البيعة الجديدة له بموافقة المنصوروهي فيما زعموا تسوية لا بأس بها ، ولما سئل عن رأيه فى ذلك أظهر عدم الاكتراث قائلا : « ما خرجت من هذا الأمر لأدخل فيه مرة أخرى » وهى كلمة تدل على غاية التبرم والامتعاض وعلى شعور عميق بألم الصدمة وهو شعور عبر عنه بأبيات تعد من عيون الشعر ، منها قوله :

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما   اما صغار واما فتنة عمم
وقد هممت مرارا أن أساجلهم   كاس المنية لولا الله والرحم[١]

والواقع أن موقف عيسى فى محنته ـ كما قال ـ بالغ الحراجة ، فهو موقف يتجاذبه عاملان . عامل التسليم والنزول على حكم خصومه وفى ذلك ما فيه من صغار وهوان وعامل آخر هو عامل المقاومة والدفاع ، وفى المقاومة ما فيها من الحاق شيء لا يستهان به من الضعف والوهن بالدولة ، وقد عبر عيسى وهو معدود من شعراء ذلك العصر عن هذه الأزمة النفسية التى كان يعانيها بقطع من الأشعار[٢] .

جناية السياسة على التأريخ :

هذا ويلاحظ ان كتب التاريخ حافلة بالمتناقضات فى سياق الروايات المتصلة بهذا النزاع وفى كيفية خلع عيسى بن موسى ، منها ما يشير الى ضعف عيسى وأنه خلع نفسه من أجل المال ولسبب عجزه عن الاضطلاع بمهام الخلافة وأنه أقدم على ذلك طيب النفس قرير العين ، وفى رواية أنه باع حقه فى ولاية العهد بثمن طائل من الذهب ، الى غير ذلك[٣] ، ومن الرواة من يربأ به عن الاسفاف ويرفعه الى مستوى

---

(١) روى هذه الابيات أبو الفرج فى الاغانى (٣٢/١٥) ط التقدم ، ولم يروها المرزبانى مع انه روى قطعا من اشعاره ، ويلاحظ ان ما رواه المرزبانى من شعر عيسى دون هذا الطراز الذى نقلناه من الأغانى .

(٢) ترجم المرزبانى لعيسى فى باب من اسمه عيسى من معجم الشعراء ونقل مقطعات من شعره فى توبيخ عمه المنصور وما الى ذلك ، وجاء فى ترجمته له مانصه : « من مشايخ بنى هاشم ورؤسائهم وشجعانهم ولد سنة ١٠٢ وتوفى سنة ١٦٧ » .

(٣) تجد بعض هذه الروايات فى تأريخ الطبرى (٢٧٤/٩ ـ ٢٧٥) والكامل (٢٧٥/٥) والآداب السلطانية (١٢٥ ـ ١٢٦) .

أنبل الرجال وأنه أكره على خلع نفسه بعد مقاومة تخللها كثير من التهديد والوعيد فدست له الدسائس وعرض على المتالف وضحى فى سبيل امتناعه عن تقديم المهدى على نفسه بالولايات والمناصب ، ومن ذلك ولاية الكوفة وسوادها وزعامتها وقد وليها ثلاثة عشرة سنة حتى عزله سنة ١٤٧[١] ، وعلى كل فهذه الروايات متناقضة مختلفة باختلاف مذاهب الرواة ونعراتهم الحزبية ونزعاتهم السياسية ، وقد ساهم بعض المرتزقة من الشعراء بقسطهم فى ذلك[٢] ، ومن هذه الناحية تتجلى جناية السياسة على التأريخ وأثر المال فى تشويه المحاسن وتزيين المساوىء وقلب الحقائق ، وقد لاحظ بعض المؤرخين ماتخلل **هذه الفترة من تأريخ الدولة العباسية وأحداثها من رياء ومصانعة ، والرياء والمصانعة** ـ كما قال ابن تغرى بردى فى تعليقه على الاحداث المذكورة ـ من الآفات الاجتماعية **القديمة**[٣] ، ولنا أن نقول على أى حال : ان عيسى بن موسى مثل دورا ذا شأن فى تأريخ هذه الدولة فأتعب فحل بنى العباس وكانت قضيته شغل الخليفة الشاغل ردحا من الزمان ، بل لنا أن نقول أكثر من ذلك : انه خرج من هذا الحادث خاصة موفور العرض ـ وان لم يكن كذلك فى غيره من الاحداث ـ وان المال لم يكن له كبير دخل فى تخليه عن الولاية ، ولذلك يقول الطبرى : « **توفى عيسى والمهدى واجد عليه وعلى ولده** ، وكان المهدى يكره التقدم عليه لجلالته »[٤] ، **فلو** كان الرجل ضعيف النفس كما تصوره بعض الروايات لما وجد المهدى عليه وعلى ولده ولما كره التقدم عليه الى أن مات ، وحسبنا أن نرى كتب التأريخ طافحة بأخباره مع **المنصور وبمبلغ ما داخل الخليفة من القلق والخوف من ناحيته حتى دسوا لعيسى ما يتلفه** فمرض من جراء ذلك وامتنع طبيبه بختيشوع من علاجه فى دار السلام خوفا على

---

(١) تأريخ الطبرى (٩/٢٧٥) .

(٢) انظر عن تحزب بعض الشعراء فى هذا النزاع ، وعن مقتل أبى نخيلة الشاعر بأمر عيسى بن موسى ، تأريخ الطبرى (٩/٢٧٢ ـ ٢٧٤) والاغانى (١٨/١٣٩ ـ ١٤٠) ط. التقدم .

(٣) قال ابن تغرى بردى وهو يسرد أحداث سنة ١٥١ ما نصه : « وفيها جدد **الخليفة أبو جعفر المنصور البيعة لولده محمد المهدى ثم لابن أخيه من بعده عيسى بن** موسى فكان من يبايعه يقبل يده ويد المهدى ثم يمسح على يد عيسى بن موسى ولا **يقبلها ، قلت البلاء والرياء قديمان** » ، النجوم الزاهرة (١٢/١٦٠) .

(٤) تأريخ الطبرى (١٠/٩) .

نفسه فترك بغداد الى الكوفة ، ويكفى عيسى انه لم يلب طلب الخليفة فى البقاء عنده فكان المنصور يعوده فى الكوفة مرة بعد اخرى ، ولم يفت بعض الشعراء ذلك فقالوا ما قالوه فى هذه الحادثة(١) .

كانت وصية أبى العباس السفاح ـ كما مر ـ أقوى حجة تمسك بها عيسى واستند اليها هو وأنصاره فى المطالبة بولاية العهد وصاروا يغمزون المنصور من هذه الناحية وينسبون اليه الاثرة واتباع الهوى ، الى غير ذلك مما يقدح فى عدالته ، ولم يسع المنصور انكار الوصية لذلك اختار ـ على قوته وجبروته ـ أن يسوى النزاع تسوية سلمية وفضل هذه التسوية على غيرها من أساليب العنف والشدة وعمل كل ما فى وسعه لبذاع أنه لم يستخدم القوة وانما نزل عيسى عن حقه مختارا طيب النفس حيث سجل غير واحد من الزعماء شهادتهم بذلك ، وهى شهادة قابلة للطعن والتجريح فيما يراه غير واحد من قدماء المؤرخين(٢) .

الولد على سر أبيه :

يقولون فى أمثالهم : الولد على سر أبيه ، كما يقولون : العصا من العصية ولا تلد الحية الا حية ، ومصداق هذا فى سيرة المهدى عندما بويع بالخلافة بعد أبيه فانه نسج على منوال سلفه وحذا حذوه فى سياسته ، أى ان المهدى أراد لابنيه موسى الهادى وهارون الرشيد ما اراده المنصور له من التقدم ، وهو أمر لا يتم الا بخلع عيسى بن موسى مرة ثانية ، فطلب منه ما طلبه المنصور من قبل ، أرهبوه مرة وأرغبوه أخرى حتى أجاب(٣) واشهدوا عليه بالخلع مرة أخرى وبويع للهادى والرشيد بالخلافة بعد المهدى ، وكان ذلك سنة ١٦٠ ، والفرق بين الحادثتين ان عيسى لم يجامل فى المرة الاخيرة كما جاملوه بالبيعة فى المرة الاولى ، فكان ذلك آخر عهده بولاية العهد التى تقلدها اكثر من عشرين سنة من أيام السفاح الى أيام المهدى ، وكان يتقلد مضافا الى ذلك

---

(١) تجد تفصيل ذلك فى تأريخ الطبرى (٩/٢٦٦ ـ ٢٦٧) والابيات التى قيلت فى ذلك ليحيى البرجمى أبى زياد مشهورة ، وأولها :

افلت من علة الطبيب كما   يفلت ظبى الصريم من قتره

(٢) انظر ذيل الصفحة (٤٤) من هذا الكتاب .

(٣) تجد أخبار خلع عيسى فى المرة الثانية فى تأريخ الطبرى (٩/٣٢٩ ـ ٣٣٤) وفى تهذيب تأريخ ابن عساكر (٣/٣١٠) ، وفى الآداب السلطانية (١٣٢) .

بعض الولايات والاعمال ، وهكذا سيقت البيعة والخلافة فى أولاد المنصور من صلبه الى أن انقرضت الدولة العباسية •

بلغت الفترة الواقعة بين الحادثتين أكثر من اثنتى عشرة سنة ، ويروى فى هذا التنازل أو الخلع الثانى ما يروى فى سابقه ، وانه كان فى مقابل عوض مالى كبير تناوله المخلوع، وليس من السهل اثبات ذلك ولا يقصد من بعض هذه الروايات غالبا الا الطعن والتجريح •

ختام مأساة :

اعتزل عيسى أعمال الدولة سياسيا وعسكريا بعد سنة ١٤٧ وهى السنة التى نزل فيها عن منصبه ، فلم يل الكوفة ولا شيئا آخر من الولايات بقية أيام المنصور وأيام ابنه المهدى ، وخلفه على ولاية الكوفة من بعده كبيرا آل على وزعيمهم « محمد بن سليمان بن على » ، ولهذا الاختيار معناه فقد مر بك ان آل عيسى يكرهون « آل على » ويتهمونهم ، ويعلل بعض الرواة هذا التعيين برغبة المنصور فى الاستخفاف بعيسى بيد ان محمد بن سليمان لم يفعل ذلك وظل مبجلا له(١) ، ووالى الكوفة الجديد « عظيم أهله وجليل رهطه وسيد عشيرته » ، بهذا وصفه المؤرخون ، وله اخوة منهم جعفر واسحاق وموسى ما كانوا دونه وجاهة وان لم يلحقوا شأوه فى الغنى والثروة(٢) ،

---

(١) الطبرى (٢٧٥/٩) •

(٢) تحدث المؤرخون مليا عن ثروة محمد بن سليمان وقد صارت ثروته بعد موته سنة ١٧٢ الى الرشيد ، وكان أخوه جعفر يحسده فى حياته فحرمه الرشيد من ميراثه بعد مماته ، ولما أمر الرشيد بتصفح تركته وقبض أمواله وودائعه وجد فى ضمنها قناطير أو كميات هائلة من الاطعمة والمآكل المنتنة فسد بسببها هواء المربد ، وحسبك انه أهدى من البصرة الى « الخيزران » مائة وصيفة فى يد كل واحدة منهن جام من ذهب وزنه ألف مثقال مملوء مسكا ، ويستفاد من أقوال المؤرخين ان جانبا كبيرا من الثروة المذكورة جمع مما كان يهدى لصاحبها من الاقطار الغنية التى ولى أمرها أو ما جاورها من الاقطار ، ولا يخفى حكم الشرع فى مثل هذه الهدايا وهو أن ترفض ولا تقبل أو أن ترسل الى بيت المال ، ومجمل القول : يعد محمد بن سليمان أغنى أغنياء الامراء العباسيين ، من أبلغ أوصاف المؤرخين لهذه الثروة وصف الطبرى (٥١/١٠ ـ ٥٢) ، ومن أوفى المراجع فى أخبار محمد بن سليمان وأخبار اخوته جعفر واسحاق وموسى تأريخ بغداد للخطيب (٢٩١/٥ ـ ٢٩٢ و ١٣/٦ ، ٢٠ ، ٣٢٩) والمقاتل لأبى الفرج (٢٦٣ ـ ٢٦٨) ط النجف ، والكامل (٤٨/٦) وشرح النهج لابن أبى أبى الحديد (٤٧١/٣ ـ ٤٨٢) ، والنجوم الزاهرة (٦٥/٢ ، ٧٧ ، ٨٥، ٨٧) ويرجع أيضا الى الصفحة ١٠٨ من هذا الكتاب •

ويقال ان ابنـاء سليمان كانوا أعظم من ملوك بنى أميـة ، عنى الأول من خلفـاء بنى العباس بتكريمهم عناية بالغة ، وأبوهم سليمان بن على أول ولاة العباسيين على البصرة اختاره السفاح لهذه الولاية فى السنة الاولى من تأريخ الدولة العباسية وخلفه عليها بعد موته ابناه محمد بن سليمان مرة وجعفر أخرى(١) حتى عصر الرشيد •

الامير المحتفى به :

بالغ المؤرخون فى وصف حفاوة الرشيد بمحمد بن سليمان لما قدم عليه بعد بيعته فى بغداد فانها حفاوة تحـدثت بها الركبان ، وفيهـا اضاف الرشيد الى ما كان يتولاه أعمالا أخرى اذا استعرضناها اليوم وجدنا كل عمل منها دولة ذات شأن ، وحسبك ان منها البحرين وعمان واليمامة وكور فارس وكور الاهواز الى غير ذلك ، ولم يجمع هذا لاحد غيره ، وفى مقدمه المذكور الى بغداد زوجه الرشيد باخته العباسة وشيعه فى خروجه من بغداد الى « كلواذى » مع ان المهدى أباه عزله عن ولاية البصرة قبل ذلك •

(١) جعفر بن سليمان أخو محمد السالف ذكره لم يكن دون أخيه وجاهة ، ولى البصرة للمنصور ، ذكر المؤرخون أنه مات عن ثلاثة وأربعين ذكرا وثلاثين امرأة كلهم من صلبه فما ظنك بمن مات من ولده فى حياته ؟ ، وما رؤى جعفر راكبا الا ظن أنه خليفة ، وأمر جعفر بن سليمان قد عاينه عالم من الناس وعامتهم أحياء على ما يقول الجاحظ ، قال الهيثم : افضى الملك الى ولد العبـاس وجميعهم من الذكور ثلاثة وأربعون ومات جعفر بن سليمان عن مثل ذلك العدد من الرجال ثم قارن الجاحظ بين جعفر وقوم آخرين قرب ميلادهم وكثر نسلهم حتى صاروا كبعض القبائل الى أن قال : وولد جعفر اليوم أكثر من هذه القبائل ، وداود وسليمان من ولد جعفر من أشهر خطباء بنى العباس ، وكان سليمان بن جعفر بن سليمان واليا على مكة فكان أهل مكة يقولون لم يرد علينا أمير الا وسليمان أبين قاعدا وأخطب قائما ، وكان داود اذا خطب استحنفر فلم يرده شىء ، ملك جعفر بن سليمان ألفى عبد من السودان غير البيض وغير الاماء ، ولما مات محمد أخوه حرمه الرشيد من ارثه لانه كان يسعى به ويحسده ، ويقول المؤرخ ابن تغرى بردى فى تعليقه على ذلك ما هذا نصه : « هذا من شؤم الحسد فالحاسد ظالم فى صورة المظلوم » ، ولا ندرى لماذا يبلغ حسد الامير جعفر أخاه هذا المبلغ حتى يحرم من الارث ، فما كان جاهه وثروته بالشىء اليسير بيد ان الطمع لا حد له عند بعض الحـكام ، وأكثر مصـارع الرجال تحت بروق المطـامع ، وفى كتب الأدب بعض الاحاديث عن بخل هذا الامير راجع عن أخبار جعفر بن سليمان شرح النهج لابن أبى الحـديد (٣/٤٧١ ، ٤٧٤ ، ٤٨١ ـ ٤٨٢ ، ٤٨٧) ، والغـرر للوطواط (١٨٨) ، وانظر ذيل الصفحة السابقة •

لم يعلل المؤرخون هذه الحفاوة البالغة من قبل الرشيد بمحمد بن سليمان ، ومردها - فيما نرى - الى أموز فى طليعتها موقف محمد بن سليمان وأهل بيته من سياسة العباسيين مع العلويين والطالبيين حيث أيد آل سليمان سياسة البطش والتنكيل بالعلويين تأييدا تاما ، ومحمد بن سليمان هو الذى سلم موسى بن عبدالله بن الحسن - المعروف « بموسى الجون » ثالث الاخوين محمد وابراهيم - الى المنصور وهو لاجيء عنده فى البصرة ولم يكترث برابطة القربى التى تربطه به[1] ، أضف الى ذلك ان محمدا هدا ممن شهد وقعة فخ بنفسه ومعه أخوه جعفر بن سليمان وساهم فى سفك تلك الدماء ، وله فى الواقعة المذكورة أخبار غير قليلة[2]، وقد يقال فى تعليل هذه الحفاوة ان محمدا أسن من الرشيد بكثير ، ومن عادة الاول من خلفاء بنى العباس اكبار مشيختهم وتوقيرهم فى كثير من الاحيان ، هذا ومن الامور التى لاينكر ما لها من دخل كبير فى هذا التكريم ذلك الغنى الفاحش الذى عرف به محمد بن سليمان فقد رأينا ألطافه وهداياه الثمينة تترى على ال الرشيد فى بغداد من البصرة •

لم يمتنع عيسى بن موسى بعد عزله ونصب « محمد بن سليمان » خلفا له فى الكوفة من الاقامة فيها وفيما اليها من السواد أو فى برية النجف أو فى ضيعة له فى الرحبة محتفظا بزعامته ومكانته فى ولاية محمد بن سليمان اذ كانت الاقامة فى الكوفة أحب شيء اليه ، وهذه بغداد تم تخطيطها وانشاؤها وانتقل اليها المنصور فى تلك الايام فلم تجتذبه اليها كما اجتذبت غيره من الامراء وفضل عليها الكوفة ، ويصح ان يقال انه زعيم الفرات والكوفة - فى هذه الفترة - غير مدافع - ومرد ذلك الى أنه الشخص الذى يلى الخليفة فى المرتبة بحكم منصبه فى ولاية العهد ، والخلاصة ، كان ميالا الى الاقامة فى سواد الكوفة والفرات مفضلا لها على الامصار والحواضر الكبيرة ، وقد شب على كره التصنع فهو من قادة الجيش المطبوعين على التقشف والخشونة •

نكب عيسى بن موسى مرتين، وكانت نكبته الأخيرة فى بغداد، فكان لايرغب فى التردد عليها الى أن مات فى الكوفة سنة ١٦٧ وفيها دفن كما كان عمره لما مات خمسا وستين سنة ، ومات المهدى بعده بسنتين ، ومما هو جدير بالذكر ان المهدى عزل والى الكوفة

---

(١) المقاتل لأبى الفرج (٢٦٣ - ٢٦٨) ط النجف ، ومن المؤرخين الذين رووا قصة موسى هذه الطبرى وابن الأثير •

(٢) المقاتل (٣٠٢ - ٣٠٣ ، ٣٠٦ - ٣٠٧) •

لأنه أبى أن يمثله فى الصلاة على جنازته واعتبر ذلك غضا من مقامه ، وليس للمهدى فيما نرى أن يغضب من استخفاف الوالى المذكور بعيسى وآل عيسى فانه كان يخشى العقاب لو فعل ذلك ، وهذا المنهج هو منهج المنصور ومنهج المهدى من بعده فى سياسة العنف والشدة مع هؤلاء القوم ، فما ذنب الولاة والعمال ؟ ، ومن ذلك يتضح لنا على كل حال ان هذه القاعدة وهى ان عامل السلطان يعتبر ممثلا له فى كل شىء كانت من جملة القواعد السياسية المعروفة فى ديوان الخليفه[1] .

وفى اطمئنان عيسى وسكونه الى الاقامة فى الكوفة وهى عريقة فى نزعتها العلوية دليل على هول المصيبة التى أنزلها بالعلويين وأوليائهم ومن يضلع معهم ، وكان اولياء بنى الحسن فى الكوفة يتربصون بمعسكرات المنصور ، ولو غلب عيسى فى معركة « باخمرى » لاستولى العلويون على العراق بأسره ، والواقع ان المنصور كان يتهيأ لمغادرة العرأق ألى خراسان عندما حمى وطيس القتال بينه وبين ابراهيم بن عبدالله شرقى الكوفة[2] ، ولم يكن للعلويين ولكثير من أنصارهم بد من مغادرة الكوفة فى العصر المذكور ، وان عادوا اليها بعد ذلك وعادت الكوفة علوية كما بدأت الى اليوم ، أما الامويون فان لعيسى بهم نكاية لا تقل عن نكايته بالعلويين .

ظل عيسى حاقدا على بنى أمية يربى نشء بنى العباس على ذلك ويغذيهم ببغض القوم ويتحدث اليهم عن مساويهم الى أن مات ، ونه فى هذا الباب قصة طريفة يرويها حفيد له يدعى ابراهيم بن موسى بن عيسى كانت أمه أموية[3] ، وقد عرف هذا الامير العباسى مع ذلك بحمية وعصبية شديدة للعرب تدل على ذلك رواية عن ابن أبى ليلى وردت فى باب المتعصبين للعرب من كتاب العقد الفريد[4] ويستفاد من هذا الباب ان

---

(١) تجد قصة والى الكوفة هذا واسمه وكيف غضب المهدى عليه فى تاريخ الطبرى (٨/١٠ ـ ٩) ، وانظر بعض أخبار عيسى فى الاغانى (١٥/ ٣٢ـ٣٤) ط التقدم ، وفى الجزء (٨/١١١) بعض أخبار ابنه موسى .

(٢) يراجع عن ذلك تأريخ الطبرى (٩/٢٠١ ـ ٢٠٩) ، والمروج (٢/١٦٩) ، والمقاتل (١٦١ ـ ١٦٩) ط النجف ، والكامل (٥/٢٥٠ ـ ٢٦٣) ومعجم البلدان (٤/٥٨٢) ط لايبسك .

(٣) رويت هذه القصة فى شرح النهج لابن أبى الحديد (٢/٢١٤) ومنها يستنتج كيف كان الهاشميون والامويون يتوارثون الحزازات والعداوات خلفا عن سلف فى الفترة المذكورة ، وقد ساق ابن أبى الحديد هذا الحديث الطريف على طوله فى الكتاب المذكور .

(٤) (٢/٢٦٢) ط الجمالية .

بعضهم يرى فى الحمية للعرب والتنويه بمحامدهم عنصرا من عناصر الديانة وان الشعوبية ضرب من العقوق وبخس الحقوق .

هـدنة على دخن :

كان الامير المخلوع عيسى بن موسى كثير النسل ، ولد له من الذكور أكثر من ثلاثين ، وهو من هذا القبيل مثل غير واحد من أمراء بنى العباس ولكن آل عيسى من أكثر الامراء العباسيين تقلبا فى الولايات فان أربعة منهم أو أكثر حكموا مصر(١) ومما لا شك فيه ان الاول من خلفاء بنى العباس عنوا كثيرا باختيار ولاتهم من السلالة العباسية ، ولا مناص فى مثل هذه السياسة التى يقصد منها فى كثير من الاحيان ترضية الاهل والعشيرة من أن يتأثر مستوى الكفاءة فى الدولة وهذا ما وقع فعلا ، فان غير واحد من أولئك الولاة المنتسبين الى السلالة العباسية لم يحالفه التوفيق فى عمله ومنهم من عوقب بالعزل أو بالحبس الى غير ذلك ، فهذا العباس بن محمد والى الجزيرة عزله أخوه المنصور وصادره وحبسه لشكوى أهلها منه وكما ان المنصور أكثر من تولية أهله أكثر من عزلهم كذلك ، وهذا العباس بن موسى بن عيسى ـ الآتى ذكره ـ وهو والى المأمون على مصر لم يحالفه التوفيق فى ادارة شؤونها لا هو ولا من استنابه وهو ابنه عبدالله فلم تحمد سيرة ابنه المذكور ، وقد رأينا أيامه وأيام أبيه كثيرة الفتن والاضطرابات ثار المصريون فيها غير مرة(٢) وانشطروا فى بعضها الى شطرين تبعا لما وقع فى الشرق فى فتنة الاخوين ، شطر يؤيد الامين وآخر يعاضد المأمون فى هذه الفترة التى حكم فيها العباس بن موسى والى مصر من قبل المأمون .

---

(١) وهم موسى بن عيسى بن موسى وأخوه اسماعيل وابنه العباس وقد استناب موسى فى احدى ولاياته ابنه يحيى كما استناب العباس ابنه عبدالله ، وقد استعمل غير واحد من آل على على مصر وهم أقدم واعرق فى هذه الولاية من عصر السفاح ، النجوم الزاهرة (٢/١٦١ ـ ١٦٢) .

(٢) فى هذه الفترة ظهر مذهب محمد بن ادريس الشافعى وتغلب تدريجيا على مذهب مالك الذى كان شائعا فى الديار المصرية قبل ذلك ، فقد روى المؤرخون ان الشافعى وجماعة من أصحابه دخلوا مصر مع العباس بن موسى وفى قول مع ابنه عبدالله ، وكان ذلك مبدأ ظهور مذهبه وغلبته على مذهب مالك بن أنس فى مصر ثم ظهر مذهب الشيعة الفاطميين وتغلب على مذهب الشافعى الى أن زال بزوال الدولة الفاطمية ، يراجع عن دخول الشافعى الى مصر مع العباس بن موسى أو مع ابنه كتاب الولاة وكتاب القضاة للكندى (١٥٤) وخطط المقريزى (٤/١٤٥ ـ ١٤٦) والنجوم الزاهرة (٢/١٦١) .

الوالي الضعيف :

وما من شك ان العباس والى المأمون على مصر لم يكن على شيء من الحزم ، وقد استناب ابنه عبدالله على ولايته هذه[1] وكان أضعف من أبيه فلم يكتب له نجاح قط ولم يستطع تهدئة المصريين الثائرين ، وكانت البلاد تعج بالفتن والاضطرابات وهي فتن واضطرابات عنيفة لم تقع عفوا وانما فتن المصريون فيها تبعا لفتنة العراقيين وفتنة أبناء خراسان وفتنة أبناء الشرق باسره في الخلاف الناشب بين الاخوين على البيعة .

قد يقال لماذا لم يبادر العباس في الذهاب الى عمله في مصر ولماذا بقي في الشرق ؟ ففي هذا الصدد يقال ان العباس بقي في الشرق يتنقل بين بغداد ومكة والمدينة يشهد المواسم ويبث الدعوة للمأمون فهو معدود من أكبر أعوانه وأكثرهم نشاطا ، وقد ندبه المأمون في هذه الفترة العصيبة للقيام بمهام خطيرة في جملة من الامصار الكبرى ، فرأيناه أميرا على مواسم الحج معنيا مع بعض أعمامه ببث الدعوة للمأمون بيد ان الاحوال ساءت في الديار المصرية وقام حزب الامين بقسط لا يستهان به من النشاط فاضطر العباس أن يذهب الى مصر ولكنه لم يتغلب على الحزب المذكور حتى غلب الامين على أمره وقتل في بغداد ، والحقيقة أن فتنا سياسية خطيرة طغت على الدولة العباسية بعد موت الرشيد فانقسم الناس شيعا وأحزابا في الشرق والغرب حزب يظلع مع الامين وآخر مع المأمون ، وكان لمصر قسط لا يستهان به من الفتن المذكورة ولم تهدأ في أيام حاكمها العباس المذكور حتى مات مسموما وقيل قتله الجيش[2] ، ولنا ان نقول ان البيت العباسي نفسه انشطر في هذه الفترة الى شطرين شطر يؤيد المأمون ومنهم آل عيسى بن موسى وشطر آخر يؤيد الامين ومنهم بعض أبناء صالح بن علي كعبدالملك بن صالح الزعيم الهاشمي المشهور .

نظام الخلافة العباسية :

من ذلك يتضح لنا ان رابطة الخلافة العباسية كانت تنتظم الدولة من أقصاها الى

---

(١) من أوفى المراجع للاطلاع على تأريخ ولاية العباس وابنه عبدالله نيابة عنه وما جرى خلال ذلك من الفتن والاضطرابات في مصر كتاب الولاة وكتاب القضاة للكندي (١٥٣ ـ ١٦٥) ، ويراجع عن مهام العباس المذكورة في الشرق وامرته على المواسم ومساهمة عمه داود بن عيسى في بث دعوته الكامل لابن الاثير (٦/١٠٧ ـ ١٠٨ ، ١١٢ ، ١٢٢) .

(٢) النجوم الزاهرة (٢/١٦١ ـ ١٦٢) .

أقصاها وهي تحبو الى أوج مجدها وسؤددها في عصر هارون الرشيد وعصر المأمون فاصبحت الدولة وحدة سياسية متماسكة اذا اضطربت منها ناحية اضطربت لها سائر النواحي واذا تألم عضو سرى الالم الى بقية الاعضاء فما ان ذرت فتنة ألاخوين في ناحية الشرق من خراسان الى العراق وما أن اختلف الاخوان على ألبيعة حتى تسربت ألقلاقل والاضطرابات من هناك الى الشطر الغربي في جزيرة العرب من الشام والجزيرة وفي مصر واليمن وفي غير ذلك من الاقطار حيث تتطاحن الاحزاب السياسية ٠

موسى بن عيسى :

ما أكثر آل عيسى وأبناءه من صلبه [١] على أن أنبلهم وأجلهم على ما يقول المؤرخون « موسى بن عيسى بن موسى » وهو الذى شهد محنة أبيه في أيام المنصور وابنه المهدى ، وكان أهل موسى يرشحونه للبيعة ، تقلب في الولايات على أيام المنصور والمهدى ثم في أيام الرشيد ، ولى الكوفة وسوادها ومكة والمدينة وافريقية ومصر ثلاث مرات للرشيد [٢] ٠

قيل لموسى ـ وكان متواضعا ـ تواضعك في شرفك خير من شرفك ، فقال ان قومنا ـ يعنى بنى هاشم ـ يقولون ان التواضع أحد مصايد الشرف [٣] . وعلى أى حال لم تنقطع صلة موسى بديوان الخلافة كما انقطعت صلة أبيه بهذا الديوان من بعد محنته المعروفة فكان خلفاء المنصور كالمهدى والرشيد ثم المأمون يعنون بآل عيسى وبموسى وأولاده منهم خاصة فيعهدون اليهم بالولايات والاعمال الكبيرة ، وقد رأيت ما هى الاعمال التى وليها موسى للمهدى ، وهذا الرشيد يستعمله مرارا ثلاثا واليا على مصر كما يستعمل أخاه اسماعيل بن عيسى من بعده فيها [٤] وهذا المأمون يستعمل العباس

---

(١) انظر عن أسماء بعض أولاد عيسى بن موسى تأريخ الطبرى (١٠/٩ ، ٢٩) ، والكامل (١٦٥/٦ ـ ١٤٦) وشرح النهج (٤٨٨/٣) ويلاحظ شيء من الاضطراب في سياق هذه الاسماء ٠

(٢) شرح النهج (٤٨٨/٣) ٠

(٣) يراجع عن أخبار موسى بن عيسى في ولايته وأعماله النجوم الزاهرة (٤٥/٢ ، ٦٢ ، ٦٦ ـ ٦٨ ، ٧٠ ـ ٧١ ، ٧٨ ـ ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٨ ـ ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٥) ، والخطط المقريزية (٩٥/٢ ـ ٩٦) ، وعن ولاية أخيه اسماعيل بن عيسى على مصر النجوم الزاهرة (٦٦/٢ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ـ ١١٠ ، ١٣٣) ٠

(٤) ولاه الرشيد مصر سنة ١٨٣ تجد ذلك في الخطط المقريزية (٩٧/٢) ٠

ابن موسى كذلك على الديار المصرية ، والخلاصة : عنى هؤلاء الخلفاء فى هذا العصر بآل عيسى أكثر من عنايتهم بآل على فى بعض الاحيان اذا استثنينا أبناء سليمان بن على وهادنوهم وان كانت هدنة على دخن ، وشتان بين البيتين فى الواقع فآل عيسى قوم نزلوا عن حقهم فى البيعة وتم حسم النزاع بينهم وبين ديوان الخلافة صلحا وسويت قضيتهم تسوية سلمية لم ترق فيها الدماء ، واما آل على فان فى سلفهم وفى خلفهم بعد ذلك من قاتل قتالا مريرا فى سبيل دعواهم وحقهم الموهوم فى البيعة كما فعل عبدالله ابن على وكما فعل أو حاول أن يفعـل ذلك عبدالملك بن صالح فى عصر الرشيد وفى عصر المأمون ، وكما حاول آخرون من آل على ذلك فلم يقدر لهم التوفيق ، وما أبعد الفرق بين موقف الفريقين فان آل عيسى أصق وأقرب الى بيت المنصور وأبنائه ولذلك وجدناهم أشد عطفا وأكثر حدبا على الخلافة العباسية .

موسى بن عيسى وعلية بنت المهدى :

ومن المرجح جدا ان المصاهرة بين البيتين بزفاف الاميرة عليه صاحبـة الاخبـــار والحكايات الى هذا الامير تمت فى هذا العصر كما زفت أختها العباسة الى محمد بن سليمان فى العصر المذكور .

لم يعن المؤرخون كثيرا بهـذا الحادث ـ أى قران علية ـ ومتى وقع وكيف وقع على كثرة ما رواه الرواة من أخبار علية فى الشعر وفى الأدب وما الى ذلك (١) وانـما يلمحون الى قرانها لمحا وأكثر من ذلك اننا لا نجد للاختين العباسة وعلية ذكرا ما فى قسم النساء البغداديات من تأريخ بغداد للخطيب فقد اقتصر على ذكر الخيزران وزبيدة وزينب بنت سليمان وزينب حفيدة المنصور (٢) .

---

(١) من المؤرخين الذين أشـاروا الى زواج موسى بعليـة أبو الفرج فى الاغـانى (٩/٩٠) ط التقدم قائلا كانت عليه بنت المهدى عند موسى بن عيسى ولم يزد على ذلك وأورد ابن الاثير وفاتها بين وفيات سنة ٢١٠ قائلا كان زوجها موسى بن عيسى وولدت له ، الكامل (٦/١٦٤) ، ولم تكن علية زوجته الوحيدة بل كانت لموسى زوجة أخرى من الامويات ولدت له كذلك ، واخبار عليه فى كتب الادب غير قليلة ، من ذلك الاغانى (٩/٢٩) ولها ترجمـة فى فوات الوفيـات (٢/١٢٤ ـ ١٢٦) ، وانظر عن بعض أخبارها زهر الآداب للحصرى (١/٤٤) .

(٢) (١٤/٤٣٠ ، ٤٣٣) .

خطأ فى التقدير :

أغاضت بعض أعمال موسى بن عيسى أو موسى الصغير اثنين من الخلفاء هما الهادى والرشيد فغضبا غضبا شديدا وعاقباه ، والى قسوته البالغة فى واقعة فخ والى استعجاله فى قتل صاحبها الحسين بن على وتنكيله به مرد غضب الهادى بن المهدى ، ومن غرائب الاتفاق ان يقود موسى بن عيسى هذا بعوث العباسيين على العلويين الثائرين فى هذه الواقعة سنة ١٦٩ كما قاد أبوه عيسى من قبل بعثة المنصور الى قتال ابناء الحسن فى المدينة سنة ١٤٥ ، وقد بلغت الفترة الواقعة بين المعركتين أربعا وعشرين سنة .

شارك فى وقعة فخ من جانب العباسيين أمراء يمثلون مختلف البيوت العباسية كآل على وآل محمد وغيرهم كما شارك فيها من ناحية العلويين قوم يمثلون مختلف البيوت العلويين حسنيين وحسينيين وغيرهم كذلك .

كانت نكاية موسى بالثائرين فى هذه الواقعة لاتقل فظاعة عن نكاية أبيه فى الواقعة السابقة ان لم تزد عليها اذ قتل كما لايخفى صاحب فخ وقتل معه عدد من وجوه أهله بالغ موسى فى التنكيل ببعضهم ظانا ان ذلك يرضى الهادى ويرفع من مقامه عنده بيد أنه أخطأ فى تقديره وجاءت الامور على خلاف ما يريد فقد رأينا الهادى على غبطته بظفره فى هذه الواقعة وعلى أمره بقتل بعض الاسرى فيها صاحبا ثائرا موبخا قادة جيشه بمجرد رؤية رأس الحسين بن على صاحب فخ قائلا لهم : « كأنكم والله جئتم برأس طاغوت من الطواغيت، ان أقل ما أجزيكم به ان احرمكم جوائزكم »(١) ، هذا ما قاله الهادى ثم حرمهم وصادر أموال موسى ولم تعد اليه حتى مات فندم هذا الامير على عمله ولات ساعة مندم .

عبر الهادى بكلمته هذه عن تأثره لسوء تصرف قادة عسكره ولشعوره بأن قادة الجيش أهانوه واستحفوا به وتجاوزوا الحدود فى النكاية بذوى قرباه ، وهذه الكلمة من الهادى بن المهدى تذكرنا بأبيات البحترى من قصيدة مشهورة له فى صلح بنى تغلب الذى جرى على يد المتوكل ، والابيات تدل على ان للرحم والقرابة أثرها فى تحريك العاطفة وتناسى الحزازات فى بعض الاحيان(٢) .

---

(١) روى هذه الكلمة ابن الأثير فى الكامل (٦/٣٨) .

(٢) فى هذه القصيدة يقول البحترى :

وفرسان هيجاء تجيش صدورها ... باحقادها حتى تضيق دروعها

تقتل من وتر اعز نفوسها ... عليها بأيد ما تكاد تطيعها

اذا احتربت يوما ففاضت دماؤها ... تذكرت القربى ففاضت دموعها

والغالب ان الهادى كان يفضل حسم هذا النزاع صلحا أو سلما ولم يكن ذلك منعذرا لولا تعسف قادة الجيش وقسوتهم ، وما أبعد الفرق بين هؤلاء القادة وقادة خلفه الرشيد اذ حدث للرشيد مثل ما حدث لاخيه المذكور مع يحيى بن عبدالله بن الحسن فسوى الامر صلحا[٢] ، فمن الخطأ ظن من يظن من امراء الجيوش أن التمثيل والنكاية الشديدة خير وسائل النجاح ، هذا وقد مات موسى الهادى بعد هذه الواقعة بسنة واحدة[١] .

يعزله بأخس من على بابه :

هذا ما وقع لموسى الصغير مع الهادى اما ما وقع له مع الرشيد بعد ذلك فانه أدهى وأمر ، تلقى الرشيد أخبارا سيئة عن موسى واليه على مصر وأنه يحاول الخلع فاتهمه وعزله عزلا قبيحا على صورة فيها شيء غير قليل من المهانة . أى عزله بعامل أو كاتب مغمور كان يكتب للخيزران ، هذا وللرشيد قسم معروف فى قضيته مع موسى اذ قال : « والله لاعزلنه بأخس من على بابى » ثم استدعى هذا العامل ودفع اليه رسالة تتضمن عزل الامير ، وكان ذلك آخر عهده بالولاية وزايله الغرور بذلك الملك فتمثل بالآية الكريمة قائلا : قاتل الله فرعون فهو القائل « أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى » فهذه القصة قصة عزل الامير موسى على هذا الشكل يصح ان تكون رمزا لمنتهى ما يصل اليه الاستقرار والنضوج السياسى فى الدولة[٢] .

هذا ويلاحظ ان هذا الكاتب المغمور الذى عزل به موسى واسمه « عمر بن مهران » أصلح الشؤون المالية التى رآها مختلة فى القصر المصرى اذ كان خبيرا بالجباية والخراج ، ومن أجل ذلك استخدمته الخيزران ، وقد ظفر الباحثون المعاصرون بوثائق مخطوطة مؤرخة سنة ١٧٦ تؤيد ما رواه المؤرخون عن المهارة والخدمة التى أداها كاتب الخيزران فى مصر للدولة العباسية ، وفى ولاية ابن مهران على مصر أقوال ولا ذكر له فى كتاب

---

(١) راجع عن أسماء أمراء بنى العباس وأسماء وجوه العلويين الذين شاركوا فى وقعة فخ وعن غضب الهادى على الأمير موسى وتقريعه له وعن اضطرابه بعد الواقعة تاريخ الطبرى (١٠/٣٠ ـ ٣٢) والمروج (٢/١٨٣ ـ ١٨٤) والمقاتل ط القاهرة (٤٥٠ ـ ٤٥٢ ، ٤٥٤) ، وانظر ذيل الصفحة (١١٩) من هذا الكتاب .

(٢) يرجع فى ذلك الى ذيل الصفحة اللاحقة .

الكنـدى ولا فى الخطط المقريزية ، عـلى ان ذكره ورد فى تأريخ الطبرى وفى الكامل لابن الاثير ، هذا ولعزل الأمير موسى بأمر الرشيد على هـذه الكيفية بكاتب الخيزران قصة تحدثت عنها كتب التاريخ[1] •

طور جـديد من النزاع :

جـد فى الدولة صراع جديد بعد ذلك الصـراع القـديم • جد هذا الصراع بين الخلفاء وبطن آخر من بطون بنى العباس ، وحيـاة الدولة كحياة الأفراد ضـرب من الصراع والنزاع • على أن هـذا النزاع الجديد يختلف عن القديم فهو صراع عنصرى عنيف شجر بين العرب وزعمائهم من ناحية وبين الخلفاء وانصارهم من الخراسانيين من ناحية أخرى فامتاز به عصر الرشيد ثم عصر كل من ولديه الأمين والمأمون ، وللأمراء من أبناء على بن عبدالله بن عباس قسط كبير فى اثارة هذا النزاع الذى عاد كما بدأ بينهم وبين الخلفاء بيد أنه تقمص ثوبا آخر اعنى ثوب التظلم والشكوى من سياسة الخلفاء فى تقديم الاعاجم من خراسانيين وغيرهم على العرب والمطالبة بالعدل والمساواة ، وبين الخلفاء والأمراء من آل على نزاع قديم بدأ ــ كما لا يخفى ــ حينما طالبوا بحقهم فى البيعة ، ومن أجلها ثار عبدالله بن على عم المنصور واعلن الدعوة الى نفسه وآزره غير واحد من اخوته ومنهم من عهـد اليـه بولاية العهد وهو عبـدالصمد بن على يقال له فى كتب التاريخ والأنساب « قعدد بنى العباس »[2] •

---

(١) من رواة هذه القصة الطبرى فى تأريخه (١٠/٦٠ ــ ٦١) وابن الأثير فى الكامل (٦/٥٠) ونقلها وعلق عليها الوطواط فى الغرر بما نصه « وانما ذكرنا هـذه الحكاية لما فيها من التنبيه على ان الرتبة النفيسه اذا وليها ذو القدر الحقير والنفس الخسيسة لايكون ذلك قادحا فى جلالتها ولامغيرا لها عن حالها وانما ذلك بحسب ماينظر اليه الزمان » وفى هذا الباب يروى الوطواط قول الخوارزمى « لا حقير فى الولاية والعمالة ولا كبير مع العطلة والبطالة » ويلى ذلك فى كتابه الغرر المذكور باب عنوانه « ذكر من نال المراتب السنية من ذوى الأعراق الدنية » ، انظر ص (٤٤ ــ ٤٥) من الكتاب المذكور •

(٢) القعدد هو قريب الآباء من الجد الأكبر ، وهكذا كان عبدالصمد بن على فانه عاش الى زمان الرشيد مع انه أحد أعمام السفاح ، وقد ألحق الأوائل بالأواخر من أمراء البيت العباسى له ترجمة فى تأريخ بغداد للخطيب (١١/٣٧ ــ ٣٨) قال فيها كان أقعد الهاشميين بالنسب ادرك السفاح وهو ابن أخيه ثم أدرك ابا جعفر ثم ادرك المهدى وهو عم أبيه ثم ادرك الهادى وهو عم جده ثم ادرك الرشيد وكانت اسنانه صمتا وقد دفن باسنان الصبا على ما يقولون ، كما انفرد بخلال ذكرها المؤرخون ، كما سيجيء •

يلاحظ ان الأوائل من خلفاء بنى العباس ومنهم السفاح والمنصور وبعدهما المهدى والهادى والرشيد عنوا بعمومتهم وأبناء عمومتهم ومشيختهم الذين حرموا من البيعة فكان جل عمال السفاح على الولايات من أعمامه وأبناء عمومته ، ومثله فى ذلك المنصور والمهدى والهادى والرشيد ، والحقيقة أن الرشيد كان يعطف كثيرا على مشيخة بنى العباس ويعنى برفاههم فمن كان منهم كفؤا للخدمة استخدمه ومن لم يكن كفؤا أغناه وكفاه ، وقد يستخدمون غير الأكفاء منهم تألفا لقلوبهم ، وكيف لا يعنى الخلفاء بقوم يعدهم الناس أكفاء لهم ولا ينكرون سابقتهم فى تمهيد الملك وتوطيد قواعده ، ولبعضهم أحزاب تؤيدهم فى طلب الخلافة .

الى فراغ بعض هؤلاء الأمراء وعطلتهم وضيق ذات يدهم أحيانا مرد عناية الخلفاء بهم فلا مناص من صرف أذهانهم عن التفكير فى السياسة العليا وشغلهم عن ذلك بالولايات والمناصب أو باقطاع القطايع واغداق المال فان الذهن البشرى اذا فرغ من الخير تسرب اليه الشر ، وأى شر اعظم من الطموح الى البيعة والتحدث بها فى العصر المذكور حتى ان كثيرا من هؤلاء الأمراء خولوا سلطانا واسعا فكانوا يتصرفون تصرف الخلفاء فى الولايات فيعطون ويمنعون ويصلون ويقطعون ويرفعون ويضعون كما يفعل الخلفاء(١)

فرق تسد :

طالما خشى الخلفاء بادرة هؤلاء الامراء من أبناء جلدتهم أو ذويهم فان بينهم الكفوء والنظير وفيهم الحاسد أو المطالب بالبيعة وفيهم المتنكر المعارض . لذلك اعتمد الخلفاء ووزراؤهم سياسة التفرقة وبث الكراهية بين ابناء هذا البيت أو ذاك كما فعلوا فى التفريق بين بيت الأمير عيسى وأولاده وبيت أبناء على وأولادهم فاذا غضب ديوان الخلافة على آل عيسى واذا جفا الخلفاء واحدا منهم جيء با ل موسى وبالعكس واذا تقدم هؤلاء تأخر أولئك ، فنحن نرى ديوان الخلافة مع هؤلاء مرة وعلى أولئك تارة ونحن نراهم يضربون طائفة بطائفة وأسرة باسرة نزولا على مقتضيات مصالحهم السياسية ومصلحة الديوان ، طبقا لقول من قال « فرق تسد » ويستفاد من كتب التاريخ أن آل عيسى كانوا يكرهون

(١) راجع ص (١٥٢) من هذا الكتاب .

آل على ويتهمونهم بالدس عليهم فى ديوان الخلافة(١) ، وقد كتب لهذه السياسة سياسة التفرقة بين الأمراء التى عنى بها الصدر الأول من الخلفاء شيء غير قليل من النجاح فاخفقت مساعى الساعين منهم الى سدة الخلافة .

لم يقف هؤلاء الخلفاء عند هذه السياسة بل كانوا يلجأون الى العنف والارهاق والى السجن والاعتقال أحيانا غير قليلة ، ومما لا شك فيه أن تمادى الخلفاء الأول فى اختيار عمالهم وأصحاب اعمالهم من ذوى قرباهم ترك - كماقلنا من قبل - أسوأ الأثر فى مستوى الكفاءة العامة وفى ادارة شؤون الدولة طبقا لمقتضيات الانصاف والاصلاح فان عددا من هؤلاء الامراء العباسيين لم تحمد سيرتهم وطالما أفضت سياستهم الى القلاقل والاضطرابات فى الأقاليم كالشام والجزيرة ومصر وغير ذلك .

أشهر بيوت العباسيين :

لعل أشهر بيوت العباسيين بعد الخلفاء آل عيسى بن موسى وابناء على بن عبدالله بن عباس أعمام المنصور العشرة المشاهير ، كانت لأمراء هذين البيتين كلمة نافذة فى ديوان الخلافة ، ويلاحظ أنهم خصوا بولايات الامصار فى القسم الغربى من المملكة كجزيرة العرب ومصر والشام . وولايات الثغور والعواصم والمغازى فى الأقطار المصاقبة للعراق وبلاد الجزيرة من الشمال ولبلاد الروم من الجنوب ، كانت الأيام مواتية لمعظم آل على من عهد السفاح والمنصور اذا استثنينا ما وقع لعبدالله بن على وبعض اخوانه فقد عهد اليهم الخلفاء بالولايات الجليلة ، ولى مصر والشام منهم صالح بن على غير مرة ووليها ثلاثة من أبنائه هم عبدالله والفضل واسمعيل أبناء صالح بن على وأخوه اسحق ، ثلاثة من أولاد

---

(١) راجع ص (١٤٨) من هذا الكتاب ، واليك مثلا من امثلة الحسد بين البيتين رواه ابن الأثير فى الكامل (٥/٢ - ٣) ، وقد جاء فيه ما نصه : « عزل المنصور أخاه العباس بن محمد عن الجزيرة سنة ١٥٥ وغضب عليه وغرمه مالا حتى غضب على عمه اسماعيل فشفع به عمومة المنصور وضيقوا عليه حتى رضى عنه فقال عيسى بن موسى للمنصور : « أرى آل على - وان كانت لعمك سابقة - يرجعون الى الحسد لنا فمن ذلك انك غضبت على اسمعيل بن على منذ أيام فضيقوا عليك حتى رضيت عنه ، وأنت غضبان على أخيك العباس منذ كذا فما كلمك أحد فيه ، فرضى المنصور عن أخيه العباس .

صالح فقط يتقلدون مصر . تقلدها بعضهم غير مرة[1] ، وليس ذلك بالامر القليل فان ذلك يدل على مزيد من الثقة والاطمئنان فى أكثر الاحيان أو على ضرب من سياسة الترضية وتأليف القلوب ، وقد تسنى للمقيمين من آل علي فى العراق ان يجمعوا ثروة منقطعة النظير فى عصر العباسيين بل فى كل العصور أما المقيمون فى الشام ومصر والحجاز فانهم تقلبوا فى شتى الأعمال والولايات .

فسحة الامل

لم يقنط آل علي[2] أعمام الخلفاء الاول ولم ييأس أبناؤهم من صيرورة البيعة اليهم يوما ما ، فظل الحسد يأكل قلوب نفر من زعمائهم بعد تلك الضربة القاصمة التى نزلت بهم فى أوائل عصر أبى جعفر وظل بعضهم يتحين الفرصة ويتطلع الى انتزاع البيعة مدلين بسابقتهم والجهد الذى بذله أولهم قائلين انهم أولى وأحق بالامر ، وقوام هذا الفريق نزلاء مصر والشام وولاتها من آل علي ولهم حزبهم ودعوتهم وحججهم التى يحتجون بها فى هذا الشأن ، وبذلك خالفوا نزلاء العراق من قومهم فهؤلاء ــ أعنى نزلاء بغداد والبصرة من آل على ــ أذعنوا للواقع تاركين الخلاف غير معنيين بسياسة الدولة العليا منقطعين لخدمة الخلفاء متضامنين معهم حتى سكن اليهم القوم ووثقوا بهم وأفادوا من سيرتهم هذه فوائد جليلة .

---

(١) عهد السفاح الى صالح بن على بولاية مصر بعد فتحها على يده سنة ١٣٣ أول مرة ووليها فى المرة الثانية من قبل السفاح سنة ١٣٦ ، انظر عن ذلك كتاب الولاة والقضاة للكندى (٩٧ ، ١٠٢) ، وانظر عن ولاية ابنائه فى عهد المنصور والمهدى والهادى والرشيد وهم الفضل وعبدالملك واسمعيل وابراهيم ابناء صالح ص (١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣٥ ــ ١٣٦ ، ١٣٨) من الكتاب المذكور ويراجع عن ولاياتهم خطط المقريزى والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى .

(٢) من أوفى المراجع فى التعريف بآل على بن عبدالله بن عباس وبأسمائهم وأحوالهم كتاب المعارف لابن قتيبة الدينورى (١٦٣ ــ ١٦٤) ، ولا تخلو أمهات كتب التاريخ والادب عن ذكرهم كتارخ الطبرى (٣٠٨/٩) والمروج (١٧٥/٢) والبيان والتبيين (٢٦٦/١ ــ ٢٦٧) والامالى للقالى (٢٦٩/١ و١٨٤/٣ ، ٢٠٠) والكامل لابن الاثير (١٩٥/٥ ، ٢٣١ ، ٢٤١ ، ٢٧٩) ، ويراجع فى هذا الباب كتاب الاغانى لابى الفرج وتاريخ بغداد للخطيب ومهذب تاريخ دمشق لابن عساكر وشرح النهج لابن أبى الحديد .

والخلاصة : ظل الجفاء يتفاقم بين البيتين أو بين أبنـاء محمد بن علي وأكثر أبنـاء علي بن عبـدالله بن العبـاس وهم القـوم الموتورون بميتة أخيهـم عبـدالله بن علي على الشـكل الذي مات به في أيام المنصـور ومنهم عبـدالصمد وصالح واسـماعيـل وغيرهم الى أن تضـاءلت الثقـة وضعف الاطمئنان بين أمراء البيتين بسـبب الانطـواء على الخلاف وعقد النية على المطالبـة بالحقوق وقد بلغ الحسـد مبلغـه من آل علي حتى كان أثره يظهـر على الوجوه والعيـون وعلى فلتات الالسـنة في مجالس أمراء بني العباس : ولا نبالغ اذا قلنا أن هذا التنافس والاضطغان بين أمراء البيتين شيبهما وشبابهما كان معروفا لدى رجال القصر العباسي ولدى البطانة والحاشية والوزراء ، وربما جنح الى استغلاله والاستفادة منه فريق من أرباب الدواوين والوجوه والمقربين(١) .

تحرير محل النزاع

لم يعن المؤرخون كثيرا برواية حجج الفريقين المتنازعين من بني العباس وايراد مستنداتهما في النزاع المذكور ، ومامن شك أن هناك مستندات وحججا تقارع بها الحزبان في هذا العصر ، ويلاحظ أن كتب التاريخ أغفلت الاشارة اليها غالبا نزولا على سياسة الحزب الحاكم ، وهم آل محمد بن علي ، بيد أن بعض المؤلفين ومنهـم الجاحظ انفردوا بتسجيل هذه الاحتجاجات سواء ما كان منها لآل علي أو عليهم في فصول نقلها ابن أبي الحديد(٢) ، ومن المفيد أن نوجز لك هـذه الاحتجاجات ، فآل علي أو أعمـام الخلفـاء يقـولون : لماذا صـار أخوهم محمد وصـار أبنـاؤه أحق بالدعوة بالخلافة من اخوته وأبنائهم ؟ فاذا جاء ذلك من ناحيـة الارث فالاقرب الى الجـد أحـق بالارث وان كان الاستحقاق لمكان السن والتجربة فالعمومة أولى بذلك(٣) .

هذا بعض ما يحتج به آل علي فيرد عليهم خصومهم قائلين : ليس ارث الامـور المعنوية وارث المواهب والكفايات كارث المقتنيات المادية ، فارث الخلافة والرتبة والسيادة غير ارث المال ، ومعنى ذلك ان الابن البارع النجيب أولى بالامر من الابن الخائب المغمور

---

(١) لاحظ ما جاء في الصفحتين (١٥٩ ، ١٦٠) .

(٢) شرح النهج (٣/٤٨٠ ، ٤٨٨ ـ ٤٨٩) ويلاحظ تشويش واضطراب في سياق بعض الاحتجاجات .

(٣) المصدر المذكور (٤٨٠)، وراجع عن بعض مستندات عبدالله بن علي ذيل الصفحة (١٢٩) من هذا الكتاب .

ولا عبرة بالسن ، وحتى اذا اعتبرنا السن والطبقة فان ما كان بين محمد بن علي وأبيه علي أربعة عشرة سنة[1] حتى أنه ليعسر التمييز بينهما ، ويقولون : مما ينفرد به محمد ابن على عن اخوته ان العباس ولده مرتين[2]، وكان بعض ولد محمد أسن من عامة ولد علي ، ثم يذهب أنصارهم مذهبا آخر فى تفضيلهم على أعمامهم ودعم حججهم فى هـذا النزاع قائلين ان محمدا تلقى الامر عن أساس وقاعدة مقررة ووصية انتقلت اليه من أبى هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية ـ على ما يزعمون ـ، ومن هذا نعلم أن أنصار آل محمد من العباسيين يتجحرون واسعا فاذا كانت الوصية انتقلت اليهم من بعض آل أبى طالب فكيف ارتكبوا منهم تلك الافاعيل ولماذا خرج عليهم هؤلاء جيلا بعد جيل !

هذه خلاصة ماتركه القوم من الحجج ، ومن رأينا أن احتجاج آل محمد بالوصية لايصار اليه بمثل هذه السهولة فان وصية أبى هاشم ـ ان صحت ـ يدعيها غير واحد[3] من الهاشميين ، وفى وسع آل محمد وأنصار دعوتهم أن يحتجوا بغير ذلك ، فى وسعهم ان يحتجوا بما كان عليه هذا الزعيم الهاشمى من ثقوب الرأى وذكاء الفؤاد وأنه كان أمضى اخوته فى نشر دعوتهم وتنظيمها واذاعتها ، وهو صاحب الرأى المعروف باختيار

---

(١) ناقش ابن خلكان هذا الرأى مناقشة لا تخلو من الدقة والتحقيق ، يراجع عنها ترجمته لمحمد المذكور ، وفى باب تقارب السن بين الوالد والولد يقول ابن قتيبة كان بين عمر بن العاص وابنه عبدالله اثنتا عشرة سنة ، راجع كتاب المعارف (٢٥٦) ٠

(٢) كانت أم محمد « العالية » بنت عبيدالله بن العباس ولم يكن لاحد من اخوته مثل ذلك ٠

(٣) يدعى وصية أبى هاشم جماعة منهم محمد بن على بن عبدالله بن عباس وقد مات أبو هاشم عند القوم فى الحميمة وحضر وفاته من حضرها من الطالبيين والعباسيين ، من الفريق الاول عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب فخرج يدعى وصية أبى هاشم أيضاً ، ومن رأى النقيب أبى جعفر الذى يروى أبن أبى الحديد أقواله فى شرح نهج البلاغة أن محمد بن على العباسى كان صادقا فى دعوى الوصية المذكورة دون عبدالله بن معاوية وأنه ـ أعنى محمد بن على ـ الذى أفضى أبو هاشم اليه بالامر ودفع اليه كتبه، ومن بينها « صحيفة الدولة » وأمر الشيعة بالاختلاف اليه ، ومن ذلك تعلم شيئا عن الاختلاف فى هذه الوصية ، هذا وأخبار عبدالله بن معاوية المطالب بالخلافة استنادا الى الادعاء بهذه الوصية كثيرة فى كتب السير والتواريخ ، ويلاحظ تضارب آرائهم فيه ، ومن أصحاب السير المنددين بعبدالله جدا أبو الفرج الاصفهانى فى « مقاتل الطالبيين » وهو الذى يقول فى بعض كلامه عنه « لولا أن يظن أن خبره لم يقع الينا لما ذكرناه » ثم ذكر طرفا من أخباره قائلا انه =

المشرق وتفضيل مطلع الشمس على مغربها لنشر الدعوة العباسية فكان الامر كما قال فانه أصاب المحز وحالف دعوته النجاح(١) .

منهج الموادعة

انقسم آل علي ـ كما قلنا ـ الى فريقين ، منهم أمراء موادعون أومسالمون ومنهمأمراء منا بذون أو معارضون ، ويذكر في طليعة الموادعين من آل علي الاميران عيسى وسليمان وبنوهم من نزلاء العراق وعددهم غير قليل، فأما عيسى بن علي فانه آثر الاعتزال والزهد في السياسة والابتعاد عن الخلاف والانزواء في قصوره وقطايعه الواسعة ببغداد ، ولهذه العلة

= تحرك بالكوفة أيام يزيد الناقص أي آخر عصور الدولة الاموية ثم صار الى أصبهان واستولى على فارس ومعه من معه من وجوه الهاشميين والامويين كالمنصور والسفاح بيد أن أصحاب عبدالله هذا خذلوه ولم يجيبوه الى قتال الامويين فلجأ الى خراسان وفيها أبو مسلم الخراساني فحبسه الى أن مات مسجونا « بهرات » سنة ١٣١ وذلك بعد خروجه باربع سنين ، راجع عن خروجه مقاتل الطالبيين الطبعة الحديثة « ١٦١ ـ ١٦٩ » والطبري (٤٨/٩) وتاريخ أصفهان (٤٣/٢) والاغاني (٧٣/١١) والكامل لابن الاثير (١٣١/٥) وانظر عن النزاع في دعوى هذه الوصية شرح النهج لابن أبي الحديد (٢١١/٢ـ٢١٢) وراجع أيضا المروج للمسعودي (١٤٣/٢ـ١٤٤) وكتاب الفرق للنوبختي (٢٩ـ٣٠) ووفيات الاعيان (١١٥/١ ، ٤٥٤ـ٤٥٥)، وعمدة الطالب ط النجف (٢٢) وقد مدحه صاحب العمدة ولم يذمه قائلا : قبره بهرات في المشرق يزار الى الآن رأيته سنة ٧٧٦ ، وقد عثر في عصرنا هذا على نقود مضروبة باسم عبدالله بن معاوية المذكور ، والغالب أنها نقود ضربت باسمه بعد استيلائه على الري وبعض الاقاليم الفارسية .

(١) اختلف أصحاب الدولة الهاشمية ودعاتها في تعيين أصلح البلدان لبث دعوتهم فاختار لهم محمد بن علي « خراسان » في كلمة مشهورة تروى عنه ـ مفضلالها على غيرها من البلدان ، وهذا هو نص الكلمة « أما الكوفة وسوادها فهناك شيعة علي واما البصرة فعثمانية تدين بالكف وتقول : كن عبدالله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل ، واما الجزيرة فحرورية مارقة أعراب كأعلاج ومسلمون في أخلاق نصارى وأما أهل الشام فلا يعرفون الا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان عداوة لنا راسخة وجهلا متراكما ، واما أهل مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر ولكن عليكم بخراسان فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وصدورا سليمة وقلوبا فارغة لم تتقسمها الاهواء ولم تتوزعها النحل ولم تشغلها ديانة ولم يتقدم فيها فساد وليست لهم همم العرب ولا فيهم كتحازب الاتباع بالسادات وكتحالف القبائل وعصبية العشائر ، وما زالوا يذالون ويمتهنون ويظلمون فيكظمون ويتمنون الفرج ويؤملون الدول . وهم جند لهم أجسام وأبدان ومناكب =

رأينا هارون الرشيد يخصه بالثناء ويدعوه « راهب بنى العباس »[1] ، والمعروف أن هذين الاميرين كانا مقدمين عند السفاح والمنصور ، وكان المنصور يطرح لعيسى مرفقة فى مجلسه[2]، ويعتبر تقديمه على سائر مشيخة بنى العباس للصلاة على جنازة أبى العباس دليلا على ثقة القوم وحسن رأيهم فيه[3] .

ويلاحظ أن أولاد عيسى حذوا حذو أبيهم وورثوا عنه الميل الى مشايعة الخلفاء فهذا اسحق بن عيسى أرشد ولده ومن أشهر أمراء العباسيين فى العصر المذكور وصف بسعة العلم والاحاطة بأخبار الهاشميين وأنسابهم ، وصفه بذلك الرشيد[4] وأوصى أبناءه

= وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أفواه منكرة ، وبعد فكانى أتفائل الى المشرق والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » .

رويت هذه الكلمة فى غير كتاب من كتب التاريخ على اختلاف فى رواية نصوصها ، ولا يصحح بعض المؤرخين رواية هذه الكلمة بحذافيرها ولاسيما الفقرات الاخيرة منها ، انظر عن هذه الكلمة عيون الاخبار لابن قتيبة (١/٢٠٤-٢٠٥) وأحسن التقاسيم للمقدسى ، ومادة خراسان من معجم البلدان ، وشرح نهج البلاغة (٣/٤٨٩) وغير ذلك من كتب التاريخ ، ولمحمد بن على كلمة لطيفة فى الموازنة بين أصناف الكلام نقلها الجاحظ وأثنى عليها ، انظر البيان والتبيين . الطبعة الاخيرة (١/٨٥ - ٨٦)، وللاصمعى كلمة يصف فيها أهواء البلدان فى عصره من الناحية السياسية مثل كلمة محمد بن على هذه ، وتمتاز كلمة الاصمعى بشىء من التحليل والتعليل ، يراجع عنها العقد الفريد ط الجمالية (٢٦٤)، وانظر كلمة جيدة جدا عن أهواء أهل الامصار لعبدالله بن الكوا جوابا عن سؤال معاوية بن أبى سفيان نقل هذه الكلمة ابن عبد ربه فى العقد (٢٦٥-٢٦٦) ويلاحظ كثرة الاقوال فى هذه العصور عن أهواء أهل الامصار والاقطار وعن المفاضلة بين البلدان مما يدل على تفشى الاختلاف ، تجد طرفا من كلامهم فى هذا الباب فى المصدر المذكور (٤/٢٦٤-٢٦٦) .

(١) تاريخ بغداد للخطيب (١٠/٥٠) .

(٢) كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى (١٢٥).

(٣) تاريخ بغداد للخطيب (١٠/٤٧) وراجع ذيل الصفحة (١٤١) من هذا الكتاب.

(٤) مهذب تاريخ دمشق (٢/٤٤٨) واسحق اسم مشترك بين هذا الامير - أعنى اسحق بن عيسى - وابن عمه اسحق بن سليمان بن على ، وأولهما أشهر ، ولى اسحق بن عيسى للرشيد المدينة ومصر والسند ومكران وورد ذكره فى قائمة ولاة مصر من « كتاب الولاة وكتاب القضاة » للكندى ، وله ترجمة موجزة فى تاريخ بغداد للخطيب (٦/٣٢٩) وخطط المقريزى والنجوم الزاهرة ، ويراجع عنه كتاب البيان والتبيين الطبعة الحديثة (١/٢٤٣ و ٨/٢١٧) ووجه اسحق بن عيسى المذكور سؤالا الى المهدى عن اكفاء بنى العباس فأجابه بجواب يراجع عنه كتاب الورقة لان الجراح .

بالاخذ عنه وقد ولاه أمارة دمشق ، وهذا أخوه داود بن عيسى ولى للرشيد أيضا امرة الحرمين وعنى بالحديث عن أبيه وجده مثل أخيه[1] ، أما سليمان بن على ـ أخو عيسى ـ فهو وأولاده أمراء البصرة ومضافاتها من عصر السفاح الى عصر المأمون ، ومن أشهر أبناء سليمان وأحفاده محمد وجعفر وعبدالله والى اليمن للمهدى[2] وقثم بن جعفر والى البصرة والمدينة للمأمون وكانت ولاية البصرة فى عصر آل سليمان تعنى الولاية على فارس بأسرها وما يليها من بلاد السند شرقا وعلى الاقاليم العربية الواقعة على الخليج الى عمان غربا ، وسليمان مثل أخيه عيسى فى تأييده المطلق لمنهج الخلفاء ومشايعته لهم الا أنه لم يقف عند حد القول أو اجتناب الخلاف أو الزهد فى الاعمال كأخيه المذكور بل نراه معنيا بالمهام مضطلعا بالتبعات من ادارية وسياسية فكان واليا للبصرة وتوابعها مدة طويلة وهى من أغنى الولايات واقتنى ثروة طائلة لم يقتنها قبله ولا بعده أمير من بنى العباس ـ اذا استثنينا بعض ولده ـ كما مرت الاشارة الى ذلك[3] .

عداوة الشعراء

ويلاحظ أن عددا من اعلام ادباء ذلك العصر وفحول شعرائه كانوا منحرفين عن سليمان بن على وأهله ، ومنهم الخليل بن أحمد وله بيتان فى هجائه[4]، وقد تبودلت بينه

---

(١) لداود بن عيسى هذا ترجمة مفصلة فى مهذب تاريخ ابن عساكر (٥/٢٠٧ ـ ٢١٢) .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب (٩/٤٦٣) .

(٣) راجع ذيل ١٤٨ و ١٤٩ من هذا الكتاب .

(٤) قال الخليل :

وزلة يكثر الشيطان ان ذكرت ... منهـا التعجب جاءت من سـليمـانا
لا تعجبـن لخـير زل عـن يـده ... فالكوكب النحس يسقى الارض أحيانا

اقتصر العسكرى فى ديوان المعانى « الفصل الثانى من الباب الثالث فى الهجاء » على رواية البيت الثانى ، وممن روى البيتين ابن القفطى فى « آنباه الرواة » (١/٣٤٥) والقاضى ابن خلكان فى الوفيات (١/١٧٣) وابن نباته فى « سرح العيون » ، والمهجو فى روايتهم أمير آخر اسمه « سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبى صفرة » وكان واليا للسند فى رواية ابن القفطى وعلى الاهواز فى رواية ابن خلكان ، وحبيب بن المهلب ـ أبو سليمان ـ وجد مع أبيه المهلب فى خراسان أيام الحجاج، وله قصة مع زياد الاعجم مروية فى بعض =

وبين هذا الأمير رسائل طريفة لها دلالتها على منهج الخليل فى الاخلاق والزهد والاعراض عن الدنيا ، ومن مشاهير الشعراء المنحرفين عن آل سليمان بن على - على ما روى فى كتب الادب والتاريخ - بشار بن برد ، وجد فى كتبه بعد موته ما نصه : « هممت بهجاء آل سليمان ابن على فذكرت قرابتهم من رسول الله فوهبتهم له » وروى له بيتان فى هجائهم[1].

أزهى عصور البصرة

ولنا أن نقول : أن عصر آل سليمان أزهى عصور البصرة مادة ومعنى اذ بلغت شاوا من الرقى والتقدم لايستهان بهما فى العصر المذكور ، فكان جعفر بن سليمان كثير الاعتداد والمباهاة بما أنشأه من دور وقصور شيدها فى البصرة حتى زعم ان داره مركز المعمورة[2]، وتروى له قصة فى سهولة التقاضى والتسامح على عادة السراة[3] ، وكان مطبوعا على الادب يروى عنه الاصمعى والجاحظ نوادر أدبية غير قليلة تدل على أنه كان ضليعا برواية الشعر ونقده

= كتب الادب والتاريخ ، ومن رواتها أسامة بن منقذ فى كتاب « لباب الآداب » (٢٦٤ - ٢٦٥)، والاصح - فيما نراه - ان المقصود بهذين البيتين « سليمان بن على العباسى » فهو صاحب الخليل كما ورد فى نزهة الالباء للانبارى (٢٤٤) ومعجم الادباء - الطبعة الاخيرة - (١١/٧٥) وبغية الوعاة للسيوطى (٢٤٤) وفى غيرها من الكتب التى ترجم فيها للخليل ، ومما هو جدير بالذكر ان الاهواز والسند كانتا داخلتين فى ولاية سليمان ابن على والى البصرة المذكور .

(١) انظر كتاب التنبيه على أوهام أبى على القالى للبكرى (١٠٧) ، والبيتان هما :

دينارآل سليمان ودرهمهم ... كالبابليين حفا بالعفاريت
لايوجدان ولاتلقاهما أبدا ... كما سمعت بهاروت وما روت

(٢) قال جعفر بن سليمان فى وصف داره القوراء : العراق عين الدنيا والبصرة عين العراق والمربد عين البصرة وداري عين المربد»، العقد الفريد - ط الازهرية - (٤/٢٦٤)، وانظر مروج الذهب (٢/١٨٨).

(٣) انظر كتاب البخلاء للجاحظ - الطبعة الاخيرة - (٣٤٢) وراجع عن اتصال جعفر بن سليمان بالبلغاء فى المدينة - لما كان واليا عليها - « كتاب الورقة » لابن الجراح - ط مصر - (٥٣ ، ٥٧) وانظر عن أدبه وخطبه الاغانى - الطبعة الاخيرة - (١/٣٧ و ٢/٢٩٠ ، ٣٠٢ ، و ٣/٢٠٧ و ٤/٣٧٤ - ٣٧٥) ، وعن نعتهم اياه العقد الفريد ط الجمالية (٢/٣٦٩) ، وانظر أمالى القالى (١/٢٥٣ و ٢/١٦٤ ، ١٦٦ و ٣/١٣٧ ، ١٨٤) . راجع عن جعفر بن سليمان ترجمة مالك بن أنس وترجمة أبى العميثل فى وفيات الاعيان .

ورواية النوادر اللغوية عن الاعراب كما كان معنيا باقتناء المراكب الفارهة وبشؤن جياد الخيل وانسابها الى غير ذلك من مظاهر الفتوة والرياضة ، وقد ورث عن تذوق الفنون الادبية من أبنائه جماعة أشهرهم الاخوان قثم وعيسى ، وكان عيسى كأخيه من أمراء الدولة العباسية فى عصر الرشيد وعصر ابنه المأمون بعد ذلك ، ولعيسى هذا نادرة فى مجلس الرشيد رواها عبدالصمد بن المعدل(١) .

وفى هذا العصر من عصور البصرة صار أهلها أهل العربية ورواة اللغة وعلومها ونشأ فيها مثل الخليل بن أحمد وابن المقفع والجاحظ وسيبويه ويونس بن حبيب وأبوعمر ابن العلاء والاصمعى وأبو عبيدة وأبو زيد والنضر بن شميل وغير هؤلاء من أئمة العلم والادب ورواة الشعر واللغة والنوادر الادبية .

عاصر أبو عثمان الجاحظ آل سليمان واختص بهم وعنى بأخبارهم عناية ظاهرة ، ويلاحظ أن كتبه حافلة بأخبار هؤلاء الامراء البصريين وما ذلك الا لانه بصرى مثلهم مختص بهذه الطبقة المعنية بالادب منهم فكان يغشى منازلهم ومجالسهم، ومنها منازل اسحق وجعفر وعيسى(٢) وقثم ، ويتحدث الجاحظ فى جملة أحاديثه عن الامير اسحق بن سليمان بحديث مفاده تفضيل رتبة العلم والدراسة على منزلة الحكم والسياسة(٣) ، وقد جاء فى كتب المؤرخين أن دار قثم كانت مثابة لاعلام الشعر والادب فى العصر المذكور(٤) وقثم هذا

---

(١) راجع عن بعض أسماء أولاد جعفر بن سليمان وعن قصة لهم مع المأمون كتاب بغداد لابن طيغور (١٠٣ـ١٠٥)، وهى قصة لها دلالتها على عقل المأمون واصالة رأيه .

(٢) ولى البصرة وبنى كاخوته فيها داره المشهورة التى كان لها شأن لايستهان به فى بعث ضرب من النشاط العقلى فى البصرة ، هجاه ابن أبى عيينة ووصمه بالبخل والعناية بتربية الدواجن ، انظر عن قصيدته الكامل للمبرد (٢/٢٩ـ٣٠) .

(٣) قال الجاحظ : دخلت على اسحق بن سليمان فرأيت السماطين والناس مثولا كأن على رؤوسهم الطير فرأيت فرشته وزيه ، ثم دخلت عليه وهو معزول واذا هو فى بيت كتبه وحواليه الاسفاط والرفوف والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر فما رأيته قط أفخم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه فى ذلك اليوم ، لانه جمع الى المهابة المحبة ومع الفخامة الحلاوة ومع السؤدد الحكمة، انظر عن هذا الحديث كتاب الحيوان للجاحظ ـ الطبعة الاخيرة ـ (١/٦١ـ٦٢)، وانظر عن ولاية اسحق هذا على حمص وأرمينية للخليفة الامين المصدر المذكور (٣٤١) .

(٤) انظر عن قثم بن جعفر هذا كتاب الحيوان للجاحظ ط الحديثة ـ (٦/٤٨٨) وكتاب التاج (٦٦) والمحاسن والمساوىء (٥٠٦) وانساب الاشراف للبلاذرى، وله ذكر فى كتب الادب كالاغانى والمعارف لابن قتيبة

ثالث عباسي يسمى « قثم » ، والاول هو قثم بن العباس بن عبدالمطلب أخو عبدالله بن عباس[١] ، أما الثاني فهو قثم بن العباس بن عبدالله من شيوخ العباسيين أيام المنصور[٢].

الامير المحدث

والامير قثم محدث بارع تحدث عن كثير من أخبار الخلفاء وأسمارهم في مجالسهم، ومن ذلك حديث طريف[٣] يروى في كتب الادب والتاريخ عن التحريض ـ في مجلس المأمون ـ على الانتقام من « دعبل الخزاعي » الشاعر المشهور ، وكان المحرض ابراهيم بن المهدي عم المأمون لان دعبلا هجاه هجاء مرا لخروجه على ابن أخيه وبيعته في العراق ، وأشعار دعبل في هجو ابراهيم بن المهدي والطعن في سيرته من الاشعار السائرة ، فهوا ـ أعني ابراهيم بن المهدي المعروف « بآبن شكلة » ـ معدود بين أشهر الشعراء والمغنين

---

(١) يعني أصحاب السير والمصنفون في موضوع الطبقات كثيرا بذكر قثم الاول أحد مشاهير الصحابة وتقوم في سمرقند الى اليوم قبة عالية على قبره ، وكان يقال : مارأينا بني أب وأم قط أبعد قبورا من بني العباس بن عبدالمطلب ، فقثم استشهد بسمرقند سنة ٥٧ ، وقيل بمرو ، وأخوه معبد استشهد بأفريقية ، ولم يعقب قثم وكان واليا للامام على على مكة وفي قول المدينة منذ بويع الامام الى ان استشهد بالكوفة : قال الحاكم كما جاء في تهذيب ابن حجر كان قثم أخا الحسين بن علي من الرضاعة وجزم الدار قطني في كتاب الاخوة بانعليا ولاه المدينة وولى أخاه معبدا مكة وقتل علي وهو على المدينة، وهو من طبقة الذين توفى النبي وهم أحداث ، راجع عن قثم بن العباس بن عبدالمطلب أو قثم الاول طبقات ابن سعد (٤/١) والاستيعاب لابن عبد البر (٢/٥٥١-٥٥٢) وتهذيب التهذيب لابن حجر (٨/٣٦١-٣٦٢) حيث تجد له ترجمة حسنة ، وشرح نهج البلاغة (٤/٥٢ ، ٢٢ ، ٢٤٣) وقد حفظ لنا هذا الشرح كتابين من كتب الامام اليه وهو عامله على مكة واحد هذين الكتابين قطعة نفيسة في الآداب الشرعية ، وورد ذكر قثم بن العباس في منهج المقال للاسترا بادي وفي التعليقات عليه للبهبهاني ونوه البهبهاني بعدالته وعلمه وفضله استنادا الى كتاب الامام اليه ، وتجد أوسع ترجمة لابيه العباس في طبقات أبن سعد (٤/١٢١) ، وترجم له الاسترابادي في منهجه (١٨٨) وانظر ما كتبه البهبهاني في التعليقات ، وفي منهج المقال ترجمة ضافية لاخيه عبدالله بن عباس تضمنت مختلف الاراء في سيرته تجدها في الصفحة (٣٠٦) من الكتاب المذكور ، وتجد في هامش الصفحة المذكورة تعليقات البهبهاني في هذا الشأن .

(٢) بنى المنصور الرصافة نزولا على رأيه ، انظر الكامل (٥/٢٨٥ ـ ٢٨٦).

(٣) انظر عن حديث قثم هذا كتاب بغداد لابن طيغور (٦/١٩٣) والحديث مروى في عدة من كتب الادب ، ورواية أبن خلكان في الوفيات (١/١٧٩) تختلف عن رواية ابن طيغور .

الموسيقيين فى العصر المذكور[١] ، ولذلك يقول دعبل : اذا جاز لابراهيم طلب الخلافة فلماذا لايجوز ذلك لمخارق ومعبد وغيرهما من المطربين ! ، وكيف تجوز بيعة رجل هجر الكتاب الى الاعواد والطنابير ! الى غير ذلك[٢] .

ولى قثم هذا للمأمون عـدة ولايات منهـا ولايتـه على المدينـة والبصرة ، ومن الاحداث المعروفة فى ولايته على المدينة عنايته بالطالبيين والفاطميين ورد الضيعة التى كثر النزاع بشأنها ـ وهى فدك ـ الى أبنـاء فاطمة نزولا على أمر المأمون فى رسـالة

---

(١) روى صاحب كتاب الورقة قول من يقول : لم يكن فى قريش ولا يكون أشعر من ابراهيم بن المهدى ، وفى هـــذا الكتاب فصل عن ابراهيم واسباب هجاء دعبل له (١٩ ، ٢١) .

(٢) من مختار شعر دعبل فى هجاء ابراهيم قوله :

نعر ابن شكلة بالعراق وأهله فهفا اليـه كل أحمـق مائق
ان كان ابراهيم مضطلعا بها فلتصلحن من بعـده لمخـارق

انظر حوادث سنة ٢١٨ من تاريخ الطبرى والجزء السادس من كتاب بغداد لابن طيفور (٩٨) ومحاضرات الراغب (٣١٠) ، والابيات فى بعض الروايات تزيد على أربعة كما فى رواية ابن خلكان فقد أورد القطعة بكاملها لدعبل ، الوفيات (١/٨) .

ومن شعره السائر فى هذا الباب :

يا أيهـا الاعراب لا تقنطوا خذوا عطاياكم ولا تسخطوا
فسـوف يعطيـكم حنينيـة لاتدخـل الكيس ولا تربط
وهـــكذا يرزق أصحـــابه خليفـــة مصحفـه البربط

تجد هـذه الابيـات فى كتاب الورقة لابن الجراح وفى الاغانى والغـرر للوطواط ومعاهد التنصيص وفى غيرها من كتب الادب مع شىء من الاختلاف فى رواية النصوص .

ويلاحظ ان ابراهيم بن المهدى كان شديدا على العلويين وبذلك يعلل خلافه وخروجه على المأمون فان المأمون حاول نقل ولاية العهد الى العلويين على وجه أثار سخط العباسيين فى بغداد فخلعوه ، وكان دعبل يضلع مع المأمون فى هذه السياسة ، والى ذلك مرد هذه العداوة الشديدة بين دعبل وابراهيم ، وأخبار ابراهيم بن المهدى فى خلافة المأمون وبعد ذلك كثيرة طريفة على كثرتها ، وابراهيم نفسه مصدر رواية كثير منها ، وفيها يعترف بجانب من العبث الذى ينسب اليه ، وفى بعض كتب التاريخ رواية ضعيفـة عن مهاجاة شعرية بينه وبين ابن أخيه المأمون ، يراجع عنها مروج الذهب (٢/٢٢٤) ومن أو فى المراجع فى أخبار ابراهيم بن المهدى مهذب تاريخ دمشق فيمن اسمه ابراهيم ، وقد ترجم ابن عساكر لة لانه كان أميرا على الشام .

طريفة بعث بها الى عاملة المذكور(١) ، ومن هذه الحادثة الى حوادث أخرى شبيهة بها يستنتج بعض المؤرخين تشيع المأمون وموالاته لاهل البيت •

دالة آل سليمان

هذا ويلاحظ أن كتب التاريخ حافلة بالاشارة الى المواقف السلمية التى وقفها أكثر آل سليمان الى جانب الخلفاء فى كل منازعاتهم وخصوماتهم مع الطالبيين والعباسيين أنفسهم فى الحجاز والعراق كما يشهد بذلك موقف جعفر بن سليمان والى المدينة من قبل المنصور من العلويين والطالبيين ومشايعيهم في الحجاز ، وجعفر هذا هو الذى ضرب مالك بن انس ضربا مبرحا بسبب فتواه فى « يمين المكره » أو « طلاق المكره »(٢) وكما تشهد بذلك أيضا وقعة فخ التى خاضوا غمارها الى جانب موسى الهادى ــ كما مرت الاشارة الى ذلك ــ ، وقد أفاد هذا المنهج السلمى آل سليمان فوائد جليلة فعدت طبقتهم بعد طبقة الخلفاء جاها وثروة فى العراق •

---

(١) لايعرف موقع فدك بالضبط لدى أكثر الباحثين الآن• ولايعرف فى بادية نجد والحجاز مكان بهذا الاسم اليوم فكانه اسم مهجور وان كان معروفا فى كتب البلدان والتاريخ والمرجح أن الحصن المنيع الذى يسمى « الحائط والحويط » هو فدك وقد وصلنا الى الحايط وبتنا فى ذراه ليلة فى رحلتنا الى بلاد العرب سنة ١٣٣٧ هـ (١٩١٩) م وهو حصن حصين واقع فى مدخل حرة وعرة جدا تقع على الحدود الحجازية الشرقية فى منتصف الطريق بين جبل طى والمدينة وقد اجتزنا الحرة بمشقة واذا أغير على باديتها وهم من قبيلة (هثيم) غالبا دخلوا حرتهم بماشيتهم فامتنعوا عن المغيرين ولما توهموا اننا جيش نريد غزوهم أطلقوا علينا نيرانا حامية من خلف الصخور • وسرعان ما اتضح لهم غير ذلك فرجعوا بنا واعتذروا الينا ونزلنا على مناهلهم وعرجنا على مضاربهم فشربنا وطعمنا وحصن الحايط يشرف على عيون غزيرة عذبة وبساتين عامرة زراعها من العبيد ويدعى بعضهم أن الحايط كان ملكا لاحد مشايخ عنزة فى القرون الاخيرة •

من أو فى المراجع فى البحث عن تاريخ النزاع فى قضية فدك وفى ماورد عنها فى السير والاخبار شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد (٤/٧٧) حيث تجد منازعة على والعباس فى الولاية على فدك والاختلاف فى كونها نحلة وفى سياسة فريق من خلفاء بنى العباس ورأيهم فى هذة القضية منذ ظهور الدولة العباسية الى عصور طويلة ، وفى كشف الغمة للاربلى (١٤٤ــ١٤٨) نبذة جيدة فى تاريخ النزاع المذكور وتداول الايدى على فدك فى الدولتين واختلاف خلفاء بنى العباس فى أمرها وما تبهم بشأنها بين عصر المأمون الى عصر المقتدر ، تراجع فى هذا الباب مادة « فدك » من معجم البلدان لياقوت •

(٢) انظر ص (١١٣) من هذا الكتاب •

كانت لسليمان بن على ــ كأخيه عيسى ــ دالة عظيمة على ديوان الخلافة فى عصر السفاح والمنصور حتى استجار به بعض الامويين ولاذوا بكنفه فى البصرة وأخذ هو وأخوه عيسى الامان لاخيهما الثائر عبدالله بن على حيث استتر الامير المخذول عند الاول فى البصرة[1] ، ثم شفعا به ، وأبلغ دليل على خطر الجرم الذى ارتكبه عم المنصور فى حق ابن أخيه أنه أراد قتله ، وفى رواية قتله فعلا فلم يستنكر الموادعون من آل على عمل المنصور بأخيهم ولم يستنكروا كذلك انتقامه من كاتبهم عبدالله بن المقفع وقتله غيلة بسبب ولائه لآل سليمان .

ولاة الشام ، أو الامراء المنابذون

ذلك هو حديث الامراء الموادعين نزلاء العراق من آل على وهناك نفر آخر من اخوانهم وذويهم نزلوا مصر والشام اذ كانوا ولاتها منذ قيام الدولة ، ومن أشهرهم الامير الذى مر ذكره ــ اعنى عبدالله بن على ــ أول ولاة الدولة الهاشمية على الشام ثم أخواه عبد الصمد بن على « قعدد العباسيين » وصالح بن على وأولاده الفضل وعبدالملك وابراهيم واسماعيل .

يعد أكثر هؤلاء الامراء ــ على جلالتهم وتقلبهم فى المناصب والولايات ــ من المشكوك فى اخلاصهم ومن المتهمين فى الولاء وفى تحين الفرص للوثوب على الدولة ، ولذلك فرضت عليهم رقابة شديدة حتى ان أكثرهم لم يترك الولاية الا معزولا عزلا مقرونا بالاهانة فى بعض الاحيان .

لهذا الفريق المتهم من آل على منزلة كبرى فى الشام ليست دون منزلة وجوه بنى أمية من قبلهم ، ولا عجب ، فان لهم فى الديار الشامية آثارا وانصارا وأموالا واتباعا قبل ظهور الدولة العباسية وبعد ذلك ، وكانوا اذا غزوا مملكة الروم ــ وقد غزاها غير واحد منهم ــ غزوها بجنود من أهل الشام واذا نازلوا خصومهم نازلوهم بانصارهم من أهل الشام فى الغالب كما فعل عبدالله بن على فى خلافه مع المنصور وكما فعل غيره من اخوانه وابنائه ،

---

(١) كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى (١٠٣ ، ١٣١) ومهذب تاريخ دمشق (٦/٢٨١ ، ٢٨٣) والاغانى (٥/١٠٩) .

ويلاحظ أن عبدالله هذا خالف وحارب بجيش قوامه أهل الشام[1] ، كما يلاحظ ان المنصور حاربه بجيش قوامه أهل خراسان وقائدهم أبو مسلم صاحب الدعوة •

نكاية جيش خراسان

كانت نكاية الخراسانيين بالامير الثائر المخالف عبدالله وبأنصاره من أهل الشام عظيمة جدا ملأت نفوس القوم غيظا وميلا الى الانتقام حتى أمر عبدالله بقتل جميع الخراسانيين المجندين فى جيشه فعد ذلك من أغلاطه الفاحشه ، ومن ثم ظهر الجفاء بين نزلاء الشام من آل على وابناء خراسان ، ومن هذه الناحية لانجد فى قائمة ولاة الدولة على خراسان ـ درة التاج ولؤلؤة الملك ـ واليا واحدا من آل على حتى الموادعين المسالمين منهم بل لا نجد أميرا واحدا منهم تخطى حدود العراق الى الشرق أو الى خراسان على كثرة من انتدب للحكم من بينهم فى الشطر الغربى من المملكة ومن ذلك مصر والشام والحجاز واليمن والجزيرة •

ندب للحكم فى الشام من آل على أكثر من طبقة واحدة قوام الطبقة الاولى أعمام الخلفاء الاول ، ندب بعضهم فى خلافة السفاح فور الاستيلاء على الشام وانتزاعها من الامويين وفى مقدمتهم الامير عبدالله بن على عم المنصور أو القائد الذى فتح الشام وقتل الوليد أميرها من قبل مروان بن مروان شاركه فى ذلك أخوه صالح بن على وممن ندب من هذه الطبقة أو من أعمام الخلفاء للحكم فى الشام عبدالصمد بن على ، يلى هذه الطبقة طبقة ثانية من أولادهم اذ ولى الشام اثنان من ابناء صالح هما عبدالملك وابراهيم ، وليها الثانى أكثر من خمس سنين وأقره غير واحد من الخلفاء على الولاية المذكورة لانه صهر الرشيد على ابنته الغالية ، ومن هذه الطبقة الثانية اسحق بن عيسى بن على ـ السالف ذكره ـ والى الشام للرشيد • وكان هذا الخليفة معجبا به مطريا له ، هذا عدا من ندب من آل على على اختلاف طبقاتهم للولاية على الديار المصرية •

لم تكن الايام مواتية لآل على فى مصر والشام الا فى عصر السفاح اذ لم يخامر هذا الخليفة ادنى شك فى ولاء اعمامه وابنائهم الى أن مات فبدأ الشك يتسرب الى نفوس

---

(١) انظر عن عناية هؤلاء الامراء بتكوين جيوشهم المقاتلة من أفراد القبائل الشامية كتاب الولاة وكتاب القضاة للكندى (١٢٩) ، وانظر عن جيش عبدالله بن على فى واقعة « نصيبين » تاريخ الواقعة المذكورة في كتب السير والتاريخ •

الخلفاء من بعده وتنكر من تنكر منهم للقوم وكان المنصور أول خليفة تنكر لاعمامه وأبنائهم من ولاة مصر والشام .

كان للمنصور من حزمه وكفاءته ومضائه غنى عن خدمة أعمامه وأبنائهم فعدل عن استعمالهم فى المناصب والولايات على الديار المصرية والشاميه ولكن الخلفاء من بعده وفى مقدمتهم المهدى والهادى والرشيد لم يغنوا غناء المنصور فلم يستطيعوا الاستغناء عن خبرة هذا الفريق من آل على فى الادارة وهيبتهم فى النفوس فعادوا الى الافادة من استخدامهم متشددين فى مراقبتهم مكثرين من عزلهم حتى زادوا فى ذلك على المنصور ، وفى أواخر عصر المهدى ثم فى عصر الرشيد والمأمون تنكر ديوان الخلافة للقوم ولم يحمد الخلفاء سيرة بعض ولاتهم المذكورين وطريقتهم فى تصريف الامور بالشام وغيرها فاتهموهم بالتهاون فى قمع الفتن ، فهذا المهدى عزل الامير عبدالصمد بن على عم أبيه غير مرة عزله عن المدينة[1] وعزله بعد ذلك عن الجزيرة لتهاونه فى الحفاوة بموكب الخليفة لما وصل الى الجزيرة غازيا ثم جرت بين الامير والخليفة مشادة رأينا عبدالصمد فيها بالغ الجرأة حتى عوقب بالعزل والحبس ، ويلاحظ أن عبدالصمد من أوفر الامراء حظا فى العزل فقد عزله وهو واليه على الشام بسبب محنة البلد بالاحداث القبلية الدامية التى تجددت بين

أقعد العباسيين

لاغرو اذا رأينا الامير عبدالصمد وهو أقعد بنى العباس جريئا فى مجابهة المهدى فانه عم السفاح وعم المنصور والد المهدى ، ومن أقوال المؤرخين : « مات عبدالصمد وليس على الارض عباسية الا وهو محرم لها » ، وللمؤرخين ملاحظات طريفة عن سنه وعلو طبقته وعن خصائصه التى انفرد بها من هذه الناحية[1] فهو ينظر الى هؤلاء الخلفاء مابين السفاح

(١) من هؤلاء المؤرخين المعنيين بخصائص « قعدد بنى العباس » الخطيب البغدادى فى تاريخه (١١/٣٧-٣٩) وسماها أبن الجوزى فى شذور العقود « عجائب » وعنه نقلها ابن خلكان فى الوفيات (١/٢٩٦) والصفدى فى « نكت الهميان » « ١٩٣ - ١٩٤ » وتختلف أساليب المؤرخين فى رواية غرائب عبدالصمد بن على هذه ، ومن أحسنها أسلوب البكرى فى التبنيه على أوهام أبى على القالى ، وفيه تفسير لغوى لكلمة القعدد ، ومما هو جدير بالذكر ان على بن عبدالله بن عباس والد هذا الامير انفرد بخصائص رواها المؤرخون يراجع عنها كتاب الوفيات (١/٣٢٣ - ٣٢٤) وانظر كتاب المعارف لابن قتيبة (٣٢٤) ، هذا والقعدد من مصطلحات علماء الانساب وهم يزعمون أن ذلك عند العرب مذموم لطول العمر بالسلامة وذلك يدل على عدم الشجاعة انظر رسالة فى اصطلاح علماء الانساب نشرت ملحقة بكتاب عمدة الطالب ط النجف (٣٦٨) ولاحظ ص ١٥٨ من هذا الكتاب .

الى الرشيد وفى عصر الرشيد مات ـ نظره الى بعض اولاده وأحفاده .

وفى عصر الرشيد لم يكن خط الامير عبدالصمد خيرا منه فى عصر أبيه المهدى فقد عزله وهو واليه على الشام بسبب محنة البلاد بالاحداث القبلية الدامية التى تجددت بين النزارية واليمانية فى العصر المذكور وهى فتن لاتكاد تهدأ حتى تثور ولم يتهيأ للرشيد قمعها الا بمجهودات عظيمة والا بعد أن الحقت ما ألحقته من اضرار جسيمة فى أموال الدولة وأرواح ابنائها ، ومن آل على الذين سخط عليهم الرشيد الامير ابراهيم بن صالح لتراخيه فى قمع فتنة خارجى من الامويين استولى على الصعيد[١] .

لا يخامرنا أدنى ريب بأن آل على هؤلاء بالشام أدرى والى الشام أميل وبها أعرف والحجازيين وما ذلك الا لانهم فى البلاد المذكورة ولدوا وعاشوا وتناسلوا ، نزلوا « البلقاء » فى الدولة الاموية ونزلوا « سلمية » فى بادية حمص فى الدولة العباسية وأقام من أقام منهم فى رملة فلسطين وأنشأوا ما أنشأوه من مدن وحواضر وحصون وقلاع فى الثغور ما بين مدينة حلب وبلاد الجزيرة الى حدود الروم فتكونت من هذا الجذم العباسى عصبة لايستهان بها بل عشيرة ضخمة فى عددها وعددها حتى تطلعت الى مماتنة الخلفاء وأرادت أن تدخل أنفها فى شؤون الخلافة وفى ترشيح المرشحين لها والافادة من كل خلاف ينجم فى هذا الشأن كالخلاف الذى نجم بين الامين والمأمون ، ففى هذا النزاع وقف غير واحد من آل على نزلاء الشام وفى مقدمتهم الامير عبدالملك بن صالح الى جانب الامين لكونه أضعف الاخوين وليس من الصعب خلع الضعيف أو الاستيلاء عليه كما وقف آل عيسى أبن موسى الى جانب المأمون لانهم ـ كما رأيت ـ يتهمون آل على ويكرهونهم ، وبنى هذين الفرعين من العباسيين ما بينهم من الوحشة والجفاء فلما تنكر الخلفاء لاعمامهم وأبناء أعمامهم وولاتهم على الشام وعزلوا من عزلوا منهم استعملوا بعض ذويهم الاقربين من آل محمد ، فهذا الرشيد يعهد الى أخيه ابراهيم بن المهدى صاحب الصنعة الغنائية والى العباس بن محمد بالولاية على الشام[٢] .

ولاة مصر من آل على

بلغ عدد ولاة مصر من أمراء آل على فى العصر الاول من عصور الدولة سبعة ، منهم

(١) راجع عن ثورة هذا الاموى على العباسيين فى مصر كتاب الولاة وكتاب القضاة للكتندى (١١٢ ، ١٢٤ ، ٢٢٦ ، ١٢٨) وكتاب انساب الاشراف للبلاذرى (٥/١٨٥) .

(٢) انظر عن ولاة الشام من آل على مهذب تاريخ دمشق (٢/٢١٩ ، ٢٤٨) .

أربعة فقط من أبناء الامير صالح بن على واثنان من أبناء أخيه سليمان تولوا مصر بين عصر أبى العباس السفاح الى عصر الرشيد ولم يل مصر بعد عصر الرشيد الا أمير عباسى واحد فى عصر المأمون •

لاخلاف بين المؤرخين أن أول ولاة مصر من الهاشميين الامير صالح بن على عم السفاح وليهاله بعد قتل مروان الجعدى فيها على يده والاستيلاء على البلاد سنة ١٣٣ وقد ندب للولاية عليها بعد ذلك كل من ابراهيم والفضل وعبدالملك واسماعيل وكلهم من أبناء صالح بن على المذكور ، ومنهم من وليها مرتين ، وفى استعمال هؤلاء الاخوة الاربعة على الديار المصرية واحدا بعد آخر دليل بالغ على خطر منزلة أبيهم صالح وأثره البعيد فى قيام الدولة•

كان السفاح يقدر فى الواقع للامير صالح بطولته وبسالته ومجهوده العظيم كأخيه عبدالله بن على فى الاجهاز على الدولة الاموية ، ولذلك لم يشعر بغائلة تأتيه من ناحية أول الخلفاء فعاش الامير فى مصر عيشة راضية وكان فى نية المنصور على الارجح أن يحذو حذو أخيه السفاح فى الاحسان الى عمهما الامير صالح لولا الاحداث التى زعزعت ثقة المنصور بأعمامه فى مستهل خلافته ، ولولا ما آتيهم المعروفة بعد موت السفاح كالخلاف الذى جاهر به عبدالله بن على وأخوه عبدالصمد وغيرهما من أخوة صالح فكان ذلك ــ فيما نرى ــ من آكد الاسباب فى تسرب الشك الى المنصور وارتيابه فى اخلاص عمه وواليه على مصر وما ترتب على ذلك •

ولا خلاف بين المؤرخين كذلك بان أول ولاة السفاح على البصرة هو الامير سليمان ابن على أخو صالح ، ومن أولاده أربعة ــ كأولاد أخيه عددا ــ ندبوا للولايات الجليلة وهم اسحق وعلى ومحمد وجعفر ، ندب الاولان لولاية مصر الاول من جهة الرشيد(١) والثانى من جهة أخيه الهادى ، وقد عزل هذا الوالى ــ أى على بن سليمان ــ عن ولاية مصر فى خلافة الهادى نفسه لايوائه ادريس بن عبدالله بن الحسن لما اجتاز بالديار المصرية فى طريقه الى المغرب وبذلك مهد السبيل لقيام دولة الادارسة ، ويلاحظ انه انفرد من بين

---

(١) أدى عمل اسحق فى زيادة الخراج على بعض الاقاليم المصرية الى اشتباك بينه وبين أهلها ثم أذعنوا بعد عزله بوال آخر يقال له « هرثمة بن أعين » ، يراجع عن ثورة المصريين فى ولاية اسحق فى كتاب الولاة وكتاب القضاة للكندى ، وفى كتب التاريخ مايدل على أن اسحق بن سليمان هذا ولي المدينة للرشيد والسند ومكران ، يراجع عن ذلك تاريخ الطبرى (١٠/٥٢) •

اخوته بشذوذه عن منهج أهله[1] فكان جزاءه العزل عن الولاية .

هكذا لم ينتدب من أمراء آل على ـ سواء أكانوا من نزلاء العراق أم نزلاء مصر والشام ـ على اختلاف رأى الخلفاء فيهم أمير واحد على الشرق أو على خراسان على كثرة المناصب والولايات التى ندبوا اليها فى القسم الغربى من المملكة .

الى نكاية الخراسانيين بآل على وسخط هؤلاء عليهم ورغبتهم فى الانتقام واخذ الثار منهم مرد الحيلولة بينهم وبين الامرة على الشرق أو الأقاليم الخراسانية اذ كان ذلك من مقتضيات السياسة ولا عبرة ببعض من تقلد فارس بالاضافة الى البصرة من آل على المسالمين فى عصور السفاح والمنصور والمهدى والرشيد كسليمان بن على وبعض

---

(١) على بن سليمان والى الجزيرة أيام المهدى ووالى مصر أيام الهادى بنى قلعة الحدث من الثغور وأعدها لتسع أربعة آلاف وفرض لهم العطاء ، جدد الرافقة البلد المعروف المتصل بالرقة على الفرات أيام ولايته على الجزيرة ، ويلاحظ ان هذا الأمير من الأمراء المعنيين بالانشاء وتنظيم المدن وهو أول أمير عباسى ضرب اسمه على النقود الذهبية العباسية وكان ذلك أيام الهادى سنة ١٧٠ وهو يومئذ أميره على مصر ويوجد دينار عباسى مضروب عليه اسم على المذكور ضرب فى أيام الرشيد ، ومن المفيد ان نشير الى أن مجاميع النقود القديمة المحفوظة فى بعض المتاحف ومنها المتحف العراقى تحتوى على دنانير نادرة ضرب على بعضها اسم « موسى » وعلى بعضها اسم « عمر » وعلى آخر اسم « العباس » وذلك فى عصر الرشيد والمأمون ، والمرجح أن « موسى » هو موسى بن عيسى بن موسى ، و « العباس » هو العباس ابنه ، أو ابن المأمون ، و « عمر » هو عمر بن مهران من عمال الرشيد وابنه المأمون على مصر ، وقد سلف ذكر هؤلاء الأمراء ، راجع ص ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧ من هذا الكتاب .

وفى أيام ولاية الأمير على بن سليمان على مصر خرج « دحية بن مصعب بن الاصبغ » ودارت بينه وبين العباسيين حروب طاحنة فى مصر الى أن قتل على يد على بن سليمان ـ وفى قول على يد الفضل بن صالح بن على ـ ، انظر عن ذلك كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى (١٨٥/٥) ومادة اهناس وبويط من معجم البلدان ، ولهذا الامير قصة مشهورة مع الخليفة المهدى وشاعره « أبى دلامة » واياه أراد هذا الشاعر بقوله :

قد رمى المهدى ظبيا ... شك بالسهم فؤاده
وعلى بن سليمان ... رمى كلبا فصاده
فهنيئا لهما كل أمرئ ... يأكل زاده

ويلاحظ ان هذا الأمير احتمل هذه السخرية الشعرية البالغة لأن أبا دلامة كان أحد شعراء الخليفة .

أولاده فان اقليم فارس أو القسم الجنوبى من المملكة الايرانية كان تابعا للبصرة يفصل بينه وبين خراسان أو الشرق مسافات شاسعة .

شطر المشرق :

اتجه الاول من الخلفاء العباسيين الى المشرق واتجه أعمامهم آل على أو وجهوا شطر المغرب فكانوا فى الهوى مختلفين ، كان هوى الخلفاء مع أشياعهم من أبناء الشرق بل حاولوا الانفراد بهؤلاء الاشياع وتوثيق رابطتهم بتلك البلاد وأهلها فلم تنقطع صلتهم بالقوم وتتابعت رحلات الخلفاء وولاة العهد والامراء الى الأقطار الشرقية وكانت وجهة القوم خراسان وما وراء النهر لتصفح أحوالها أو لتصريف شؤونها وما الى ذلك كما فعل المنصور والمهدى والهادى والرشيد والمأمون فنصب المنصور ولى عهده المهدى أميرا على خراسان وحذا المهدى حذو أبيه فنصب ولى عهده الهادى أميرا على تلك البلاد ونسج على منوالهما الرشيد فعين المأمون أميرا على خراسان ولم يعن الخلفاء بالمغرب مثل عنايتهم بالمشرق من هذا القبيل بل كانوا يعمدون احيانا الى ادارة شؤون المملكة بأسرها من خراسان وقد مات المهدى ودفن فى « ماسبذان » من بلاد الجبل بينما كان ولى عهده الهادى فى « جرجان » ومات الرشيد ودفن فى « طوس » . مات فيها وولى عهده المأمون مقيم فى « مرو » قاعدة تلك البلاد وهو يومئذ أمير خراسان كلها فبايعته كثرة الخراسانيين ومن ثم زحف قادته على العراق وتغلب على أخيه الأمين بجيش قوامه أبناء خراسان ، ويقول بعض مؤرخى الدولة العباسية : لم يمت بمدينة السلام خليفة منذ بنيت الا محمد الأمين(١) .

زيارات عابرة :

لا شك ان عددا من اولئك الخلفاء زاروا مصر وزاروا الشام الى أقطار أخرى واقعة فى الشطر الغربى من المملكة بيد أن زيارتهم لهذه الأقطار كانت زيارة عابرة غالبا فى طريقهم الى الغزو أو فى قفولهم من الثغور أو من أجل قمع بعض الفتن والثورات فى بعض هذه الأقطار ، ومما لا شك فيه كذلك ان بعض الخلفاء المذكورين أو ولاة عهدهم وعمالهم عنوا عناية خاصة بزيارة الجهات الشمالية من ديار الجزيرة

---

(١) يعنى هؤلاء المؤرخون أنه لم يمت فى عصور الدولة الاولى خليفة ببغداد ، انظر فصلا فى هذا الشأن أورده الخطيب فى تاريخ بغداد (١/٦٨) .

والشام ومنها حلب لأنهـا قريبة من الحدود واقعة فى طريقهم الى الثغـور ، ولا ينكر ـ كذلك ـ ان المنصور أنشأ الرقة والرافقة التى جددها الرشيد فأكثر القوم من التردد اليهما لوقوعهما فى اقليم يعد وسطا بين العراق والشام .

كان هؤلاء الخلفاء يزورون الرقة أو الرافقة على الفرات اما للاستطلاع اوللاستجمام اما الشام على قربها من « الرقتين » فلم يظهر منهم ميـــل الى زيارتها أو التردد عليها ولم يظهر من أهلها ميل واضح الى القوم بل كان العباسيون اذا ذكرت الجزيرة واذا ذكرت الشام واذا ذكرت قبائل الجزيرة وقبائل الشام تبرموا بذكرها وأوسعوها ذما ووصفوا أهلها بالمروق والفساد وأظهروا عيوبها ومساوئها وتجاهلوا محاسنها ومحامدها كما فعل السـفاح والمنصور وكما ينقل عن الرشيد والمـأمون فى خطب مأثورة لهم ، وكما فعـل الأمير صالح بن على وبعض أولاده مثل ذلك [1] ، وللمأمون قصة مروية مع بعض أهل الشام فى هذا الشأن نسب اليه فيها التحيز الى الخرسانيين وتمييز العجم على قبال العرب وطولب فيها بالمساواة بين الفريقين [2] ، وأما مصر فانها لم تعجب المـأمون وقـد استوبلها وأجمها فى رحلته اليها سنة ٢١٧ ووقف عبدالله بن طاهر وزير المأمون على باب مصر فقال : « اخزى الله فرعون ما كان أخيبه وأدنى همته ملك هذه القرية فقال : انا ربكم الاعـلى ، والله « ... » [3] ، وفى مقابل ذلك نوه من نوه بخراسان وبمجهودات أهلهـا من الخلفـاء ونقباء الدعوة الهاشمية كقحطبة بن شبيب [4] .

---

(١) انظر بعض خطب العباسيين وأمرائهم فى تقريع أهل الشام وتهديدهم أو ذم قبائل الجزيرة والشام من تغلب وربيعة وخزاعة والقيسية واليمانية خصوصا بعض خطب السفاح والمنصور والرشيد والأميرين داود وصالح ابنى على وعبدالملك بن صالح تأريخ الطبرى (٩/١٣٢) والعقد الفريد ط الجمالية (٢/٣٦٩ ـ ٣٧٢) والكامل (٦/٧٦ ـ ٧٧) وراجع الصفحة (٤٧) من هذا الكتاب .

(٢) انظر هـذه القصة وما أخـذه المأمون على قبائل الجزيرة والشام فيها الجزء السادس من كتاب بغداد لابن طيفور وتأريخ الطبرى (١٠/٢٩٦) والكامل لابن الأثير (٦/١٧٦) .

(٣) تاريخ بغداد للخطيب (٩/٤٤٣) وانظر مروج الذهب (٢/١٨٤ ـ ١٨٦) عن رأيهم فى البيئة المصرية . وانظر عن زيارة المأمون لمصر وامره بنقب الاهرام مادة « الهرم » فى معجم البلدان وكتاب النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس لابن دحيـة ط. بغداد (٦٠ ـ ٦١) والقسم الاول من مسالك الابصـــار لابن فضـل الله العمرى ط مصر (٢٣٥ ـ ٢٣٦) وتجد اخبار هذه الزيارة فى كتاب لا يزال مخطوطا لابن مماتى سماه « المقصد المرام فى عجائب الاهرام » .

(٤) قال قحطبة : قال لى محمد بن على وهو يذكر أهل خراسان « لا ننصر الابهم =

مصطلح التاريخ :

واعلم ان هؤلاء الخلفاء والأمراء العباسيين وقواد جيوشهم لا يقصدون بعبارة « أهل الشام » ـ كلما وردت عبارة من هذا القبيل فى خطبهم أو فى كلامهم ـ الا قبائل العرب التى حملتها موجة الفتوح الاسلامية واستقرت فى الشام وما اليها غالبا ثم شدت أزر الأمويين فى سياستهم أو فى حروبهم وتنكيلهم بالهاشميين وأنصارهم فى وقايع معروفة مثل واقعة « الحرة » و « الطف » و « الكوفة » واذا طالعتك فى كتب التأريخ أيضا عبارة « أهل العراق » أو « أهل مصر » فاعلم أنهم يريدون بذلك قبائل العرب التى استقرت فى العراق أو فى مصر بعد الفتوح ولا يقصدون أهل المدر أو سكان الحواضر الأصليين فى هذه الأقطار .

مرحلة انتقال فى التأريخ :

مرت بلاد الأتراك والشرق المذكور بأسره فى الفترة الواقعة بين أواخر خلافة هارون الرشيد الى أواخر خلافة المأمون وأوائل خلافة المعتصم بمرحلة خطيرة من مراحل الانتقال ، مرحلة امتازت باقبال الاتراك على الدخول فى حظيرة الاسلام وهى ثمرة من ثمرات السياسة الانشائية التى انتهجها المأمون فى ولايته على خراسان بل فى خلافته بأسرها وولاية عهده قبل ذلك ، وفى هذه الفترة اشتهر الفضل بن سهل وزير المأمون الملقب « بذى الرياستين » ولهذا الوزير جهود لا تنكر فى هذا الشأن .

= ولا ينصرون الا بنا قلوبهم كزبر الحديد أسماؤهم الكنى وأنسابهم القرى يطيلون شعورهم كالغيلان جعابهم تضرب كعابهم يطوون ملك بنى أمية طيا ويزفون الملك الينا زفا » ، ومن الشعر المروى فى هذا الباب :

الـــدار داران ايوان وغمـــدان	والملك ملكان قحطان وســاسان
والنـــاس فـــارس والاقليم بابل	والاسلام مكة والدنيا خراســـان

ولأعلام الأدب والمؤلفين فى البلدان كلماتهم فى الثناء على خراسان والدفاع عن الخراسانيين والتنـويه بأعلامهم ، انظـر عن كلمة قحطبـة وعن البيتين معجم البلدان ط لايبسك (٢/٤١٣ ـ ٤١٥) وللمأمون كلمة عن بعض مميزات مدينة « مرو » تجدها فى معجم البلدان (٤/٥٠٨) وقـد شغف ياقوت الحموى بمرو هـذه قاعدة خراســان ومنزل أميرها المأمون ، وهو ـ أعنى ياقوت ـ القائل : « أنسانى حبها كل بلد وألهانى عن الأهل والولد » ، وقد وصف صاحب المعجم هذه المدينـة الخراسانية وبيئتها العلمية وخزائن كتبها وصـفا شـائقا قائلا ان أكثر الفوائد التى حفـل بها معجمه مستفاد من خزائن الكتب المذكورة ، انظر المعجم المشار اليه (٤/٥٠٩ ـ ٥١٠) .

أقبل اتراك ماوراء النهر أتراك « الصغد » و « الشاش » و « أشروسنية » و « الصغانيان » ـ وفى مقدمتهم ملوكهم وأمراؤهم وأشهرهم « كاوس » وابنه حيدر ابن كاوس المعروف « بالافشين » وأمثالهم ـ على الاسلام وازدحمت وفودهم على باب المأمون أمير خراسان ثم وفدوا على بغداد فرأوا حرمة وافرة وصلات دارة وحياة رافهة لم يروا بعضها فى بلادهم ووجدوا أنفسهم فى بلاد العرب أو فى كنف حكامهم أحسن حالا من بقية اخوانهم الذين يعيشون فى كنف ملوكهم وقبائلهم الرحل المتنقلة فى فيافى الشرق . هذا وعلينا ان نلاحظ أن الفترة المذكورة فى تأريخ الاتراك والدولة العباسية امتازت بميل الفريقين الى التعاون أو ميل دار الخلافة الى التقرب من شعوب الأتراك بتخفيف المؤن والضرائب وحرمة الزعماء والأكابر ورعاية حقوق المسلمين منهم ومساواتهم بغيرهم من سائر المسلمين .

هكذا أسفرت هذه السياسة الانشائية عن نتائج باهرة فى تلك البلاد اذ نعمت بعهد منقطع النظير من الطمأنينة والرخاء فى عصر المأمون ثم استخلف المعتصم فحذا حذو أخيه ، ومن ذلك الحين انتظم فى سلك عسكره من انتظم من أتراك ما وراء النهر صغدا وفراغنة واشروسنية وغيرهم وحضر ملوكهم بابه وغلب الاسلام على من هناك من القبائل التركية بالحرب مرة وبالمكاتبة والدعوة تارة ، وكفى هؤلاء الأتراك جيش بنى العباس فى الفترة المذكورة مؤنة الحرب فى الثغور وراح الأتراك المسلمون يغزون من وراءهم تركا ومغولا ووصل طاهر بن عبدالله بن طاهر ـ من اشهر القواد فى عصره ـ الى مواضع لم يصلها أحد من قبله(١) .

فهذا ـ اعنى غناء الاتراك وكفايتهم فى الفتوح والالحاح فى الغارات والحروب على بنى قومهم ـ من أهم أسباب ركون المعتصم الى هؤلاء الأتراك وفى مقدمتهم كاوس وابنه الافشين بعد اسلامه وهو من ملوك القوم حتى غلب الاسلام على أهل تلك البلاد فى خلافة المأمون ثم المعتصم ، ولاسلام الافشين وحضوره الى بغداد قصة معروفة فى تأريخ الدولة العباسية .

وجد المعتصم ـ وقبله المأمون ـ مضاء وكفاية أظهرهما هؤلاء الذين دخلوا الاسلام من الترك فى حرب من وراءهم من القبائل والبوادى التركية والنكاية بمن خرج من

---

(١) انظر فتوح البلدان للبلاذرى (٤٣٥ ـ ٤٣٧) .

الخوارج من الخرمية وغيرهم بعد ذلك وقاموا فى هذه الناحية بأعمال ومهام لا يتسنى لسواهم من الخراسانيين والعرب القيام بها لأن الأتراك أدرى ببلادهم فكان ذلك من أهم دواعى تلك الثقة والاطمئنان بالأتراك وسد الثغور بقوم من أهلها كما عرف ذلك عن المعتصم ولكن المعتصم أفرط فى الاطمئنان الى القوم حتى أدى الأمر الى طغيانهم وغلبتهم على الخلفاء •

امتازت الفترة الأخيرة من عصر العباسيين الأول ـ اعنى عصر المأمون وأخيه المعتصم بضرب من السياسة الانشائية فى بلاد الشرق وما وراء النهر ـ كما قلنا ـ ، وقد نحا المأمون نحو سياسة مثمرة اساسها الكف عن الغزو والاثخان فى البلاد النائية وقوامها التعاون مع أهل البلاد المفتوحة والميل الى الصلح وتسوية ما بين الفريقين من الخصومات تسوية سلمية مهما امكن ذلك ، وقد توالت بعد هذه الفترة أو فى المائتين الثالثة والرابعة عصور ازدهرت فيها الثقافة الاسلامية ونهضت آداب اللغة العربية نهضة منقطعة النظير وأصبحت لغة الضاد فضلا عن كونها لغة الدين لغة العلم والكتابة والتأليف وتغلبت فى تلك الأصقاع الواسعة على اللغات كافة ووضع فيها عدد لا يستهان به من أمهات الأسفار فى العلوم والفنون •

سياسة وسياسة :

وخلاصة القول : يبدو لنا بشيء من المقارنة بين منهج الأمويين ومنهج العباسيين فى السياسة التى ساروا عليها فى المشرق ان ادارة العباسيين امتازت بقسط لا يستهان به من الرفق والمحاسنة بخلاف ادارة الأمويين وعمالهم التى تميزت بالشدة والجفاء •

ومن هذه الناحية عاند الوثنيون والمجوس وحافظوا على وثنيتهم فى كثير من الأقاليم المتاخمة لما وراء النهر فى العصر الاموى ، بيد أن القوم سرعان ما تخلوا عن الوثنية ودخلوا افواجا فى دين الاسلام وذلك فى أواخر العصر الأول من عصور بنى العباس وخصوصا فى عصر المأمون حيث أبلى الأتراك بلاء حسنا فى الدفاع عن حدود الدولة فى بوادى تركستان وعلى تخوم الشرق الأقصى • وهى ثمرة من ثمرات السياسة التى سار عليها المأمون ورجال الدولة(١) فلا غرو اذا رأينا العباسيين أبعد نظرا واكثر توفيقا

(١) انظر مادة « ما وراء النهر » من معجم البلدان عن غناء أهلها وبلائهم الحسن فى الدفاع عن الثغور وثقة العباسيين بهم من هذه الناحية

فى الاصلاح من الأمويين اذ كانت لبنى العباس سياستهم الأنشائية ومثلهم العليا فى ادارة تلك الاقاليم بخلاف بنى أمية على الاكثر اذ كان مثلهم الاعلى فيما نحن فيه طلب الملك من أجل الملك والسلطة لغرض السلطة • ولابد لنا من القول فى خاتمة هذا الفصل ان البلاد الاسلامية فى المشرق وفيما وراء النهر خاصة بقيت على منعتها وشوكتها وعلو كعبها فى الحضارة الى أن استفحل النزاع المعروف فى التاريخ بين خوارزم شاه والتتر حيث اخرب كثيرا من تلك البلاد لعجزه عن ضبطها وفرق مقاتلتها واجلى عنها اهلها ثم اخربها (الغز) فيما خربوه من ديار الترك وخراسان ثم اجهز عليها (التتر) فى صدر المائة السابعة كما هو مشهور فى التاريخ (١) •

ولابد لنا من القول ان اكثر مغازى المسلمين لبلاد الترك وقعت فى الدولة الاموية ومن أشهر قوادهم فى تلك الحروب المهلب بن أبى صفرة ثم قتيبة بن مسلم الباهلى وربما كان أشهر قائد من قواد العرب فى ذلك العصر ، وكان قتيبة على بلائه مستوحشا من سيرة بنى أمية ويعتبر فاتح خراسان وما وراء النهر ، وممهد ذلك الملك الجسيم للعرب ثم قتل فى فتنة وقعت هناك فى أيام سليمان بن عبدالملك قتله العرب انفسهم وقتل معه جماعة من اخوته وزوجته ، ويلاحظ ان شطرا واسعا من بلاد الترك او ما وراء النهر فتح صلحا فى أواخر المائة الأولى • وكان عدد المسلمين من الترك غير كثير فى العصر الاموى ولكن زاد عددهم فى أواخر العصر المذكور على ان الاسلام غلب على تلك البلاد فى العصر الاول من عصور بنى العباس • ففشا الاسلام بين الترك فى عصر المأمون ثم فى عصر المعتصم وان بدأ فى العصر الاموى ، ويلاحظ ان الأتراك الغربيين أسبق من اخوانهم الشرقيين الى ذلك • والخلاصة تأخر اسلام الترك فى الشرق الأقصى واواسط آسية ولكنهم أقبلوا على الاسلام شيئا فشيئا فى عصور العباسيين ثم فى عصور بعض

---

(١) انظر مادة (الشاش) و (نيسابور) من معجم البلدان ، ولاحظ تعليل المؤرخين الضعفاء لفتح نيسابور بمراسلة احد العلويين وقد استضعف ياقوت هذا الرأى ولهذا صدر الحكاية بقوله (زعم قوم) ولو كان المؤرخون الذين ظهروا بعد ياقوت فى طبقته من النقد والتمحيص لما جاز تصديق مثل هذه الاوهام ومن احسن المراجع فى وصف المراحل الاولى من هجوم التتار على العالم الاسلامى فى الشرق وتدمير حضارته كتاب الكامل لابن الأثير ففى عصر ابن الأثير شرع المغول فى غزو البلاد الاسلامية •

ومن المراجع الحسنة فى هذا الباب شرح ابن أبى الحديد على نهج البلاغة (٣٦٧/٢ - ٣٧١) •

الدول الاسلامية التى انفصلت عن الدولة العباسية فيما وراء النهر او بعض ديار الاتراك وما زال هذا شأن بعض القبائل التركية حتى بعد زوال دولة بنى العباس •

افراط فى العصبية :

وتتضارب الآراء فى سياسة بنى أمية من ناحية عصبيتهم العنصرية الغالية وسياستهم مع الرعية فنرى بعض المعنيين بالمباحث الشرقية من الغربيين ومقلديهم من الشرقيين يحمدون لبنى أمية افراطهم فى احتقار الموالى ولو أسلموا ولو حسن اسلامهم قائلين : ان النازيين هم أمويوا أوربة من حيث دعوى التفوق العنصرى وان جنت هذه العصبية العنصرية على النازيين كما جنت من قبل ذلك على الامويين ، هذا وهناك كثير من الباحثين والمؤرخين من قدماء ومحدثين يعتبرون عددا من بنى أمية مارقين عن هداية الاسلام فى هذا الضرب من الافراط فى العصبية فان الاسلام يدعو الى التسامح والتسوية ، ومع ذلك ينفى أصحاب هذا الرأى مشايعتهم للشعوبية •

معاملة الموالى :

تحفل كتب الأدب والتأريخ بذكر الأساليب التى اتبعها الامويون فى احتقار الموالى وسوء معاملتهم فى المجالس والمواكب والمخاطبات وغير ذلك من المعاملات ولم يقف الامويون عند هذا الحد من الازدراء بالموالى بل تجاوزوه الى احتقار أبناء الامهات من الامويين وغيرهم فهم لا يرون استخلاف بنى الاماء قائلين : لا يصلح بهم العرب أى ان بنى أمية ماكانوا يبايعون بنى أمهات الأولاد ، قال الأصمعى : لم يكن ذلك لاستهانة بهم ولكن لما كانوا يرون ان زوال ملكهم يكون على يد ابن أم ولد[1] وكان عمال الدولة يستهينون بهم ولا يسوون بينهم وبين غيرهم من المسلمين فى الحقوق ، واسقط الحجاج ديوان الموالى وفرق كلمتهم ونفاهم الى دساكرهم قائلا : « انتم علوج وقراكم أولى بكم » ، وقد استشار معاوية الأحنف بن قيس فى التخلص من الموالى لكثرتهم فنهاه عن ذلك قائلا : ان منهم اخواننا لامهاتنا ومنهم أخوالنا ومنهم موالينا وقد شاركناهم وشاركونا فى النسب فكيف تطيب نفسى بقتلهم فأخذ معاوية برأيه ، والواقع ان جل الفقهاء

---

(١) العقد الفريد (٤/١٨) ط الجمالية •

وحملة الأثر في الدولة العباسية وما قبلها من الموالى وقد وردت أسماء حملة الأثر والفقهاء فى حديث جرى بين ابن أبى ليلى والأمير عيسى بن موسى الذى مر بنا ذكره فمنهم فقهاء البصرة والمدينة ومكة والشام وفقهاء اليمن وخراسان ، ويستنتج من هذه المذاكرة ان عيسى هذا كان من أشد الناس حمية للعرب (١)، هذا وقد عرض ابن خلدون لموضوع الموالى والمصطنعين فى فصول عدة من مقدمته وخاصة فى مباحثه عن الملك والدولة والخلافة وعقد فصلا عنوانه « استظهار صاحب الدولة على قومه بالموالى المصطنعين » وله فى هذا الفصل مقارنة بين الدولتين العباسية والاموية ومن رأى ابن خلدون ان الأول من خلفاء بنى العباس استظهروا فى حروبهم وولاية اعمالهم بالعرب كالامويين (٢) ، أجل بايع العباسيون ابناء امهات الأولاد ولكن ذلك لم يمنع دولتهم من أن تعيش أكثر من خمسمائة سنة وكره الامويون بيعة القوم ولكن الدولة الاموية لم تعش خمس هذه المدة وفى ذلك ما فيه من عبرة وموعظة .

هذا ولابناء الامهات أخبار وملح ونوادر غير قليلة فى عصر الراشدين وعصر الامويين ، ولا قحاح العرب نظرة خاصة الى هؤلاء الأبناء ولهم ذكر فى أشعارهم وأقوالهم ، ومما احتجوا به لرفع منزلتهم الى مستوى الخلص من أبناء العرب ان كثيرا من أعيان التابعين وأئمة المسلمين كانوا أبناء أمهات اجنبيات وكان سعيد بن المسيب يميل الى تنقص أمثالهم الى أن رأى فى يوم واحد الامام على بن الحسين والقاسم بن محمد ابن أبى بكر وسالم بن عبدالله بن عمر وأمهاتهم بنات يزدجرد فعظم أبناء الامهات فى عينه وقد منع الامام على بيع بنات يزدجرد بعد السبى وقال لعمر : انهن بنات ملوك لا يعاملن معاملة بنات السوقة ثم زوجهن بمن زوجهن ، وكان يقال لعلى بن الحسين : « ابن الخيرتين » كما كان هو نموذجا فى البر بوالدته الأميرة الفارسية ، وأخباره مشهورة فى هذا الباب ، وقال عمر بن الخطاب ليس قوم اكيس من اولاد السرارى لأنهم يجمعون عز العرب ودهاء العجم ، ولبلال بن جرير فى أم اولاده وهى جارية فارسية :

---

(١) العقد الفريد (٤/ ٢٦٠ - ٢٦٢) .

(٢) من اوفى المراجع فى البحث عن الموالى وأبناء الاماء والسرارى الكامل للمبرد وكتب ابن قتيبة خصوصا كتاب عيون الاخبار وكتاب العرب والرد على الشعوبية والعقد الفريد لابن عبدربه ومقدمة ابن خلدون .

اذا عرضوا عشرين الفا تعرضت لام حكيم حاجة هي ما هيا
لقد زدت أهل الرى عندى مودة وحببت أضعافا الى المواليا

وله في الدفاع عن عنصر زوجته هذه أخبار ، قال المبرد انشدني الرياشي :

ان اولاد السرارى كثروا يا رب فينا
رب ادخلني بلادا لا ارى فيها هجينا

بواعث الشك :

حجز السفاح والمنصور من حجزاه من الأعمام وأبناء الأعمام بعيدين عن خراسان وعن المشرق كما مر شرحه ومن ذلك نعلم أن حجر آل على في الشطر الغربى من المملكة ما هو الا خطة سياسية مرسومة تدل على غاية الحزم واليقظة واذا تصفحنا تأريخ العصر الأول من عصور الدولة وقفنا على بعض بواعث الشك التى ساورت الخلفاء في نيات أعمامهم وابنائهم فمن ذلك وشايات رواها المؤرخون ولا يستبعد وشاية بعض المسالمين من آل على في العراق بالناقمين من ذويهم المقيمين في مصر أو في الشام واكثر من هذا اننا رأينا بعض أمراء البصرة من آل على يشون باخوانهم فهذا جعفر بن سليمان ابن على يشي بأخيه محمد أمير البصرة عند الرشيد قائلا : انه يحدث نفسه بالخلافة بيد ان الرشيد لم يقم وزنا لهذه الوشاية اذ كان له في زوج اخته العباسة هذا رأى آخر بل كان الرشيد سيىء الرأى بالواشي يتهمه بالحسد كما مرت الاشارة الى ذلك (١) ، وهذا عبدالرحمن بن عبدالملك بن صالح يشي بأبيه الأمير ويتهمه بالكيد للخلافة والدعوة الى نفسه في أيام الرشيد وعلى شهادته هذه نكب الرشيد أباه نكبته المعروفة كما ستراه ، ويلاحظ ان الرشيد استخدم عبدالرحمن بن عبدالملك عينا لموافاته بأخبار ذويه .

تجلى في عصر المهدى والهادى والرشيد أى في أواسط العصر الأول من عصور بنى العباس الى أواخر العصر المذكور ما كان يضمره فريق من آل على من الوثوب بالدولة أو ما يبيتونه للخلافة أضف الى ما قدمناه ان هذا الجذم من البيت العباسي أدنى طبقة الى جدهم العباس بن عبدالمطلب ثم ان لهم عددا لا يستهان به من الأنصار ، ولذلك رأينا أبا جعفر المنصور يبادر الى عزل عمه صالح بن على أمير مصر أجل أعمامه بعد أخيه عبدالله ولم يحجم عن نقله في مدة وجيزة من شواطىء النيل الى شواطىء دجلة حتى اصبح

(١) انظر ذيل الصفحة (١٤٩) من هذا الكتاب .

عمل الأمير صالح على كتب من دار الخلافة لا تجهد المنصور مراقبته والوقوف على مآتى الأمير المذكور .

هذا ويلاحظ ان المنصور لم ينتدب لمصر – بعد عزل عمه المذكور – أميرا عباسيا على الاطلاق على طول مكثه فى الخلافة فقد مكث فيها اكثر من عشرين سنة وفى ذلك ما فيه من الدلالة على ان المنصور فقد جانبا كبيرا من الثقة والاطمئنان بكثير من هؤلاء الامراء العباسيين فى عصره ولم يأمن غوائلهم لانهم أصبحوا بين حاسد أو مكبوت فى كثير من الأحيان .

من هذه الناحية رأينا المنصور يتجه الى اختيار عماله على الديار المصرية من غير أهله وذويه أو أعمامه المذكورين ولم يكن له مناص من ذلك بعد ارتيابه بهم ولم يكن له مفر من استعمال الولاة الأباعد المحنكين ، وقد وقع اختياره مرة على أحد نقباء الدعوة العباسية وهو موسى بن كعب (١) واليا على الديار المصرية ، ولم يرجع المنصور عن خطته هذه فى استبعاد أعمامه المذكورين عن تلك الولاية حتى مات .

لم يحدث خلال هذه الفترة وبعد اجراء هذه التجربة الجديدة اعنى استعمال الأمراء الأباعد على مصر ما يزعج المنصور سوى انتقال دعوة بنى الحسن من المدينة الى الديار المصرية سنة ١٤٥ على يد أحد أبناء النفس الزكية محمد بن عبدالله بن الحسن (٢) بمؤازرة بعض رؤساء القبائل المصرية ولكنها دعوة لم يكتب لها النجاح فى مصر ومات قادتها فى مدة قريبة ، وفى هذه الفترة أيضا من خلافة المنصور اضطرب الأقباط وخالفوا بعض الولاة ولكنهم سرعان ما غلبوا على آمرهم هناك (٣) .

عاد أبناء المنصور وأحفاده من بعده – وفى مقدمتهم المهدى والهادى والرشيد

---

(١) انظر كتاب الولاة وكتاب القضاة للكندى (١٠٦ – ١٠٨) وفى هذا الكتاب قائمة باسماء ولاة المنصور من غير اهله على الديار المصرية بعد عزل عمه عن الولاية .

(٢) هو على بن محمد كان أبوه وجه به الى مصر من المدينة ووجه معاه أخاه موسى المعروف فى كتب الانساب بموسى الجون ، وللوقوف على التفاصيل يرجع الى تاريخ الطبرى (٢٩٢/٩) ومقاتل الطالبيين ط القاهرة (٢٠١ – ٢٩٥) وكتاب الولاة وكتاب القضاة للكندى (١١٠ – ١١٦) .

(٣) كتاب الكندى (١١٦ – ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٣٥) .

والمأمون والمعتصم [١] ـ الى استعمال الأمراء العباسيين على مصر والشام ولم يستثنوا آل علي من ذلك متشددين في مراقبتهم مكثرين من عزلهم كما فعل المهدي بعم أبيه الأمير عبدالصمد غير مرة وكما فعل الرشيد بعيسى بن موسى وابنه الأمير موسى الى غير ذلك وقد عنى مؤرخوا مصر كالكندي والمقريزي وابن تغرى بردى بشرح ذلك .

امراء متزمتون :

عاش آل علي في البيئتين الشامية والمصرية عيشة تكاد أن تكون بدوية في بعض الأحيان أو هي تختلف عن حياة العباسيين في العراق بل كانت حياة فريق من أمراء آل علي هؤلاء الى أن تكون حياة جافية أو حياة أمراء اعتادوا الخشونة والشظف أقرب من أن تكون حياة أمراء مترفين أو ناعمين فسكن أوائلهم المدن القريبة من البادية واختار صالح بن علي الاقامة في مدينة « سلمية » لوقوعها في بادية حمص وحماه وهي ديار القبائل البدوية من كلب وتغلب وغسان قبل الاسلام وبعده وعرفت هذه المدينة به فهي مدينة صالح بن علي اتخذها هو وولده منزلا وأنشأوا الأبنية في هذه المدينة [٢] وكانت لهم الرملة من مدن فلسطين حتى انها انتقلت لورثة صالح لما قبضت اموال بني أمية [٣] ثم سكن آل علي هؤلاء العواصم والثغور ولم تعرف العواصم والثغور بأسمائها الا في أيام هارون الرشيد، وأيام هؤلاء الأمراء وهم الذين انشأوا الحصون والمسالح والقلاع

---

(١) انتقلت الدولة العباسية بعد عصر المعتصم بمدة غير طويلة الى دور من ادوار التجزئة والانقسام وهو الدور الذى ضعف فيه سلطان الخلفاء وتضعضع مركز دار الخلافة وانحسر ظلها عن بعض الاقطار الاسلامية البعيدة مثل خراسان في الشرق ومصر والمغرب في الغرب حيث انتقل الأمر الى ملوك الأطراف أو الأمراء المستقلين الى أن قنع الخلفاء من خلافتهم بضرب من السلطة الروحية البحتة على ملوك الأطراف المتغلبين ففي منتصف المئة الثالثة ظهرت الدولة الطولونية بمصر وعاشت الى صدر المئة الرابعة ثم ظهرت الدولة الاخشيدية ولم تعش الا مدة يسيرة واستقل من استقل من الأمراء بافريقية هذا في الغرب وظهر بعد ذلك السامانيون والديالمة ثم السلاجقة في الأقطار الشرقية .

(٢) انظر معجم البلدان ط لايبسك (٣/١٤٣ ـ ١٤٤) وفي سليمة هذه تم تنظيم الدعوة الفاطمية فكانت مركز هذه الدعوة ومنها انبث دعاة الفاطميين شرقا وغربا في اواسط عصور الدولة العباسية كما انبعثت الدعوة العباسية من « الحميمة » في ذيل الدولة الأموية ، ويراجع عن ذلك أيضا الكامل (١٢ ـ ١٤) ، والخطط للمقريزي (٢/١٠ ـ ١٢) واتعاظ الحنفاء له والعبر (٤/٣١) .

(٣) معجم البلدان (٢/٨١٨) .

التى اطلقت عليها كلمة « العواصم » وكلمة « الثغور » وفيها أقام غير واحد منهم بين حلب وانطاكية الى بلاد الروم وعلى ضفاف الفرات الأعلى شرقيه وغربيه فكانوا يستجمون من عناء الغزو فى هذه القواعد كما كانوا يضطلعون بأعباء الدفاع عن حـــدود الدولة العباسيـــة ويتغلغلون فى مملكة الروم ، وهؤلاء الامراء المتزمتــون المتقشفون من ولد على عنوا بتنظيم شؤون هذه الحصون الدفاعية ، ولعل اكثر مدن الثغور والدروب دروب الروم المعروفة من انشاء صالح بن على وأولاده كأذنة « أطنة » بناها صالح سنة ١٤١ أو بعد ذلك بسنة و « طرسوس » و « منبج »(١) مدينـــة عبدالملك بن صالح المذكور ومسقط رأس البحترى و « مرعش » و « ملطية » و « زبطرة » و « قلنسرين » و « بطياس »(٢) كان بها قصر لعــلى بن عبدالملك بن صــالح بن على أمير حلب و « ارتاح »(٣) حصن منيع من العواصم من أعمال حلب ملكها اسماعيل بن صالح بن على(٤) .

لا نبالغ اذا قلنا ان آل على شاميون اكثر منهم عراقيين واكثر منهم حجازيين وقــد رأيت ــ كما سترى أيضا ــ ما يؤيد هــــذا القول ، قال الجاحظ ــ ولا يخــلو قوله من الغلو ــ : « كان داود بن على وعبدالله بن على يعدلان أمــة من الأمم » غلب التقشف والخشونة على عدد من آل علي فلم ينغمسوا بالترف انغمــاس ابناء محمــد من الخلــفاء والأمراء غالبا لمكان بعدهم عن بغداد فكانوا يعيشون عيشة الجند ، ولذلك رأينا غير واحد من أبناء على ينكر على أبناء عمهم انحرافهم عن سيرة سلفهم وحضور مجالس الشراب ، اعتبر ذلك بما قاله صالح بن على واثنان من أولاده عبدالملك وعبدالله ابنا صالح المذكور ، ولهؤلاء الثلاثة نوادرهم فى التزمت والعزوف عن الترف واللين .

---

(١) كانت منبج فى عصر الرشيد قصبة العواصم والحصــون والمسالــح التى يستجم بها المسلمون بعد ايابهم من غزو الروم وكانت « انطاكية » قبل « منبج » قصبة الحصون المذكورة ، وهى أى « منبج » مدينــة عبــدالملك بن صالح ، وله فيهــا أبنيــة مشهورة وصفها للرشيد بكلمة بليغة ، وفى مادة « الثغر » من معجم البلدان شىء من أسماء هذه العواصم والثغور وشىء من تاريخها وما وقع فيها من احداث (١/٩٢٧ ــ ٩٢٩) .

(٢) انظر معجم البلدان (١/٦٦٧) .

(٣) انظر قصــة تملكهــا فى مهــذب تاريخ ابن عســاكر (٣/٢١) وانظر معجم البلدان (١/١٩٠) .

(٤) من اوفى المراجــع فى البحث عن عنــاية العبــاسيين وخــاصة آل على منهم بتنظيم الثغور والعواصم فتوح البلدان للبلاذرى (١٣٣ ، ١٧٧ ، ١٧٩) ومعجم البلدان (١/١٧٩ ، ٧٦٥ و ٣/٧٤١ ــ ٧٤٢) .

احاديث فى التزمت والوقار :

يحفل تاريخ الدولة العباسية بذكر آل علي أعمام الخلفاء ويقترن ذكر المقيمين بالشام منهم خاصة باحاديث التزمت والوقار وانكار الانغماس فى الترف والاخلاد الى الدعة ويتحدث المتحدثون عنهم بالجدّ والصرامة واجتناب المجون والانهماك بالملاذ وغشيان مجالس القصف واللهو التى شاع أمرها فى الدولة العباسية ولهم فى هذه الناحية قصص وحكايات رواها اصحاب السير والتاريخ ، ومن هذا القبيل ما روى عن الأمير صالح بن على وبعض أبنائه مثل عبدالله وعبدالملك وان بعضهم لم يشهد ناديا من اندية اللهو والقصف فى عصره حتى مات ، والحق اننا نجد فى سيرة كل من السفاح والمنصور امثلة من التزمت والعزوف عن اللهو والمجون •

حديث للمنصور فى السياسة والتاريخ :

ومن العادات المحمودة اجتماعيا ان الأول من خلفاء بنى العباس كانوا يجمعون أفراد اسرتهم من شباب وشيوخ ليملوا عليهم دروسا فى الحديث والتاريخ ، وكانت بعض محافلهم بمثابة مدارس تضمنت مناهجها ابحاثا فى السياسة والأخلاق ويعد المنصور من اكثر العباسيين خبرة بتاريخ العرب وتاريخ القرشيين من هاشميين وامويين ، وفى مجلس من مجالسه شهده حشد من ذويه وفى طليعتهم الأمير صالح بن على عم الخليفة جرى ذكر الأمويين وسيرتهم وسياستهم والسبب الذى من اجله دالت دولتهم وذهب مجدهم وتولى المنصور ادارة الحديث فاستهل كلامه بتعريف بنى أمية واحدا فواحدا عرف كلا منهم بكلمة جامعة فهذا عبدالملك بن مروان جبار لا يبالى بما صنع وهذا سليمان بن عبدالملك لا يعنيه شيء سوى بطنه وفرجه وحتى عمر بن عبدالعزيز فهو اعور بين عميان وكان رجل القوم غير منازع هشام بن عبدالملك ثم ينتقل المنصور من ذلك الى موضوع يتصل بقيام الدول وزوالها وصعودها وهبوطها حسبما تقتضيه سنن الكائنات وطبيعة الاجتماع قائلا : « لم يزل بنوا أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه ويحفظونه حتى افضى الأمر الى ابنائهم المترفين فكانت همتهم فى قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصى الله جل وعز جهلا منهم باستدراجه وأمنا لمكره مع استخفافهم بحق الرياسة وضعفهم فى السياسة فسلبهم الله العز والبسهم الذل ونفى عنهم النعمة »[١] •

(١) روى هذا الحديث الربيع بن يونس حاجب المنصور ونقله المسعودى عنه فى المروج (٢/١٦٤) •

هكذا يحدثنا المنصور عن الامويين ولا يخلو هذا الحديث من عبرة ، وموضع العبرة سوء عاقبة الانغماس فى الملاذ والشهوات على الأفراد والجماعات وخصوصا اذا انغمست الهيئة الحاكمة فى ذلك وشاع فيها الانحلال والفساد ، ومما لا شك فيه ان غرض المنصور وعمه الأمير صالح بن على من اثارة البحث فى سيرة بنى أمية من الناحية المذكورة هى ان ينتفع العباسيون من موضع العبرة فى هذا الحديث وهى واضحة ، والامم الحية هى التى تنتفع بعبر التاريخ وتجارب الأجيال مفيدة من خطئها وصوابها على حد سواء .

حديث الأموى مع ملك النوبة :

ولم انتهى المنصور من كلمته حتى بادره عمه الأمير صالح قائلا : عندى لهذا الحديث صلة فى قصة عبدالله بن مروان الذى فر الى النوبة فى أيام السفاح فان لملك النوبة حديثا شيقا فى أسباب زوال الدولة الأموية على أيدى المترفين من أبنائها فما مضت هنيهة حتى احضر الفتى الأموى من سجنه وادلى بحديثه مع ملك النوبة . والحديث عبارة عن حوار لطيف بينهما لا يخرج مداره عما جاء فى حديث المنصور ، بيد ان ملك النوبة ناقش آراء ضيفه الاموى فى علة سقوط قومه وفندها ولم يقبل معاذيره ناقشها بشكل لا يخلو من التهكم والسخرية ثم اعلن رأيه فى علة زوال الدولة الأموية وان مردها الى الظلم والطغيان والى سياستهم الخرقاء وعسفهم مع الرعية ، ويقول المؤرخون ان المنصور كان يصغى فى دهشة الى هذا الحديث وظهرت عليه الرقة لصاحبه وهم باطلاقه لولا ان فى عنقه بيعة .

هذه هى خلاصة الحكاية ، وسواء أكانت هذه القصة موضوعة كلا أو بعضا أو لم تكن كذلك فانها من تلك القصص التى تؤلف لتحقيق غرض من الاغراض الاجتماعية أو الخلقية أو السياسية ، لا يعدو الموعظة والدعوة الى المحافظة على منهاج السلف الأول والتحذير من مجاراة بنى أمية فى الترف والفساد والظلم والطغيان(١) .

انظر عن هذه القصة عيون الاخبار (١/٢٠٥ ـ ٢٠٦) والمروج (٢/١٦٤ ـ ١٦٥) ورواية المسعودى اتم من رواية عيون الاخبار وقد اختار ابن خلدون رواية المسعودى ، ويحسن مقابلة النصوص فى القصة المذكورة فانها لا تخلو من الاختلاف . وراجع عن هروب ولدي مروان وذويهما الى بلاد النوبة والبجة شرح النهج (٢/٢٠٢) .

النساك ورجال الدولة :

ويلاحظ ان هذا الضرب من التمسك بالحشمة والوقار لم يمنع فريقا من مشايخ ذلك العصر ونساكه من غمز صالح بن على ونقده وانكار ما يحفل به خوانه من فاخر الأطعمة والأشربة فهذا ابن قتيبة يحدثنا ان صالحا بعث الى « ابن أبى الحوارى » وهو على مائدته فى جمع من الفقهاء ـ وكان ابن أبى الحوارى معروفا بالزهد والرقايق ـ بقدح من النبيذ فشربه ثم بعث اليه بثان فامتنع من شربه فأخذه الناس بالسنتهم قائلين شربت المسكر على أخاوين هؤلاء وصرت لهم حجة فقال ابن أبى الحوارى : احسبكم اردتم ان اكون ممن ذكر الله فقال : « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم » .

هذا ما رواه ابن قتيبة(١) والظاهر ان هذا الصوفى الجرىء استساغ تناول النبيذ على مذهب أهل الرأى من فقهاء العراق وجلهم على تحليله واشترط بعضهم عدم الاسراف فيه لأن الاسراف فى تناول النبيذ يفضى الى معاقرة الخمرة فى كثير من الأحيان ، ولهذا البحث صلة ستطلع عليها فى بعض الفصول الآتية .

مثال آخر من التقشف :

رأينا فى القصة الماضية مثالا من تزمت الطبقة الأولى من العباسيين وهاك مثالا آخر ضربه عبدالله بن صالح من امراء آل على المقيمين فى الأقطار الشامية وقد عاش القوم ـ كما قلنا ـ بعيدين عن بغداد وعن مباهج الحياة الناعمة فيها فهم يقيمون فى البوادى أو فى حواضر أشبه بالبوادى أو مرابطين بالثغور ، ومن هذه الناحية وجدنا غير واحد منهم ينكر على ذويهم المقيمين فى العراق انحرافهم عن سيرة سلفهم فى التقلل والتقشف ويأخذون عليهم الاسراف فى المجون ومعاقرة المسكرات ولنعتبر بما قاله عبدالله هذا فى احدى زياراته لبغداد وكان قادما عليها من « سلمية » .

---

(١) كتاب الاشربة لابن قتيبة طدمشق (٨٤ ـ ٨٥) وانظر عن احمد ابن أبى الحوارى الدمشقى المتصوف الذى يقول الجنيد عنه : « ريحانة الشام » وعن بعض اقواله كتاب اللمع (٥٣ ، ١٧٨ ، ٢٧١ ، ٢٨٥) وتذكرة الأولياء للشيخ فريد الدين العطار النيسابورى وهو كتاب مشهور عن الصوفية ألفه بالفارسية ففى هذه التذكرة فصل ضاف عن ابن أبى الحوارى ونبذة من أقواله (٢٣٨ ـ ٢٣٩) ط طهران وراجع أيضا طبقات الشعرانى ط مصر سنة ١٣٠٥ (٢/٨١) .

ويعد عبدالله بن صالح هذا فيما يرى الجاحظ (١) بين من لم يكن له نظير من ولد العباس فى اصالة الرأى والعلم بشؤون الدولة ورجال الدعوة مع البيان العجيب والغور البعيد .

دخل هذا الأمير العباسى بغداد فى خلافة الرشيد فوجدها تزهو باقشب حللها وتعج بمقاصفها وملاهيها الحافلة بروادها فلم تعجبه سيرة ذويه من شباب بنى العباس واستهجن جريهم على منهج يختلف عن منهج آبائهم على ما يقول ، ثم قال : « ما عرف فينا أهل البيت رجل يشرب نبيذا ولا يسمع غناء حتى ولى .... (٢) » .

هذه خلاصة ما جاء فى تاريخ بغداد للخطيب ، ومكان اسم الخليفة الذى وردت الاشارة اليه وانه اول خليفة شرب النبيذ وسمع الغناء بياض فى أصل النسخة ، ومن المؤلم حقا ان تذهب بسقوط هذا الاسم فائدة تاريخية جليلة وشهادة شاهد من أهل البيت العباسى يصح الاستناد اليها فى تعيين اول خليفة من هذا الطراز بين خلفاء بنى العباس لأن فى تعيينه خلافا بين اصحاب السير والمؤرخين ، ولاشك ان الباعث على اسقاط هذا الاسم سياسى بحت وقد حذا هذا الحذو غير واحد من المؤلفين فى تاريخ الدولة العباسية فهذا ابن قتيبة لم يعرض لمجالس الخلفاء فى اللهو والشراب وما الى ذلك مما هو مشهور فى تاريخ الدولة العباسية .

---

(١) البيان والتبيين الطبعة الثانية : ٢٦٦ .

(٢) ترجم لعبدالله بن صالح هذا الخطيب فى تاريخ بغداد (٩/٤٧٦ ـ ٤٧٧) .

وما جاء فى هذه الترجمة : قدم عبدالله بن صالح فى خلافة الرشيد مدينة السلام فدخل عليه أحداث من أهل بيته فرآهم على غير منهاج آبائهم فلما مضوا من عنده تمثل :

سوء التأدب أرداهم وغيرهم ... وقد يشين صحيح المنصب الأدب

وروى صاحب تاريخ بغداد عمن قال : سمرت عند عبدالله بن صالح فذكرنا ما حدث من الاستهتار باللذات فقال « ... لقد ادركت من مضى من أهل بيتى يصونون من الدنس اعراضهم ويحفظون من العار أحسابهم ثم خلف من بعدهم خلف كما قال حسان بن ثابت .

انى رأيت من المكارم حسبكم ... ان تلبسوا حر الثياب وتشبعوا

فى أبيات نسبها الماوردى فى الاحكام السلطانية الى عبدالرحمن بن حسان مات عبدالله بن صالح بن على بسلمية فى أرض حمص سنة ١٨٦ .

ولعبدالله بن صالح هذا أخباره فى كتب الادب والتاريخ ، فمن ذلك هديته الى الرشيد وقد زار الرقة مشفوعة برسالة عنى الادباء والمؤرخون بالاشارة الى بلاغتها وبراعة كاتبها ، وكان الرشيد أول من فطن الى موضع النكتة فى هذه الرسالة اذ كانت الهدية موضوعة داخل اطباق نسجت من الخيزران فعدل الكاتب الى استعمال لفظة أخرى هى « القضبان » اعظاما لام الخليفة ، ويلاحظ ان الرشيد اغتبط بملاحة هذه الكناية ، وينسب بعض المؤرخين هذه الهدية والرسالة الى عبدالملك بن صالح اخى عبدالله المذكور[1] .

ومن أخبار عبدالله بن صالح بن علي ما رواه الجهشيارى أنه استكتب قمامة ابن ابى يزيد مولى سليمان بن علي وكان يكتب لابيه صالح من قبل ثم للقاسم بن الرشيد من بعده، ولقمامة رسائل مشهورة وبلاغة مذكورة وكان جده أحد من اتبع من صار من الحميمة الى الكوفة من بنى هاشم فى أول الدولة ، وأشار الجهشيارى الى سعاية قمامة هذا بعبدالملك ابن صالح عند الرشيد[2] ، ومن أخبار عبدالله ان الامين ولاه قيادة جيشه لقمع بعض الفتن القبلية فى الشام بيد ان فتنة الاخوين فى بغداد كانت من العوامل التى أدت الى تخبط الشاميين بالفوضى ولم يتسن لعبدالله قمع الفتنة المذكورة[3] وعبدالله بن صالح هو الذى رفضت احدى بنات مروان التزوج به لما عفا أبوه عن بقية أهلها بعد أسرها قائلة : « أى اوان عرس هذا ؟ » ويقول المؤرخون ان نساء مروان طلبن العفو والحاقهن بحران فأجابهن صالح الى ذلك[4] .

المسكرات فى تاريخ بنى العباس :

لا شك ان جل خلفاء بنى العباس ولا نستثنى الطبقة الأولى منهم ما كانوا يرون حرجا فى تناول الانبذة عملا بفتيا أهل الرأى من فقهاء العراق وهى فتيا معروفة وقد

(١) مروج الذهب للمسعودى (٢ ــ ٢٠٠) وقارن ما فيه بما ورد عن الموضوع فى محاسن الملوك من مخطوطات « طوبقبو » فى الاستانة .

(٢) كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى (٢٦٢ ــ ٢٦٣ ، ٢٦٥)

(٣) تاريخ الطبرى (١٠ ــ ١٥٥) وانظر عن قصة بنات مروان هذه كتاب الغرر للوطواط ص ٢٥٥

(٤) المروج (٢ـ٢٠٦ ــ ٢٠٧)

عنى مؤرخو بنى العباس حتى القائلين بنزاهتهم وان الشبهة لا ترقى الى سيرتهم بالاشارة الى هذه الناحية ولم يحجموا عن التصريح بان الطبقة الأولى منهم استغنت بحلال النبيذ عن حرام الخمرة على حد ما يقولون ، ومن هؤلاء المؤرخين ابن قتيبة وابن خلدون على ما سنراه .

هذا ما يتعلق بالنبيذ واما الخمر فان فريقا من هؤلاء المؤرخين يميلون الى تنزيه الطبقة الأولى عن معاقرتها على انهم قالوا : ان الطبقة الثانية من اولئك الخلفاء وهى التى تبدأ بالمعتصم ومن يليه ما كانت تتحرج من معاقرة الخمرة فضلا عن النبيذ ، وأمر المعتصم والمتوكل والواثق وكثير من ذويهم وابنائهم معروف فى هذه الناحية ، وهذا هو رأى ابن خلدون وقد مر بنا قريبا اشارة الى تعيين أول من تناول النبيذ من القوم بيد ان مكان اسم الخليفة بقى بياضا فى النسخة ، هذا وكلام المؤرخين فى هذا الباب لا يخلو من اضطراب ، ويروى بعضهم ان السفاح اول خلفائهم ما كان يتحرج من تناول النبيذ ، وفيما يلى خلاصة ابحاث المؤرخين فى هذا الموضوع .

رأى مؤلف كتاب التاج :

جاء فى كتاب التاج المنسوب الى الجاحظ شىء من عادات العباسيين فى الشراب من السفاح الى الواثق (١) ولم يصرح مؤلف الكتاب بماهية الشراب ، والمشهور ان الطبقة الأولى منهم اقتصرت على تناول النبيذ المحلل عند القوم . قال صاحب التاج (٢) : « كان الرشيد فى اخلاق أبى جعفر المنصور يتمثلها الا فى العطايا والصلات والخلع فانه كان يقفو فعل أبى العباس والمهدى ، « ومن أخبرك انه رآه قط وهو يشرب الا الماء فكذبه وقد كان لا يحضر شربه الا خواص جواريه وربما طرب للغناء » ومعنى هذا ان الرشيد كان يشرب ولا يتظاهر بذلك ، وفى كتب السير قصة

---

(١) كتاب التاج (١٥٢ ـ ١٥٣) .
(٢) ص (٣٧ ـ ٥٣) .

معروفة له مع ابن بختيشوع الطبيب تؤيد الرواية السابقة فى تكتمه وانه ما كان يتظاهر بتعاطى المسكرات [1]

هذا ما ورد فى كتاب التاج وغيره ولا ندرى كيف نوفق بين هذه الأقوال وبينما كانت عليه بغداد فى عصر الرشيد وهى دار السلام وجنة الأرض ، وفيها ما فيها من مسارح اللهو ومجامع السمر ومجالس الاغانى والمنادمة وفيها شيوخ الفن مثل ابراهيم بن المهدى واسحق الموصلى وابراهيم بن اسحق ، أيجوز ان تخلو تلك المجالس والأندية البغدادية من معاطاة المسكرات ومعاقرة الخمور ؟

رأى ابن قتيبة :

يعد كتاب « الاشربة » [2] من امتع مؤلفات ابن قتيبة ، ورد له ذكر فى كتاب عيون الاخبار له [3] وقد نشأ ابن قتيبة فى ارقى عصور الدولة العباسية وفى هذا العصر كان البحث فى الاشربة واحكامها شغل الفقهاء الشاغل ولهذا المعنى عنى هذا الاديب الفقيه بتأليف كتابه فيها والاشارة الى مختلف الاقوال والمذاهب وتضارب آراء الناس فى الاشربة والانبذة بين محلل ومحرم ومفرق بين أحكامها تبعا لاختلاف أنواعها واصنافها ومتردد بين هذه الاقاويل ، وللمؤلف تعليق لطيف فى خاتمة بحث له عرض فيه الى مختلف الاقاويل الفقهية فى الشراب يقول فيه : « أجمعوا جميعا على ان تركه خير من شربه والتنزه عنه اسلم فى الدنيا والدين واحسن فى الاحدوثة وأصون للمروءة خلا رجلين كانا به مغرمين أحدهما من أهل الرأى والآخر من أصحاب الكلام وهو تسويل النفس ومساعفة الهوى وتربص الشيطان [4].

هذا هو تعليق ابن قتيبة ومهما كان الامر فان مذهبه تحليل النبيذ وهو القائل فى ديباجة كتابه المذكور [5] « حرم الله بالكتاب الخمر وبالسنة المسكر وعوضنا عنهما صنوف

---

(١) انظر عن هذه القصة مروج الذهب (٢/١٩١) وعيون الأنباء (١/١٢٩) .
(٢) ط دمشق سنة ١٣٦٦ .
(٣) العيون (١/٣٢٥) ط القاهرة .
(٤) كتاب الأشربة ٨٨ .
(٥) كتاب الأشربة (١٦) .

الشراب من اللبن والعسل وحلال النبيذ » ، ومن أقواله « فى حلال النبيذ عوض عن الخمرة » ، ويلاحظ ان ابن قتيبة يروى ما يروى عن فضايح الامويين فى الادمان والمعاقرة وما الى ذلك ويسكت عن مآتى العباسيين حتى المعاصرين له من القوم ولا عجب فانه ربيب الدولة لذلك نراه يروى بعض أخبار المنصور والمأمون فى التشديد على السكارى واحتقارهم واخذهم بالحدود الشرعية ، وفى كتابه[1] اشارة الى أن المأمون كان يتناول النبيذ على قلة وفيه أيضا ان أكثر فقهاء اهل الكوفة ويقصد بذلك أهل الرأى ومن سلك سبيلهم على التحليل .

تناول ابن قتيبة فى فصل آخر من كتابه جرائر المسكرات ومعاقرة الخمور والانبذة وسوء مصرعها وكثرة موبقاتها صحيا واجتماعيا الى غير ذلك ، ومما جاء له فى هذا الباب ، : « ومعاقرة الخمور تؤدى الى افشاء السر والتعرض للحرم وغير ذلك من الفضايح التى اودت بحياة كثير من المدمنين وأفضت الى زوال النعمة وسقوط المنزلة وربما بلغت جناية الكأس الى عقب الرجل ونجله ، ومن شربة النبيذ الشطار والخلعاء والمجان حملتهم الكأس على المجون وحملهم المجون على ركوب الكبائر معلنين واتيان الفواحش مجاهرين ، ويروى قول من قال : « شهر المتعاشرون على الشراب بسوء العهد وقلة الحفاظ وانهم اصدقاؤك ما استغنيت حتى تفتقر وما عوفيت حتى تنكب وما غلت دنانك حتى تنزف وما رأوك بعيونهم حتى يفقدوك »[2] ، وفى هذا الباب رواية تاريخية طريفة رواها اسحق الموصلى للجاحظ وقد سأله عن احوال خلفاء بنى العباس فى الشراب والغناء والموسيقى فتحدث عن احوالهم من السفاح الى المعتصم بالحديث المذكور[3] .

رأى ابن خلدون :

عنى ابن خلدون عناية بالغة بتنزيه العباسيين وكثير من رجال دولتهم عما نسب اليهم فى الحكايات والروايات التاريخية من ضروب الاستهتار وطروق المنازل وتسور الاسوار

---

(۱) كتاب الأشربة (٥٢) .

(۲) انظر الصفحات الآتية من كتاب الأشربة (٣٧ ، ٤٤) وراجع فصلا فى احكام النبيذ والخمر والحد فى ذلك للماوردى فى الاحكام السلطانية ١٩٩ .

(۳) يراجع عن هذا الحديث الأغانى ط دار الكتب (١/٢٨٦ - ٢٨٧ ، ٣٠٩) وراجع عدة مواضع من الجزء التاسع من الطبعة المذكورة .

ومعاقرة المسكرات ، وهذه الحكايات فيما يرى هذا المؤرخ حكايات مدخولة واخبارواهية، ويعلل ابن خلدون وضع هذه الاخبار عن الرشيد والمأمون ويحيى بن اكثم وعن العباسة والبرامكة وعن بوران وغير هؤلاء بتلقين المجان والمستهترين من الاخباريين والقصاص وضعها بعض هؤلاء طلبا للترخص فى انتهاك الحرمات ومقارفة الموبقات •

يجرى ابن خلدون فى مناقشة هذه الاخبار وتمحيص الروايات المذكورة على طريقته المعروفة فى فلسفة التاريخ فالخبر يحتمل الصدق والكذب فلا ينبغى التسليم بصحته مطلقا قبل عرضه على الاصول والمقاييس ورده الى النظر السليم وتحكيم العقل ، فللحوادث اسباب وللكائنات سنن وللواقعات شواهد لابد من حمل الروايات عليها ، وكثيرا ما تورط المؤرخون والمفسرون فى الاوهام ووقعوا فى الاغلاط فى اعتمادهم على المنقول لانه منقول وعدم الاعتداد بالمعقول •

شرح ابن خلدون طريقته فى تمحيص تلك الروايات وتفنيد ما يراه واهيا أو مدخولا منها أو مختلقا فى تاريخ الدولة العباسية قائلا : اذا اعتبرنا سيرة هؤلاء الخلفاء من الرشيد والمأمون وسلفهما وما كانوا عليه من صحبة العلماء ومفاوضة الاولياء ومحاورة العلماء واذا اعتبرنا ما يروى عنهم من اداء الفروض واطلاعهم على الاحكام الفقهية واذا عرضنا هذه الحكايات على هذه الصفحة من سيرة القوم لم يسهل علينا الوثوق بما قيل عنهم فى الروايات المذكورة من عدم المبالاة بارتكاب كثير من الاوزار ايسرها معاقرة الخمرة واستماع الاغانى مع انهم على ثبج من اجتناب المذمومات والتخلق باخلاق العرب ، وحالة العرب فى اجتناب المسكرات والتقزز من معاقرتها متعالمة مأثورة حتى فى الجاهلية •

يتخلص ابن خلدون من ذلك الى ان القوم كانوا يتناولون الحلال من النبيذ عندهم وانما كان الرشيد يشربه على مذهب بعض الفقهاء فى العراق ، واما الخمر الصرف فلا سبيل فيما يرى ابن خلدون الى اتهامه بها ولا الى الوثوق بالاخبار الواهية المنقولةفى هذا الباب ولم يكن هذا الخليفة بحيث يقترف منكرا من اكبر المنكرات عند أهل الملة ، ولماذا يأمر الرشيد بسجن أبى نواس أشهر شعراء عصره ولماذا يستعطفه هذا الشاعرويرغب اليه فى الافراج عنه باشعار سارت بها الركبان ورواها القاصى والدانى ، أليس ذلك تأديبا لابى نواس على ادمانه واستهتاره فى تعاطى المسكرات ؟ وهكذا يقول ابن خلدون فيما

نسب الى المأمون من هذا القبيل واين يقع ذلك من خليفة عرف بغزارة علمه ومناظرته للعلماء وحفظه للحدود •

يقف ابن خلدون عند المأمون فى تنزيهه وتنزيه كثير من أعوانه عن المعاقرة ويزعم ان صلة قاضية يحيى بن اكثم ورابطته الوثيقة به رابطة لا ترتقى اليها الشبهة فهى رابطة روحية وان كان ابن اكثم يتعاطى الشراب الا ان شرابه النبيذ • ولا يثق ابن خلدون بما ينقله الاخباريون عن الخلوات والمجالس المريبة والعربدة المشينة التى نقلت عن المأمون وقاضيه المذكور •

الا ان خلف المأمون ما كانوا بمنجاة من ذلك اى من الانغماس فى الترف فى مأكلهم ومشربهم وملبسهم وزينتهم فانهم قوم خرجوا عن مناهج سلفهم فى ذلك ولم يسعهم الا الخروج على ما يقول ابن خلدون لبعد عهدهم بالبداوة والبساطة التى كان سلفهم عليها ثم لانتقال الدولة الى مرحلة بعيدة الشوط فى سلم الحضارة •

يقول ابن خلدون فى هذا الصدد : اتفق المؤرخون الطبرى والمسعودى وغيرهما على أن جميع من سلف من الخلفاء انما كانوا يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة فى المناطق والسيوف واللجم والسرج وان أول خليفة احدث الركوب بحلية الذهب هو المعتز بن المتوكل ثامن الخلفاء بعد الرشيد •

بهذه الطريقة وعلى هذا الشكل من فلسفة التاريخ وتمحيص الروايات وعرضها على الموازين الصحيحة فيما يراه هذا المؤرخ وعلى ما جرت به العادات واقرته العقول ينفى ابن خلدون عن العباسيين الاول ما نسب اليهم فى بعض القصص والحكايات التاريخية وبهذه الفلسفة والطريقة نفسها يفند مطاعن الطاعنين بأنساب الخلفاء الفاطميين وبأنساب الادارسة العلويين أصحاب الدولة فى المغرب الاقصى وفى بحثه عن نسب الادارسة يقول : ففراش ادريس طاهر من الرجس بحكم القرآن ومن اعتقد خلاف ذلك فقد باء بائمه وبهذا الاسلوب يدحض ابن خلدون ما رواه الاخباريون وإصحاب السير عن ارم ذات العماد وجملة من أخبار التبابعة والاكاسرة وبهذا المعنى الفلسفى فى نقد التأريخ يبطل ابن خلدون كثيرا من الروايات الموضوعة والقصص المنتحلة فيما يراه •

والحق ان المؤرخين ليسوا على وفاق فى هذه الناحية فان النويرى الصق بالمأمون

ويحيى بن أكثم كل ما نفاه عنهما ابن خلدون بعد ذلك وطبقة النويرى اقدم من طبقة ابن خلدون بيد ان ابن خلدون يتميز بنقد التاريخ والتاريخ فيما يراه علم ودراسة وليس مجرد رواية للسير والاخبار • ويلاحظ ان النويرى فى فصل عقده لذكر من شرب الخمر واشهر شرابها من الخلفاء والاكابر والاعيان[1] ، لم يسم خليفة من الخلفاء المتقدمين على المأمون ولكنه عد بعد طبقته جماعة من خلفائهم فى المغنين والملحنين كالواثق والمنتصر ابن المتوكل كان جيد العلم بالغناء والمعتز بالله والمعتمد له يد بالغناء وصنعة حسنة غنى اصواتا[2] وعنى صاحب النهاية ببحوث عن احكام المسكرات •

أحكام المسكرات فى فقه الامامية :

ومن المفيد ان نختم هذا البحث عن المسكرات فى تاريخ الدولة العباسية بكلمة عن الانبذة والمسكرات فى فقه زاخر بالاحكام هو فقه الامامية ، فالفقهاء المفتون على مذهب العترة أو أهل البيت مجمعون ـ ولا عبرة ببعض الآراء الشاذة ـ على انه لا فرق بين الخمر والنبيذ فى شىء من الاحكام لا فى شرب الكثير ولا فى شرب القليل ولا يختص التحريم عندهم بما أسكر بل يحرم وان قل طبقا للقاعدة الشرعية المشهورة ما اسكر كثيره فقليله حرام ولا يتعلق بنوع دون غيره من الانبذة بل يشمل نبيذ التمر ويسمى « الفضيخ » ونبيذ العسل ويسمى « البتع » ونبيذ الذرة ويسمى « المزر » ونبيذ الشعير ويسمى « الجعة » و « الفقاع » ومن اوفى المراجع فى البحث عن تلك الاحكام كتب الشيخ ابى جعفر الطوسى المصنفة فى الحديث وفى مقدمتها « التهذيب » و « الاستبصار » ومن كتب الفقه كتاب « السرائر » « لابن ادريس » و (اللمعة) وشرحها للشيخين الشهيدين الى كتب اخرى كثيرة وتجد بحوثهم فى أحكام المسكرات فى باب « الاطعمة والاشربة » من الكتب المذكورة •

بين التبذل والوقار :

لعل أروع ما يحكى من القصص الجامعة التى قارنت بين الترف والخشونة والتبذل

(١) نهاية الارب (٧/٩٢) ولا شك ان النويرى فى بحثه ناقل عن أبى الفرج الاصفهانى فى الاغانى الكبير •

(٢) المصدر نفسه ١٩٧

والوقار في تاريخ الدولة العباسية ما اتفق لعبدالملك بن صالح في منزل جعفر بن يحيى البرمكي ، والقصة معروفة تناقلها غير واحد من أصحاب السير والتاريخ طورا مع القصد والايجاز وتارة مع الاطناب والمبالغة ولم يفت اولئك المؤرخين من قدماء ومتأخرين ان يمهدوا لرواية هذه القصة بكلمة عن عبدالملك نعتوه فيها بالجد والتزمت وانه أبعد أمراء الدولة عن مجالس اللهو والغناء والشراب ولم يعرف عنه انه لبى دعوة الى ذلك حتى اذا دعاه الرشيد على ما قالوه ووصف بانه فصيح بليغ ذو هيبة ، والواقع ان عبدالملك بن صالح هو الامير الذى انتهت اليه زعامة آل علي في عصره عصر الرشيد واولاده ـ كما ستراه ـ وهو قائد من الطراز الأول في العصر المذكور وزعيم ثائر كانت روحه تضطرم بالثورة على الرشيد والمأمون ، ومن هذه الناحية نكل به الرشيد واوشك ان يريق دمه ثم زجه بالسجن وأوثقه بالقيود ولم يفرجوا عنه حتى مات الرشيد ، ويرد بعض المؤرخين هذه النكبة الى اصرار الرشيد على ادخاله في جملة ندمائه وعزوفه عن ذلك ، ويقولون ان الرشيد أنفق في طلب منادمته اموالا جليلة فلم يفعل لانه على جانب لا يستهان به من الوقار والدين والحشمة[١] وفي رواية ابى الفرج الاصفهاني[٢] : كان عبدالملك بن صالح الهاشمي من جلالة القدر والتقشف والامتناع عن منادمة أمير المؤمنين على امر جليل ، وكان الرشيد قد اجتهد أن يشرب معه أو عنده يوما فلم يفعل رفعا لنفسه ، وهو قول لا ينهض على صحته دليل والحق ان الرشيد كان معنيا به جدا قبل النكبة المذكورة بل كان اكثر من ذلك بين ثقاة الخليفة المذكور ، وللبرامكة دخل في ذلك لانهم كانوا يخشون بادرته وأثره في الدولة فيدارونه ويزكونه ، وكان هو لا يني عن الاتصال بهم لقضاء حوائجه فتقضى مهما كانت خطيرة كما تدل عليه قصته المعروفة مع جعفر البرمكي فانه ذهب الى أبعد حدود المحاسنة والمجاملة مع البرمكي فشرب في منزله ولم يعرف عنه تناول المشروب قبل ذلك قط ، ولو كان عبدالملك بن صالح يستسيغ الشراب لشرب مع الرشيد الذى أراده على ذلك غير مرة فاصر على الامتناع ـ على ما يقال ـ ، ومن رأينا ان هذا الامتناع لسبب آخر وهو مخافة الرشيد ولا نظن رجلا يستجيب الى منادمة البرمكي ثم يمتنع عن منادمة الرشيد .

(١) انظر الآداب السلطانية لابن الطقطقى ١٥٢

(٢) الاغاني (٥/٤٠٧ ـ ٤٠٨)

فحوى القصة

تعنى القصة المذكورة حصول الامير الهاشمى فى منزل الوزير البرمكى فى مفاجأة غريبة وبدون أذن لان لجعفر بن يحيى قهرمانا اسمه عبدالملك ايضا ، وكان البرمكى مع بعض خاصته اذا انتظمتهم مجالس شربهم يحرصون جدا على كتمان أمرهم عن الامير الهاشمى المذكور لمكان سنه وأدبه وتزمته ولذلك ساءهم وكدر عيشهم مفاجأة عبدالملك لهم على تلك الحالة ، كؤوس تدور وعيدان تخفق وقيان تعزف الى غير ذلك من آلات الترف والحضارة والنعيم .

بادر الامير من فوره الى الاستجابة والاندماج بالقوم كما لو كان واحدا منهم فتلافى بذلك حراجة الحالة ، وكان صنيع عبدالملك وما أظهر من ظرف وفتوة وكياسة باعثا على الدهشة فتهللت الوجوه وطابت النفوس وزالت الكلفة وكانت له حوائج ومطالب خطيرة لم يبرح المنزل حتى ضمن صاحبه على الرشيد قضاءها بدون استئذان .

تعتبر هذه الحكاية من حكايات السمر فى تاريخ البرامكة والدولة العباسية لا أكثر من ذلك، وهى والحق يقال حكاية يعوزها عنصر الخيال ولم يقصد من حبكها غاية معينة فهى تختلف عن قصة ملك النوبة مع ضيفه الاموى التى مر ذكرها(١) ،وقد تخلل سرد الحكاية

---

(١) يبدو لنا ان المسعودى صاحب المروج الذى لخصنا تلك القصة عنه من المؤرخين المعنيين جدا بتسجيل ملاحظاته السياسية والاجتماعية سواء ما كان منها له أو لغيره من الاخباريين مثل الهيثم بن عدى والمدائنى والمنقرى وغير هؤلاء ، وكانت القصة السابقة مروية عن الربيع بن يونس وهناك ملاحظة سياسية قيمة رواها المنقرى ووردت فى المروج (٢-١٣٩) على الصورة الآتية :

« ذكر المنقرى قال : سئل بعض شيوخ بنى أمية ومحصليهم عقب زوال الملك عنهم الى بنى العباس ما كان سبب زوال ملككم ؟

قال : اننا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا فظلمنا رعيتنا فيئسوا من انصافنا وتمنوا الراحة منا وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا وأمضوا أمورا دوننا أخفوا علمها عنا وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا واستدعاهم أعادينا فتظافروا معهم على حربنا وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا وكان استتار الاخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا . وقال المسعودى فى مكان آخر من المروج (٢/١٣٢) نقلا عن بعض الاخباريين ان السواس من بنى أمية ثلاثة معاوية وعبدالملك وهشام وان المنصور كان فى أكثر اموره وتدبيره وسياسته متبعا لهشام فى أكثر أفعاله لكثرة كشفه عن أخبار هشام .

تنويه بسلطان البرامكة ونفاذ كلمتهم فى ديوان الخلافة واشادة بمظاهر الترف والحضارة فى منازلهم[1] ، هذا من جهة وتفيض القصة من جهة اخرى بوصف منزلة الامير الهاشمى فى محافل الدولة ووصف شمائله واخلاقه خصوصا من ناحية تقشفه وعزوفه عن المشاركة فى مجالس اللهو والغناء حتى ما كان منها عند الرشيد[2]

غربلة الروايات :

هؤلاء هم الامراء من آل علي الذين روى أصحاب السير والتاريخ اخبارهم فى التزمت والوقار على شكل لا يخلو من المبالغة ، وليس من السهل تصديق كلما ورد عنهم فيها ، ومتى كان المقيمون فى الشام من آل علي متقشفين الى ذلك الحد وهم الذين اقتنوا الاملاك والضياع وشيدوا القصور الفخمة فى الشام خصوصا فى جهات حلب الى حدود

---

(١) انظر عن وصف قصر جعفر بن يحيى البرمكى الذى عرف باسمه كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى (١٨) ووصف الاصمعى بعض قصور البرامكة وصفا رائعا تجده فى طبقات الشعراء لابن المعتز (٩٧) ، ولياقوت فصل جامع بلغ الغاية فى وصف « قصر جعفر » وتاريخه وتحديد موضعه وسبب بنائه ، قال ياقوت وهو يبحث عن«التاج» من أشهر دور الخلافة : « كان اول ما وضع من الابنية بهذا المكان قصر جعفر بن يحيى ابن برمك وكان السبب فى ذلك ان جعفر كان شديد الشغف بالشرب والغناء والتهتك فنهاه أبوه يحيى فلم ينته فقال ان كنت لا تستطيع الاستتار فاتخذ لنفسك قصرا بالجانب الشرقى واجمع فيه ندماءك وقيانك وقض فيه معهم زمانك وابعد عن عين من يكره ذلك منك فعمد جعفر فبنى بالجانب الشرقى قصرا موضع دار الخلافة اليوم واتقن بناءه وانفق عليه الاموال الجمة » ، هذا ما جاء فى معجم ياقوت عن سبب بناء القصر المذكور ويلى ذلك وصف أثاثه وكيفية انتقاله الى المأمون ثم الى من يليه من الخلفاء واحدا بعد آخر وما استضافوه الى أصل القصر المذكور وهو من أجود ما كتبه ياقوت فى وصف قصور بنى العباس من أول انشائها الى عصر المؤرخ ، انظر المعجم (١/١٠٨–١٠٩) .

(٢) من أقدم روايات هذه القصة رواية الجهشيارى فى كتاب الوزراء والكتاب (٢١٢ – ٢١٤) وأبى الفرج فى الأغانى (٥/٤٠٨ – ٤٠٩) وابن عبدربه فى العقد الفريد ط الجمالية (٣/٢٦٧ – ٢٦٨) وابن خلكان فى الوفيات (١/١٠٦) والفخرى فى الآداب السلطانية ط الرحمانية (١٢٢ – ١٢٣) والابشيهى فى المستظرف (٢/١٥٣ – ١٥٤) وكل رواية تختلف عن الاخرى ، وفى بعضها زيادات واضافات ، وبعض الاخباريين يرفع الحديث الى ابراهيم بن المهدى وبعضهم إلى اسحق الموصلى ، الى غير ذلك من وجوه الاختلاف فى اسماء الاعلام وفى المعانى والالفاظ ، ويلاحظ ان رواية الجهشيارى أقرب الروايات الى القصد والاعتدال .

الروم فهم أصحاب العواصم والثغور فى الشمال وهم أصحاب « سلمية » و « الرملة » فى الوسط والجنوب بل هم ورثة الدولة الاموية فى الشام بعد خلفاء بغداد، وقد رأيت كيف كانت مائدة صالح بن على الهاشمى حافلة بما لذ وطاب وكيف يشرب عليها النبيذ ، وقد مر بك ما مر عن بستان عبدالله بن صالح وما أهداه من فاكهتها للرشيد ، وكيف نسلم بجميع ما قيل عن تقشف عبدالملك وعزوفه عن الملاهى ومجالس الغناء ، وعبدالملك هو الذى ابتاع « عنان » جارية الناطقى بمئات الالوف وكان ابو نواس يظهر لها التعشق واعطاها مولاها مالا جليلا وطلبها الرشيد فلم يبعها ثم باعها من عبدالملك بن صالح الهاشمى [1] ، هذا وامر عنان مشهور فى التظرف والتأدب ولها شعر لطيف ، فكيف يصح تصديق جميع ما رووه عن هذا الامير من التنكر للملاهى وهو يدفع ذاك المبلغ الطائل فى شراء هذا القينة •

لذلك ينبغى قبل التسليم بصحة الروايات على علاتها ان نقتلها غربلة وتمحيصا وان نعرضها على المقاييس والموازين السليمة •

هذا وغاية ما يمكن ان يقال عن آل على هؤلاء انهم ورثة السجايا الحربية وحب المغامرة ومظاهر الرجولة عن سلفهم ، وكان غير واحد منهم يفضل ان يعيش عيشة الجندى ويعمل عمله فلا يفارق السلاح ولا يخلد الى الدعة فنشأوا على الصرامة والشدة ، وفى أخبار صالح بن علي وابنه عبدالملك وغيرهما من ذويهم عبرة وفيها شواهد على براعتهم فى الفنون الحربية وستقف على ذلك فى موضعه من هذا الكتاب ، وليس هذا من التقشف البالغ فى شيء ، والغالب ان القوم اخذوا بحظهم من العيش الرغيد وان لم يبلغوا فى ذلك شأو ذويهم المقيمين فى بغداد •

سلطان التشريع وسلطان التنفيذ :

تناولنا فى الفصل السابق ناحية من نواحى الجد والتزمت التى نعت بها نزلاء الشام

---

(١) كتاب الورقة لابن الجراح (٣٩–٤١) وانظر (٢٩ ـ ٣٤) وكتاب اخبار ابى نواس لابى هفان ط القاهرة (٤٥ ، ٧٩ ، ٨١ ، ١١٠–١١٢) وكتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى (٢٠٤ ـ ٢٠٥) وتجد اخبار عنان فى الاغانى ومختصر طبقات الشعراء لابن المبارك وفى جملة من كتب الادب والتاريخ •

من آل علي ناحية المحافظة على الوقار والحشمة وعدم الاسراف فى اللهو والمرح وسنتناول فى هذا الفصل ناحية أهم من الاولى واقوى فى دلالتها على مذهب القوم فى هذا الشأن نعنى بذلك محاولة التوفيق بين سلطان التشريع وسلطان التنفيذ وتوخى ضرب من السياسة الشرعية والوقوف عند حدها فى بعض الحالات والاستئناس بآراء ذوى الشأن فى العلم والفتوى فى بعض النوادر والواقعات •

لم يرغب هؤلاء الامراء ان تكون اجراآتهم فى واقعات معينة اجراآت شاذة ولا تصرفاتهم تصرفات شخصية لذلك نراهم يفزعون الى رأى طبقة معروفة من كبار الفقهاء المعاصرين لهم ، ومن هذا القبيل ما جرى لصالح بن علي وولده عبدالملك بن صالح وهما واليا مصر والشام والثغور مما حفظه لنا المصنفون فى كتب الفتوح والمؤلفون فى السياسة الشرعية وفى مقدمتهم ابن سلام فى كتاب الاموال والبلاذرى صاحب فتوح البلدان فقد روى كل منهما أخبار هذين الاميرين وكيف ان صالح بن علي حارب اهل لبنان واجلاهم فى حدث أحدثوه فكتب اليه الاوزاعى ينكر ذلك فى رسالة طويلة أكد فيها هذا الفقيه احترام المواثيق والالتزام بالمعاهدات والنهي عن عسف المعاهدين أو أهل الذمة وتكليفهم ما لا يطاق[1] •

يقول البلاذرى فى هذا الصدد ما نصه : « حدثنى محمد بن سعد عن الواقدى قال خرج بجبل لبنان قوم شكوا عامل خراج بعلبك فوجه صالح بن علي بن عبدالله بن عباس من قتل مقاتلتهم وأقر من بقى منهم على دينهم وردهم الى قراهم وأجلى قوما من اهل لبنان فحدثنى القاسم بن سلام ان محمد بن كثير حدثه ان الاوزاعى كتب الى صالح برسالة طويلة حفظ منها ما أورده ابن سلام فى كتاب الاموال »[2] ثم كان بعد ذلك حدث من

---

(١) كتاب الاموال (١٧٠ ـ ١٧١) وفتوح البلدان (١٧١ـ١٧٦)

(٢) تجد نص هذه الرسالة فى كتاب الاموال (١٧٧) للقاسم بن سلام وهو استاذ البلاذرى وعنه يروى الرسالة المذكورة فى فتوح البلدان ويختلف نص كل من هاتين الروايتين عن الاخرى ورسالة الاوزاعى فى كتاب الاموال أطول ولكنها فى فتوح البلدان أصح وان كانت أقصر وفيها يقول الاوزاعى « قد كان من أجلاء اهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئا لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم ماقد علمت =

أهل قبرص فى عهد عبدالملك بن صالح المذكور وهو على الثغور فعزم على محاربتهم والتنكيل بهم اذ كان من رأيه ان ما احدثه القبرصيون ضرب من النكث بالعهد بيد انه فضل الرجوع الى أهل الفتوى أو الكبار من فقهاء عصره فدارت بينهم وبين هذا الامير مكاتبات ومجاوبات تضمنت آراء متضاربة واحكاما مختلفة الا أن من أمر بالكف عن القبرصيين والوفاء لهم ـ وان غدر بعضهم ـ اكثر ممن أشار بالمحاربة(١) .

هذا وتتميز لهجة الفقهاء فى رسائلهم المذكورة بالقوة والمتانة وبعدها عن الملق والمداهنة اذ حوسب فيها هذا الامير ونوقش رأيه فى تلك الواقعة مناقشة دقيقة ، ومن المفيد ان ابا عبيد القاسم بن سلام عقد فى كتاب الاموال فصلا مشبعا عنوانه : « أهل الصلح والعهد ينكثون . متى تستحل دماؤهم ؟ » ضمنه خلاصة الرسائل التى بعث بها زمرة من أشهر فقهاء العصر المذكور فى هذا الموضوع ، ومن الطريف أيضا ان مصنف كتاب الاموال هذا استخرج الوثايق المذكورة من سجلات الدواوين العباسية وعنى بدراستها عناية حسنة خرج منها بان أكثر اولئك الفقهاء نهى عن محاربة المعاهدين من القبرصيين واللبنانيين بسبب احداثهم المذكورة اذ لاتؤخذ العامة بجناية الخاصة بل تؤخذ الخاصة بجناية العامة كما رأينا فى رسالة الاوزاعى ، هذا وممن خالف الاوزاعى فى رأيه الليث بن سعد وابن عيينة فقد كانا الى الشدة ، ومما جاء فى رسالة الليث « ان أهل قبرص لم نزل نتهمهم بالغش لاهل الاسلام والمناصحة لاهل الروم وقد قال الله تعالى « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ لهم على سواء « ولم يقل لا تنبذ اليهم حتى تستبين خيانتهم وانى أرى أن تنبذ

= فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم ، الى آخره » ، والاوزاعى ومذهبه من المذاهب الفقهية البائدة له مواقف جريئة يضلع فى بعضها مع الامويين فمن ذلك موقف له مع الامير عبدالله بن على أخى صالح لما استولى على الشام وقتل بنى أمية قتلا ذريعا فى قصة مشهورة حيث انكر الاوزاعى قتلهم فى مجلس الامير حتى أمر باخراجه وقد تحدث الاوزاعى نفسه عن قصته المذكورة .

(١) اليك أسماء هؤلاء الفقهاء نقلا عن ابن سلام والبلاذرى ، مالك بن أنس ، سفيان بن عيينة ، موسى بن أعين ، ابن عياش ، يحيى بن حمزة ، الفزارى ، مخلد بن حسين ، ولكل من هؤلاء رسالة الى عبدالملك بن صالح أشار عليه فيها برأيه كما تجد ذلك فى كتاب الاموال وفتوح البلدان .

اليهم ثم ينظروا سنة يأتمرون الخ » ، ويقول سفيان بن عيينة « انا لا نعلم النبى عاهد قوما فنقضوا العهد الا استحل قتلهم غير أهل مكة فانه منّ عليهم وانما كان نقضهم الذى استحل به غزوهم ان قاتلت حلفاؤهم من بنى بكر حلفاء رسول الله من خزاعة ، ومن الفقهاء الذين نهوا عن الحرب فى الواقعة مالك بن أنس وموسى بن أعين وابن عياش ويحيى بن حمزة وغير هؤلاء ، وموضع العبرة فى هذه الدراسة هو أخذهم بقاعدة الفصل بين السلطات حتى لا تطغى سلطة على حدود أخرى ، ولا يخفى ان السلطة التى كان يتمتع بها هؤلاء الفقهاء الذين ناقشوا رأى عبدالملك بن صالح لم تكن من قبيل السلطات القضائية وانما هى من صميم السلطات التشريعية ، ويلاحظ ان هذه السلطة كانت تتمتع باستقلال لا يستهان به ،، ومن هذه الناحية رأينا اولئك الحكام يفزعون الى مشاورة كبار الفقهاء واساتذة التشريع للنزول على آرائهم فى بعض النوازل والواقعات فان الحكام اذا طغوا واستكبروا أنبو عليهم الامة واستفزوا السواد الاعظم من الناس •

ومجمل القول : تبوأت هذه الطبقة من الفقهاء منزلتها الرفيعة بين طبقات الدولة بحيث لا يفتات عليهم فى رأى حتى رأينا صلاحياتهم تتسع للاعتراض على اجراآت الولاة والحكام ومناقشتهم الحساب فيما اشكل واعضل من الاحداث ، وجدير بالفقهاء والمتصدين للافتاء ان يقفوا على سيرة السلف فيما اتفقوا عليه او اختلفوا فيه ليتبعوهم فى الاجماع وليجتهدوا رأيهم فى مورد الخلاف وذلك برد الفروع الى الاصول واستنباط الاحكام للنوازل وتمييز الحق من الباطل ، وبهذا الاسلوب المتبع فى الفقه والاجتهاد وفى الاحكام المستفادة من ذلك سنن واصول حرى بالولاة ان يأخذوا بها وأن يعتبروها دستورا لا مناص من العمل به فى الواقعات •

هكذا نرى نظام الحكم المتبع فى هذه الحوادث غير بعيد عن احدث النظم الديمقراطية وهكذا نرى فرقا بين المنهجين منهج الخلفاء ومنهج اعمامهم آل على فى ذلك وقد اوقفناك ـ فيما مر ـ على منهج آل محمد وفى مقدمتهم أبو جعفر المنصور وكيف رأيناهم اشداء غير رحماء بكثير من فقهاء عصرهم ونساك زمانهم وانهم قلما فزعوا اليهم فى الملمات ، فالمنصور أمر بضرب مالك بن أنس حتى خلعت كتفاه وفعل ما فعل بأبى حنيفة وآذى من آذى من الفقهاء لانهم لم يكونوا على وفاق معه ، ولك أن

تعدّ ذلك من وجوه الخلاف ومن جملة الفوارق البعيدة بين الخلفاء وأعمامهم المذكورين .

قتال أهل القبلة :

احتج ابن سلام ، لرأى القائلين بالتوقف عن قتال اللبنانيين والقبرصيين بما روى عن الامام على بن أبى طالب فى مقتل صاحبه عبدالله بن خباب بن الأرت قتيل الخوارج وكيف تريث فى القتال وكيف راوض وصابر وكيف أراد القوم على تسليم القتلة فاعترفوا بانهم جميعا شركاء فى ذلك الدم المراق وبذلك جاز للامام قتال القوم وقد تضمن الفصل المشار اليه من كتاب الاموال جانبا من فقه الحرب وتشريع القتال قتال البغاة والمخالفين من أهل القبلة وقتال الناكثين والمعاهدين من اهل الذمة ويقول بعض الباحثين ان الامام على رأس المشترعين فى هذا الباب وان سيرته فى حرب الخوارج وحرب من حارب من أهل القبلة مثال يحتذى فى ذلك ، ويقول الشافعى - على ما حكاه ابن أبى الحديد - لولا على لما عرفنا الفقه فى قتال أهل القبلة ، وعقد ابن سلام فصلا آخر فى حكم الفىء وحق الخوارج فيه عند الامام على ما لم يظهروا الحرب احتج فيه بكلمة قال الامام على فيها : « لكم علينا ثلاث » منها اعطاء الفىء ، وهى كلمة مشهورة جاءت فى نهج البلاغة أيضا وفى هذا البحث يقول ابن سلام : « أفلا يرى ان عليا رأى للخوارج فى الفىء حقا ما لم يظهروا الخروج وهو مع هذا يعلم انهم يسبونه ويبلغون منه أكثر من السب الا انهم كانوا مع المسلمين فى أمورهم ومحاضرهم حتى صاروا الى الخروج »[1] .

وفى فصل آخر يروى ابن سلام اخبار الامام فى زهده وتوفير الفىء للمسلمين وايثارهم به وما كان يصنع ببيت المال وبالتحف المهداة اليه .

نهج الامام على نهجه فى حرب الخوارج وحرب بنى ناجية الذين فارقوه بعد وقعة النهروان فلم يبدأ بقتال ولم يقدم على اراقة دم على « قنطرة البردان » حتى قتل صاحبه عبدالله بن خباب وزوجته شر قتلة ، واكثر من ذلك قتل رسله الى القوم فى طلب القصاص من القتلة .

---

(1) كتاب الاموال (٢٣٢ - ٢٣٣) .

يعتبر مقتل ابن خباب مفتاح حرب الخوارج فى المدائن والنهروان اذ احتج الامام بمقتله وبالامتناع عن تنفيذ القصاص وباقرار القوم بأنهم جميعا مسؤولون شركاء فى اراقة الدم ، و يعد عبدالله هذا من اخلص اصحاب الامام وقصة مقتله مروية فى امهات كتب التأريخ ، وله ولابيه اخبارهما فى كتب الطبقات ٠

لعبدالله هذا رؤية[1] ولابيه صحبة كما جاء فى مصطلحات المحدثين ، وقد استعمل خباب على غنائم بدر فى قول ، ويعد فيما يقوله كثير من أهل السير والباحثين فى الطبقات فى اوائل الصحابة الذين استجابوا الى دعوة الاسلام ، وقد امتحن فى

---

(١) له ترجمة فى طبقات ابن سعد (٥/٢٥٢) جاء فى آخرها « وبقتله وقتل أم أولاده استحل على قتال الخوراج » وانظر عن مقتله وعن بعض احواله واحوال الخوارج معه تاريخ الطبرى (٦/٤٦ ـ ٤٩ ، ٥١ ـ ٥٢) والكامل للمبرد (٢/١١٦ ـ ١١٧) ومروج الذهب (٢/٢٦) والنبيه والاشراف (١٩٩) وكلاهما للمسعودى ، والتبصر فى الدين للاسفراييني (٢٧) ، وكتاب المعارف لابن قتيبة (١٣٧) والاخبار الطوال (٢٠٩) والامامة والسياسة (١/١٥٣ ـ ١٥٤) وتاريخ بغداد للخطيب (١/٢٠٥ ـ ٢٠٦) وعقد مؤلفه الحافظ ابو بكر الخطيب فصلا عنى فيه بتسمية مشهورى الصحابة او الذين ادركوا النبى ووردوا المدائن أو النهروان وشهدوا حرب الخوارج مع الامام على قال فى آخره « هذا آخر ما انتهى اليه حفظنا وجميع ما احاط به علمنا من تسمية مشهورى اصحاب رسول الله الذين وردوا المدائن ولكل واحد منهم عندنا من الاخبار ما لو ذكرناه لطال به الكتاب واتسع فيه الخطاب لكننا سلكنا فيما رسمناه سبيل الاختصار » ، يراجع تاريخ بغداد (١/١٣٣ ـ ٢٠٦) ، هذا وقد عنى سادات أهل البيت كالامام جعفر بن محمد وعمه زيد بن على بن الحسين وعبدالله بن الحسن ومحمد ابنه بتسميةمن شهد من الصحابة مع على حرب النهروان ونقل ذلك الخطيب فى تأريخه المذكور ، وممن ترجم لعبدالله هذا ابن عبد البر فى الاستيعاب قائلا : ذكره الخطيب فى التاريخ ، ويلاحظ أن مصنف ناريخ بغداد ومصنف الاستيعاب من ابناء عصر واحد توفيا معا فى سنة واحدة هى سنة ٤٦٣ ، ومن ذلك تعلم خطر حركة النشر والتأليف فى القرنين الرابع والخامس والا فكيف يصل تاريخ الخطيب الى الاندلس فى حياة مؤلفه المذكور ، ومن المؤرخين والباحثين الذين عنوا جدا بأخبار عبدالله بن خباب وحرب النهروان بعد ذلك ابن الاثير فى الكامل وابن أبى الحديد فى شرح النهج ، ويراجع منهج المقال للاستربادى ففيه ذكر له ٠

ايمانه حتى ذاق الامرين من قسوة المشركين [1] فهو مثل أعلى فى صدق العقيدة .

هكذا قتل عبدالله بن خباب ثم ان الامام عليا ما قاتل الخوارج الا بعد الاعذار اليهم واقامة البينة عليهم ، واخباره فى مجادلة القوم واستجواب الخوارج والاحتجاج عليهم وخطبه وكتبه معروفة [2] ، وقد رويت له كلمات قوية تهز النفوس وخطب غراء تعد نموذجا فى البلاغة القاها فى فترة المشادة والخلاف المذكورة ، وهو القائل فى وصف هؤلاء الخوارج : « عصابة اخرجتها عداوة المراء واللجاجة وصدها عن الحق الهوى وطمح بها النزق » الى كلمات أخرى مروية فى كتب الاخبار .

حالف الامام ـ والحق يقال ـ شيء غير قليل من النجاح فى وعده ووعيده وفى ترغيبه وترهيبه وفى عظاته ونصائحه حيث تأثر من تأثر من الخوارج بذلك وتوقف من توقف عن حربه متفرقين فى البلدان غير جماعة اصروا على القتال ، ولما التقى الجمعان قال على لاصحابه : « كفوا عن القوم حتى يبدأوكم » فلم تقع الواقعة حتى بدأ الخوارج ثم انتهت بابادتهم على الوجه المعروف ، والواقع أن لهذه الخارجة نظرات زائغة وآراء شاذة

---

(١) خباب بن الارت صاحب رسول الله ، انظر عن الطبقة التى اسلم معها وعن قصة عمر قبل اسلامه معه سيرة ابن هشام ط مصر (١/٢٦٩ ، ٣٠٨ ، ٣٦٦) وعن مهنته فى مكة وقصته مع العاص بن وائل السهمى ونزول الوحى بهذه القصة المصدر المذكور (٢/٣٢٨) وفى نسب خباب على ما جاء فى كتب السير والانساب قولان : قيل من تميم وقيل من خزاعة ، وذكره ابن سعد فى عداد الصحابة البدريين وترجم له ترجمة واسعة فى الطبقات (٣/١١٦ ـ ١١٨) واشار ابن سعد الى نسبه وانه اصابه سباء فى الجاهلية فبيع وقد امتحن فى اسلامه وكان من المستضعفين الذين عذبهم أهل مكة حتى برص جسده ، وبذلك اصبحت له مكانة كبيرة عند الصحابة ، مات خباب سنة ٣٧ هـ فى الكوفة ، وذكر الخطيب اسمه بين اسماء من سكن الكوفة من الصحابة (١/٢٠) ، ونجد لابن الارت ترجمة فى الاستيعاب (١/٣٦٠) كما نجد كلمة بليغة فيه للامام على فى النهج وشرحه (٤/٢٦٣) وانظر المصدر المذكور (١/٢٠٦ ـ ٢٠٧ ، ٢١٦ ـ ٢٥٢) وكتاب صفين للمنقرى ط مصر (٣٦٨ ، ٥٨١ ، ٦١٠) ولخباب عقب اقاموا فى الكوفة على ما ذكره المؤرخون .

(٢) تاريخ الطبرى (٦/٢٤٧) وشرح النهج (١/٢٠٦ ـ ٢٠٧) والكامل للمبرد (٢/١١٦ ـ ١١٧) .

واخبارا غريبة مليئة بالمتناقضات فبينما نراهم لا يتحرجون من سفك الدم الحرام بدون حجة او بينة حتى ضربت الامثال باستعراض الخوارج لسواد الناس لا يبالون من قتلوا اذ نراهم يرون فى تناول تمرة هوت من عذق نخلة أو فى قتل خنزير وما الى ذلك من الاعمال المباحة جريمة لا تغتفر [١] ثم انقسم الخوارج بعد ذلك الى فرق يكفر بعضهم بعضا كما يكفرون غيرهم من المسلمين •

حكم المعاهد أو المرتد اذا حارب :

هذا ومن المسائل الفقهية التى تناولتها اقوال الفقهاء مسألة يتكلمون فيها عن حكم المرتد أو الذمى اذا حارب ، ومن الفتن المشهورة فى خلافة الامام على فتنة بنى ناجية وزعيمهم الخريت ومفارقتهم لعلى ومخالفتهم عليه واحتدام الحرب بين اصحابه وبين القوم ، ويشبه هذه الفتنة من بعض نواحيها خلاف أهل لبنان وقبرص مع صالح بن على وابنه عبدالملك ، ومن حكاية فتنة بنى ناجية[٢] ومن الاجراءات التى اتخذت تعرف

---

(١) تجد الاشارة الى بعض تصرفاتهم المتناقضة فى الكامل للمبرد (٢/١٣٥) •

(٢) بنو ناجية وزعيمهم الخريت بن راشد الناجى كانوا من جملة اصحاب على الذين شهدوا صفين والنهروان ثم فارقوه مرتدين الى النصرانية دين آبائهم ، وينتسب بنو ناجية الى « سامة بن لوى » من امرأته ناجية ، قال المسعودى : « وكثير من الناس ينكر ذلك قائلين ان سامة بن لوى ما أعقب » وقال بعض الاخباريين غير ذلك ، ومجمل القول فى نسب بنى ناجية وهل يصح عدهم فى قريش ؟ اقوال ، قول لابن الكلبى وآخر للهيثم بن عدى ، ومن رأيهما ان سامة مات ولم يعقب ، وثالث الاقوال للزبير بن بكار صحح نسبهم الى رهط من قريش يسمون : « قريش العازبة » لخروجهم الى البحرين ، ويعلل ابو الفرج الاصبهانى ميل الزبير بن بكار الى هذا الرأى بأنه من المعروفين بالانحراف عن على ، انظر شرح نهج البلاغة (١/٢٦٢ ــ ٢٦٣) قال المسعودى فى المروج : « ولست ترى ساميا الا ملحرفا عن على ، ومن ذلك ما ظهر من على بن الجهم الشاعر السامى من التعصب والانحراف ، واخباره فى هذا الباب واهاجيه وانتسابه الى سامة معروفة فى كتب التاريخ والادب ، تجد عمود نسب على بن الجهم متصلا بسامة بن لوى فى الاغانى (١٠/٢٠٣) وفى ترجمة والده الجهم بن بدر من تاريخ بغداد للخطيب (٧/٢٤٠) ، وفى معجم الشعراء للمرزبانى (٢٨٦) وشرح النهج (١/٢٦٢) ووفيات الاعيان (١/٣٤٩ ــ ٣٥٠) ويلاحظ أن ابن الجهم يكثر من الاعتزاز بنسبه فى شعره =

مذاهب الفقهاء واقوالهم فى حكم المرتد أو الذمى اذا حارب ، ويستنتج من سيرة الامام على فى خلاف المخالفين له مثل خوارج النهروان ومرتدة بنى ناجية انه لا يأخذ على التهمة ولا يعاقب على الظن ولا يقاتل الا من قاتله وناصبه وأعلن عداوته ثم لا يقاتل الا بعد الاعذار والا بعد الدعوة الى الحق ، قال مرة لمن اشار عليه بأخذ بعض المتهمين بخلافه ومفارقته : « لقد كان ينبغى لك ان اردت قتلهم أن تقول لى اتق الله بم تستحق قتلهم ولم يقتلوا احدا ولم يخرجوا عن طاعتك »(١) وتحدث مرة الى بعض اصحابه الذين رغبوا اليه أن يأخذ الخريت زعيم بنى ناجية قائلا : « لو فعلنا هذا بكل من يتهم لملأنا السجون ولا أرانى يسعنى الوثوب بالناس وعقوبتهم حتى يظهروا لى الخلاف » ٠

وقد ألمع الماوردى فى الاحكام السلطانية الى ناحيــة من ســيرة الامام مع خوارج النهروان وكيف انه اوضح لهم فساد ما اعتقــدوه وبطلان ما ابتدعوه ليرجعوا عنــه وكيف وادعهم ما كانوا موادعين الى ان قتلوا عامله وأبوا أن يسلموا قتلته فسار اليهم وقتل اكثر الخوارج المذكورين بيد أن الماوردى لم يشأ اشباع البحث فى قصة الامام

= ومن ذكر قريش وفروعها ذاهبا الى توكيد نسبه بهذه القبيلة مدفوعا الى ذلك بعقدة مستحكمة فى نفسه وما أحسن قول البحترى فى هذا الباب :

اذا ذكرت قريش للمعــالى ... فلا فى العير انت ولا النفير

ويروى المسـعودى فى السخرية بمن ينتمى الى سـامة بن لوى هـذه الابيـات لعلى بن محمد بن جعفر العلوى :

وسـامة منـا فأمـا بنـوه ... فامـرهم عنـدنا مظـلم
اناس أتونـا بأنســابهم ... خـرافة مضطجـع يحـلم
وقلنـا لهم مثـل قـول الوصى ... وكل اقـاويله محـكم
اذا مـا سئلت فلم تدر مـا ... تقـول فقـل : ربنـا أعـلم

تجد قصة بنى ناجيــة ومقتـل زعيمهم الخريت ومن معـه من المرتدين فى مروج الذهب (٢/٢٨٠) وفى الاغانى ، ومن اوفى المراجع فى أخبارهم وذكر مختلف الاقوال فى انسابهم شرح نهج البلاغة (١/٢٦٢ ـ ٢٧٢ و ٤/٢٦٥) هذا ولبنى ناجية ذكر فى حرب الجمل فقد استماتوا فى قتـال اهـل الكوفة ، يراجع عنه المصـدر المذكور (١/١٠٣) ط بيروت فلا عجب اذا خالفوا الامام فى حرب النهروان بعد حرب البصرة ، وعلى كل حال فان نسب بنى ناجية مطعون فيه ٠

(١) شرح النهج (١/٢٧١) ٠

على والخوارج وانما ألم بالموضوع المامة خفيفة فى الاحكام السلطانية[1] .

تشريع القتال والسياسة الشرعية :

احتج ابن سلام ـ كما رأيت ـ على من اجاز لصالح بن على قتال اللبنانيين والقبرصيين بسيرة الامام على مع الخوارج قائلا : انه لم يستجز قتالهم بما احدثه بعضهم حتى انتحلوه جميعا فكان الواجب على الامير العباسى أن ينتظر حتى ينتحل اللبنانيون كافة ما حدث فى لبنان ، هذا وفى مفارقة المرتدين من بنى ناجية وفى المنهج الذى نهجه على معهم ومع غيرهم من أهل القبلة قبل ذلك وفى انكار عدد غير قليل من مشاهير فقهاء العصر العباسى ما انكروه على بعض الامراء العباسيين عبرة ، ومن ذلك تعرف الغرض من تشريع الحرب والقتال ، وقد ظلم الاسلام من زعم انه دين القوة القاهرة وافترى عليه من قال انه قام بالسيف فقط ، فما الاسلام الا رسالة سماوية نزلت على خاتم المرسلين هى رسالة التوحيد والرفق والرأفة ولم تستخدم القوة على عهد الرسول الى مدة غير قليلة للمبادأة بالعدوان وانما اضطر المسلمون الى القتال ، وقد قال بعض الباحثين فى موضوع الجهاد : يحرم قتال من لم تبلغهم دعوة الاسلام ويحرم أخذهم على غرة .

قواعد العلاقات الدولية فى الاسلام :

هذا وفى الأساس الذى تبنى عليه العلاقات الدولية فى الاسلام قولان ، اولهما : ان هذا الاساس عبارة عن الحرب والجهاد ، وثانيهما : ان أساس علاقة الدولة الاسلامية بغيرها من الدول لا تخرج عن الاسس التى تبنى عليها العلاقات الدولية المعروفة وان الشريعة تجنح للسلم لا للحرب وانها شريعة تحظر قتال مخالفيها لمجرد كونهم مخالفين ما لم يبدأوا بالعدوان ، وقد شرع الاسلام قتال المشركين لانهم بالغوا فى مقاومة الدعوة وسد الطرق فى سبيلها وفتنة المسلمين عن دينهم بالايذاء والتعذيب ، والفرق واضح بين

---

(١) عقد الماوردى فى الباب الخامس من الاحكام السلطانية فصلا عنوانه : « فى الولاية على حروب المصالح » كقتال أهل الردة وأهل البغى وقتال من امتنع من المحاربين وقطاع الطريق ألم فيه بقصة الخوارج ، انظر ص (٤٧) من الكتاب المذكور .

القولين فان تشريع القتال على القول الاول يعنى انه وسيلة من وسائل نشر الديانة ولكنه فى القول الثانى ضرب من الدفاع عنها فمن لم يقاوم الدعوة ولم يبادىء بقتال حقن دمه ، ويميل غير واحد من الباحثين فى السياسة الشرعية الى الاخذ بالرأى الثانى ويحتجون له بجملة من الآيات القرآنية وبأقوال غير واحد من العلماء ، ويتضح من دوران كلمة « السلم » وتحية « السلام » ودعوة القرآن اليه وترجيح الصلح فى الخصومات ان الاسلام لا يأبى مسالمة من لا يدينون به بشرط عدم المقاومة للدعوة وانه لا مانع يمنع أية دولة اسلامية من أن تنتظم بينها وبين غيرها من الدول ولو كانت غير اسلامية شتى العلاقات من تجارية وسياسية او تعقد مواثيق صداقة وحسن جوار •

هكذا كان المسلمون فى خير عصورهم وقد شذت بعض الدول الاسلامية وبعض امراء المسلمين عن هذا المنهاج بعد ذلك فى بعض حروبهم وفتوحهم التى دفعتهم اليها طبيعة الملك والقوة والاستطالة ، ومهما كان الامر وسواء أكان القتال الذى جرى بين المسلمين وغيرهم ضربا من الدفاع أو جهادا فى سبيل الدعوة الى الحق بعد تبليغها وردها أو كان القتال نوعا من الهجوم فان احكام الحرب التى حتم الشرع الاسلامى مراعاتها من خير ما عرف فى تاريخ التشريع الحربى قديما وحديثا ، أى فى القوانين الدولية الحديثة ، وذلك لتخفيف ويلات الحروب ، وكان رسوخ العقيدة ويقظة ضمائر المسلمين خير ضامن لتنفيذ تلك الاحكام والوفاء بها وبما قطعه قادة المسلمين على انفسهم فى عصور الفتوح من عهود لاهل البلاد المفتوحة وهى عهود حفيلة بمعانى الرفق والمروءة ومظاهر التساهل والسماحة فما أبعد الفرق بين وفاء المسلمين ونكث غيرهم بعهودهم فان المواثيق فى نظر كثير من الدول الفرنجية ليست أكثر من حبر على ورق كما شاهدناه فى الفترة الواقعة بين الحربين الكونيتين الاولى والثانية اذ حفلت هذه الفترة بكثير من حوادث الغدر والخيانة وانتهاك حرمة العهود والحاق الاذى بغير المحاربين •

هذه بعض الاسس التى روعيت فى تنظيم العلاقات الدولية فى الاسلام أو فى تشريع الحرب والجهاد فليست الغاية من تشريع الجهاد فى خير عصور الاسلام عصور المجد والقوة ازهاق الارواح واراقة الدماء ونشر الخراب والدمار وانما الغاية دفع

الشر وحماية الدعوة ونشرها فى الآفاق ، وقد شهد فريق من اعلام المؤرخين غربيين وشرقيين للمسلمين وللعرب الفاتحين بأنهم اعدل الشعوب الفاتحة واحسنها معاملة لاهل البلاد المفتوحة .

هكذا اضطلع الائمة وورثة علومهم واعلام الفقهاء والمجتهدين فى الدولة الاسلامية باعباء السياسة الشرعية وهكذا نهضوا بالمهام التى تنهض بها السلطات التشريعية والهيئات النيابية ، فقهاؤها الاعلام من ذوى الملكات القدسية هم المرجع فى دراسة النصوص واستنباط الاحكام الشرعية منها لما يجد من نوازل وواقعات ومطالب وحاجات .

لذلك كان سد باب الاجتهاد من أهم عوامل الجمود وتخلف السلطات التشريعية فى حاضر العالم الاسلامى وقصورها أو تقصيرها عن مواكبة الزمن فى سيره الحثيث وتيسير مصالح الامة فى شتى نواحيها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ومن هذه الناحية أعنى الجمود وسد باب الاجتهاد التجأت بعض الحكومات فى الشرق الاسلامى الى اقتباس قوانين امم غير مسلمة والعمل بأحكامها ، والسر كامن فى تقصير بعض المسلمين وجمود بعض المتفقهة لا فى قصور التشريع فى الاسلام .

لعل السلطة التشريعية فى الاسلام أفضل سلطة دستورية لو أحسنوا اختيار رجالها من بين اعلام الفقهاء ولو عينت سلطاتهم من حيث مراقبة شؤون الدولة ، ولم تعرف فى صدر الاسلام قاعدة الفصل بين السلطتين التشريعية والتنفيذية ولا يجوز اطلاقا أن يكون قوام السلطات التشريعية فريقا من الجهلة القاصرين أو المتهالكين على الجاه الزائف أو الذين مات فيهم شعورهم بالمسؤولية كما نرى ذلك فى بعض الاقطار المغلوبة على أمرها اليوم ، اذ ليس من المتيسر لهؤلاء مراقبة السلطات الاجرائية ومناقشتها الحساب .

حدث القبرصيين واللبنانيين :

حدث احدثه اللبنانيون وآخر أحدثه القبرصيون فى ولاية الاميرين صالح وابنه عبدالملك تخللها قتل وقتال وبطش ونكال اقام قيامة جمهرة من الفقهاء واساتذة التشريع

وأثار كثيرا من البحث والنقاش فما هي حقيقة هـذين الحدثين وفي أي تاريخ وقعا ؟ ، من هو عامل خراج بعلبك الذي شكاه اللبنانيون الى صالح بن علي قبل الوافعة ؟

لم يرد في امهـات كتب التـأريخ بحث شـاف عن ذلك ، لم يشر اليه الطبري والمسـعودي وابن الاثير وطبقتهم من المؤرخين مع أن كتبهم حفيلة بتـاريخ الدولة العباسية وما جد فيها من احداث ، وقد اكتفى كل من أبي عبيـد ابن سـلام في كتاب الاموال والبلاذري في كتاب الفتوح ـ لانه من أصحاب ابن سلام المعنيين بالرواية عنه ـ باشارة اجمالية فلم يزيدا في تعريف « الحدث » على أنه « حدث » ولو لم يعن المؤرخ ابن عساكر بالتأليف في تأريخ دمشق الشام وفي جملته احـداث هذه العصور لبقيت في عداد الاخبار الضايعة ولما تيسر لنا الاطلاع عـلى حقيقتها قط وهكذا ظفرنا بهـذه الضالة بعد أن اضنانا طول البحث والتنقيب ، انفرد ابن عساكر في تأريخه[1] بتسجيل ثورة اللبنانيين فاذا هي ثورة على الدولة العباسية شق اللبنانيون فيها عصا الطاعة واعلنوا تمردهم على ولاة الامر تحدوهم رغبة ظاهرة في الانفصال وتكوين دولة قوامها لبنـان وما اليه من المناطق الساحلية والجزر القريبـة منهـا مثل قبرص[2] فان هذه الجزيرة قريبة من لبنان ، ولذلك وقع اختيارهم على واحد منهم نصبوه ملكا والبسوه التاج كما جاء في تأريخ دمشق المذكور[3] .

---

(١) انظر مهذب تاريخ دمشق (٥/٣٤١) .

(٢) تقع قبرص في الزاوية الشمالية الشرقية من بحر الروم على بعد ستين ميلا من بيروت ويحتلها الانكليز ولا تنقطع مطالبـة الاروام بها وكثرة سكانها منهم ويليهم الاتراك وفيها آثار اسلامية وتمتاز قبرص ببهجتها وخصبها وجمال مناظرها فهي بلد الربيع المعشوشب والازاهير الفواحة .

(٣) قال ابن عسـاكر في ترجمـة « رياح بن عثـمان المرى » : « ولى امرة دمشق لصالح بن علي الهاشمي امير مصر والشام منقبل المنصور ، ومن الوقايع فيزمن رياح أن الروم دخلوا طرابلس ثم ظهر فيلبنان رجل منأهل المنيطرة شاب ممتلىء الجسم وذلك فيسنة اثنتين أوسنة ثلاث واربعين ومائة وسمى نفسه الملك ولبس التاج وأظهر الصليب واجتمع عليه انماط من جبل لبنان وغيرهم ثم استفحل امرهم فسبوا بعض قرى البقاع فقتلوا المسلمين وأخذوا ما وجدوا وكتب « بندار الملك » الى أهل بعلبك يعلمهم بمصيرهم ويأمرهم بقتالهم فتأهبوا وقاتلوهم في أسفل جبل لبنان ثم اظهروا الهزيمة فامعنوا في =

ومن المحتمل جدا ان هؤلاء الثوار اتصلوا بالروم البيزنطيين وطلبوا منهم الحماية والمعونة ولا يبعد أن يكونوا مدفوعين الى الثورة من قبل الروم فهى ثورة تكمن وراءها دسائس البيزنطيين ولا شك أن لهم ضلعا فيها .

ليست هذه اول حـادثة فى تأريخ النزاع بين الروم البيزنطيين والعـرب فان دسائس الروم ومكائدهم لم تنقطع خلال الصراع العنيف بين الفريقين من صدر الاسلام الى أواخر عصور الدولة العباسية وهى دسائس بدأت بعد فتح الشام وتغلغل المسلمين الفاتحين بعد ذلك فى مغازيهم الى قلب المملكة البيزنطية فى دولة الامويين والعباسيين فقد توغل العـرب فى بلاد الروم او ما يسمونه « آسية الصغرى » اليوم حتى اجتـازوا المضايق والدروب المشـهورة ففتحوا أمنع حصون الروم مثـل « حصن لؤلؤة » وفتحوا « عمورية » واستوالوا على بعض موانىء البحر الاسود مثل « صامسون » ويلاحظ أنهم يقفلون عائدين الى قواعدهم من الجهـات التى يقرس فيهـا البرد ويشـتد الزمهرير ليستجموا فى الاقاليم الدافئـة فقـد حكم المسلمون قبرص ومالطـة وصقلية وغـير ذلك من جزر البحر الرومى مدة غير قصيرة لدفئها وملاءمـة مناخها البحرى لامزجة القوم ومن الامور المألوفة أن لا تخلوا الجزر والجبال الواقعة على تخوم البلاد الاسلامية - كجزيرة « قبرص » وكجبل « اللكام » ويسمى اليوم جبل « طورس » وهو الجبل الشامخ المطل على المسالح أو الثغور الاسلامية المعروفة من « انطاكية » وما الى ذلك من الجهات الفاصـلة بين المملكتين البيزنطية والعبـاسية من قوم سـذج طالما خدعهم القيـاصرة وقوادهم واستخدموهم للنكاية بالمسلمين وطـالما تسللوا من جبل « اللكام » او سواحـل البحر الرومى او جزره الى لبنـان والشـام طورا من قبرص وتارة من

= الطلب فلما بعدوا عن الجبل كرت عليهم خيل بعلبك فقتلت منهم مقتلة عظيمة وانهزم بقيتهم ثم انهم هاجموهم فى قلعتهم فظهروا عليها وامتلكوها منهم وهرب « بندار » الى بلاد الروم فكتب حينئذ صالح بن على يأمر باخراج من بقى من الجبل وتفريقهم فى بلاد الشام » ، هـذا ما قاله ابن عساكر ويلاحظ انه لم يشر الى ما جـرى من النزاع والنقاش الفقهى الذى ذكرناه فى هـذه القضيـة ، اما المنيطرة التى خرج منهـا الملك المزعوم فانها حصن بالشام قريب من طرابلس على ما جاء فى معجم البلدان لياقوت .

طرابلس ومرة من شمال سورية حيث يجدون فى هـذه الجهـات مأوى واعوانا لهم ، وقد حالف النجاح هؤلاء الاروام فى بعض هذه الحوادث بيد انهم فشلوا فى أكثرها فان الامراء الفاتحين فى صدر الاسلام والولاة من بعدهم تمكنوا من محالفة فريق من رعايا الروم ومن اخلاط الامم المقيمة فى بلادهم برا وبحرا طورا بعقد المواثيق وتارة ببذل الاموال فجعلوا منهم ادلاء وربايا على الروم يوافونهم باخبارهم ، وفى كتب التاريخ والفتوح والبلدان ذكر لقوم يسمونهم « الجراجمة »[١] وبلدتهم « الجرجومة » ، وفى هذه الكتب أيضا ذكر لصقالبة الثغور الرومية ، ولعل الجراجمة تناسلوا من اصـــلاب اولئك الصقالبة صالحهم المســـلمون بعد الفتـح على أن يكونوا عـونا للمسلمين وعيونا واستخدمهم العباسيون وقبلهم الامويون للوقوف على أخبار الدولة البيزنطية ، ومجمل القول : كان هؤلاء الجراجمة مذبذبين طورا يلتزمون بمواثيقهم وتارة ينكثون فيكاتبون الروم ويمالؤونهم ، وقـد عنى الجـانبان عربا وروما بموقـع « الجـرجومة » من جبـل « اللكام » ومضايقه الجبلية الوعرة وما دونها من تلك الثغور كثغور الجزيرة وثغور الشام ، وكانوا يعنون كثيرا بمرمة تلك الحصـون وضبطها وشحنها بالمرابطين لمـا فى ذلك من عظيم الغنـاء والكبت والوقم للعـدو فيما يحاول ويكيد • وموقع الجرجومة وما اليهـا له خطورته من النـاحية الحربيـــة ، وقـد نقـل العبـاسيون قبيلة « الزط »[٢] من

---

(١) انظر عن الجراجمة واحوالهم والجرجومة بلدهم فتوح البلدان (١٦٦ ــ ١٦٩) وانظر ص ١٧٤ من كتاب الاموال لابن سلام ومادة الجرجومة من معجم البلدان ، وانظر أيضا احوالهم فى جبـل « الحور » ونواحى الغمق وبعض اعمال انطاكية ، وراجـع ابن خرداذبة ط دى خوبة عن اقاليم الـروم ومسالكهم وانسب الفصول لغزو أراضيهم وما جاورهم من الامم كالبرجان أو البرجـــار أو البلغار والسلاف والخزر ، انظر عن حملة الروم على زبطرة واشتراك السلاف والبلغار فى حملة تيوفيـل عليها مـا ورد عن عصر المعتصم فى تأريخ الطبرى والمسـعودى واليعقوبى وابن الاثير وابى الفـرج ابن العبرى وغير هؤلاء •

(٢) انظر تأريخى الطبرى وابن الاثير عن نقل هذه القبيلة الى عين زربة وعن بطش الروم بهم وأسرهم وسبى نسائهم واطفالهم وغنيمة مالهم من اموال •

العراق للمرابطة فى بعض تلك الثغور تجاه الصقالبة والجراجمة واسكنوهم فى عين « زربة » .

كانت لقياصرة الروم سياسة خرقاء من شأنها اضطهاد الطوائف ومقاومة المذاهب والطرق المخالفة لطريقتهم الرسمية وهى الاورثوذكسية وكانت الدولة ترغم كثيرا من رعاياها على ترك عقائدهم والا فلا مناص لهم من الاضطهاد وقد هلك جمع غفير من رعايا الروم فى هذا السبيل ومنهم من أبعدوه الى ما وراء الحدود سواء ما كان منها فى الجزيرة أو فى سورية حيث رحب المسلمون بهؤلاء اللاجئين واكرموا وفادتهم وادمجوا كثيرا منهم فى جيوشهم فأسهموا فى حملاتهم وغزواتهم ، ولعل منهم اولئك الجراجمة فقد سار المأمون ومعه ابنه العباس لغزو الروم يصحبه اللاجىء الرومى « منويل »[1] ، ويقول المؤرخون ان المأمون عبر المضايق والدروب حيث حاصر حصن « لؤلؤة » مائة يوم وتمكن من الاستيلاء عليه ولذلك نوه غير واحد من المؤرخين بجهاد المأمون فى الروم كالطبرى والمسعودى واليعقوبى وآخرين من المؤرخين .

عاد هذا التعصب الاعمى بعوائده الحسنة على المسلمين فى جل العصور العباسية والاموية قبلها والحق اضرارا بليغة بالروم فانه ترك حدودهم شاغرة فى كثير من الاحيان بعد ان كان هؤلاء الرعايا حماة الحدود المذكورة والفرق بعيد جدا بين الروم والمسلمين من هذه الناحية فقد كان وفاء المسلمين بعهودهم ومواثيقهم مضرب الامثال ومن هذه الناحية ولما رأى المسيحيون المضطهدون وفاء المسلمين لهم وحسن سيرتهم بهم صار كثير منهم اعوانا لهم على البيزنطيين .

رياح بن عثمان المرى أمير الشام :

ردت ولاية مصر والشام الى الامير عبدالله بن على ثم الى أخيه صالح فور انقراض الدولة الاموية ، وفى مصر كانت قاعدة الامارة المذكورة ، وكان صالح يعنى بحكم الشام بواسطة امراء ينصبون من قبله ، وفى سنة ١٤٢ أو السنة التى تليها عهد بولاية

---

(١) انظر تاريخ الطبرى عن هذه الغزوة .

الشام الى امير مشهور بعنفه وصرامته يقال له « رياح بن عثمان بن حيان المرى » ورياح هذا فيما يبدو لنا من ثنايا التأريخ ينتمى الى اسرة حاكمة اضطلعت باعباء الحكم منذ العصر الاموى ، فأبو رياح عثمان بن حيان ولى امرة المدينة فى عهد سليمان بن عبدالملك ، والغالب ان رياحا أخلص الاخلاص كله للعباسيين الاول لاسيما عندما كان أميرا على دمشق وتوابعها ، وكانت لبنان تابعة لولاية دمشق فى العصر المذكور ، وبالجملة أخلص رياح اخلاصا حمل الخليفة أبا جعفر المنصور على الثقة به واستكفاه لقمع ثورة اللبنانين حيث نجح فى قمعها ثم ولاه المدينة فى عصر عصيب جدا كانت مدينة الرسول فيه تتمخض عن ثورة كبيرة عجز الولاة عن اعتقال قادتها عبدالله الحسن وأولاده واتباعهم فانهم قوم لا ينافسون فى جاههم ومنزلتهم فى الديار الحجازية وفى اقطار أخرى يسيطر عليها العباسيون ، ولما لاحظ المنصور ان ولاته على المدينة ينقصهم الجد فى طلب ابناء الحسن للاسباب السالفة عزلهم واحدا فواحدا عزل زيادا الحارثى بمحمد بن خالد بن عبدالله القسرى ثم عزل القسرى برياح بن عثمان المرى فأبلى بلاءه فى طلب القوم الى أن ثاروا عليه فقتلوه[1] ، وقد علق المنصور على رد امرة المدينة الى رياح فى هذا العصر آمالا جساما ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح خلافا لما اتفق له فى الثورة اللبنانية .

قد يقال : لماذا اطمأن العباسيون الى ولاية رياح وأبوه عثمان من ولاة بنى أمية ، والغالب ان آل رياح انقلبوا فيمن انقلب على الدولة الاموية فى أواخر أيامها منضمين الى الحركة الهاشمية مخلصين فى الانضمام اليها ، والظاهر ان المنصور ـ وهو من المعجبين برجولة هشام ـ أراد ان يكون له فى المدينة ـ وال من طراز الحجاج ، ويلاحظ ان رياحا لم يقصر فى النسج على منوال الحجاج فى سيرته المعروفة مع أهل العراق[2] ، وكان يخطب فى أهل المدينة فيتهدد ويتوعد ويتهم الناس بالمروق والعصيان ويدعوهم الى طاعة الخليفة ويتوعدهم اذا حادوا عن ذلك ، وكانت لهجته فى بعض خطبه شبيهة بلهجة

---

(١) انظر عن تهاون ولاة المدينة فى طلب بنى الحسن مهذب تاريخ دمشق (٣٦٢/٧) والنجوم الزاهرة (٣٥٢/١ـ٣٥٥) والصفحات (٩٢ـ٩٣ ، ١٠٣ ، ١٠٤) من هذا الكتاب .

(٢) راجع عن أخبار رياح فى المدينة المقاتل ط الحديثة (١٩١ ، ١٩٦ ، ٢١٦ ـ ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٣٠ ، ٢٦٠ ـ ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٧٦ ـ ٢٧٧ ، ٢٨٨ ، ٣٩١ ـ ٣٩٢) ، وفى تأريخى الطبرى وابن الاثير جملة صالحة من هذه الاخبار .

الحجاج فيما ألقاه من خطب هناك كأنه الحجاج على منبر الجامع فى الكوفة .

هذا ، والواقع ان رياحا لم يأل جهدا فى مطاردة بنى الحسن وبث العيون على العلويين الثائرين وبالخاصة النفس الزكية ، طارده فى السهول والجبال وفى الحاضرة والبادية . ضيق عليه فى كل مكان حتى انهما كانا يلتقيان فى أماكن قريبة فلا يعرف أحدهما الآخر لبراعة النفس الزكية فى التنكر ، وقد قتل له ولد بتهوره من احد الجبال فى جهات المدينة ، ثم ان رياحا هو الذى ملأ السجون من أنصار محمد بن عبدالله وهو الذى اخرج زعماء الدعوة العلوية الى الربذة بأمر المنصور وكان المنصور قدم الحجاز حاجا فى الظاهر ولكنه اضمر الفتك بغرمائه من بنى الحسن وأوليائهم من الهاشميين والحجازيين فعذبهم فى الربذة ثم نقلهم الى العراق حيث زجوا فى سجن الهاشمية فهلك من هلك منهم فيه فى قصص مثيرة مشهورة اندلعت على أثرها نيران الثورة العلوية ، ويقول المؤرخون ان هذا الضرب من التضييق على محمد اضطره الى اعلان الثورة قبل أوانها فغلب رياح على أمره فى المدينة واخذ ثم قتل شر قتلة ثم جاء دور النفس الزكية فغلب على أمره على يد موسى كما مر ذلك

ما أكثر الادلة على صرامة رياح هذا وفى مقدمتها ـ مضافا الى فعلاته فى الحجاز والشام ـ الحكاية الآتية :

« اتى عمر بن عبدالعزيز باغيلمة من أولاد المهالبة لم يبلغوا الحلم وكان عنده رجاء[1] بن حياة الكندى ورياح بن عثمان المرى فقال عمر لرياح : ما تقول فى هؤلاء الاغيلمة ، قال ، أقول : كما قال نوح عليه السلام : « رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا » ، فالتفت عمر الى رجاء قائلا : ما تقول أنت ، فقال : ما سبيلك على هؤلاء الاغيلمة الذين لم يبلغوا الحلم ولم تجب عليهم الاحكام ، فأخذ بقول رجاء فلما خرجا قال رياح لرجاء : ان الله خلق رجالا للشر ، وهذا منهم ، وخلق رجالا للخير

---

(١) انظر عن رجاء بن حياة ونسبه وأحواله مهذب تاريخ دمشق لابن عساكر (٥/٣١٢) ففيه ترجمة وافية له وهو ممن اتصل بهشام بن عبدالملك وغيره من امراء بنى امية ، ويقال انه أدرك معاوية وقدم الكوفة وتوفي سنة ١١٢ ، ولرجاء هذا ترجمة فى طبقات ابن سعد .

وانت منهم »[١] فهذا الرأى من رياح يدل على قسوته المتناهيـة فاذا كان المهلب بن أبى صفرة قد فارق بنى امية وخالفهم فما ذنب صبيان ابرياء غير مكلفين من المهالبة ، وعلى كل فقد كان رياح زعيم قيس فى عصره ، وكان يقرب الشعراء ولما قتل رثاه ابن ميادة بمقطعات استنهض بهـا آل المرى واستجاشهم للاخـذ بثاره ، وهى أبيـات تنم عن اكباره لرياح وصلته الوثيقة به[٢] .

آل المرى فى تاريخ الادب والسياسة :

ورث الامير رياح شدته وعنفه فيما ورثه عن أبيه عثمان بن حيان المرى اذ عرف ابوه هذا بالجور والشدة يقرن فى التاريخ بالحجاج بن يوسف وبأخيه محمد بن يوسف وبالوليد فى الشام وبولاة جائرين غير هؤلاء ، ولهذا ضج عمر بن عبدالعزيز من سيرته وسيرة غيره من ولاة الجور والعسف فى العصر الاموى ، ولما ذكر له ظلم الحجاج وغيره من ولاة الامصار أيام الوليد بن عبدالملك صرخ قائلا : « الحجاج بالعراق ! ، وقرة بن شـريك بمصر ! وعثمان بن حيـان بالمدينـة ! ، وخـالد بمكة ! ، ومحمد بن يوسف باليمن ! ، اللهم قد امتـلأت الدنيـا ظلما وجـورا فأرح الناس ، والواقع ان سيرة عمر بن عبدالعزيز فذة بين سيرة الامويين حتى ان بعض ولاته على المدينة أنفذ الحـد على عثمان بن حيان مرتين فلما مات عمر شكا ابن حيان ذلك الى خلفه يزيد وطلب ان يقيده من ذلك الوالى ففعل ولم يكتف بذلك بل عمد يزيد الى ابطـال كل ما صنعه عمر بن عبدالعزيز من الترفيه عن الناس ومحـاولة اصلاح بعض الولايات وغير ذلك مما لم يوافق هوى يزيد فغير آثاره غير مبـال ولا خائف من شناعة عاجلة أو اثم آجل كما قال ابن تغرى بردى فى التأريخ[٣] .

---

(١) انظر عن هذه الحكاية مهذب تاريخ دمشق (٥/٣٤١) .

(٢) من ذلك قوله :

امـرتك يا رياح بأمر حـزم ... فقـلت هشيـمة من آل نجـد
فوجـدا ما وجـدت على رياح ... وما اغنيت شيئا غير وجـدى

وله ايضـا :

مررت على الفرات فهـاج دمعى ... مع الاسـرى وصيحـات النواح
فما ورد العشـيرة من قتيـل ... أعز عـلى العشيـرة من رياح

(٣) انظر النجوم الزاهرة (١/٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٣٩) .

وقد جاء فى معجم الشعراء للمرزبانى عن انفاذ الحد على عثمان فى عهد عمر بن عبدالعزيز ما نصه : « كان أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الابهارى أيام ولايته المدينة ضربه – يعنى عثمان – حدين فلما قام يزيد بن عبدالملك أقاد عثمان من ابن حزم فقال :

ينام بنو حزم وما نمت عنهم وما ليل موتور كريم بنائل

وقال :

نحن ضربنا الفاسق ابن حزم حدين لم نخلطها بظلم[1]

هذا منهج آل المرى فى السياسة فانه خلاف منهجهم فى الادب ، فهذا عثمان أبو رياح كان يقرض الشعر – كما رأيت – وقد اختص به غير واحد من الشعراء ويعده المرزبانى منهم فى معجمه[2] ، وكان ابن ميادة[3] – وهو من بنى مرة أيضا – من أشهر شعراء آل المرى وقد رأيت كيف جود فى رثاء صاحبه رياح أمير المدينة وصريع ثورتها الدامية ، وتتضارب الآراء فى شعره وأدبه واذا حكمنا عليه من خلال كلمة له فى تعريف الشعر عد فيما نرى ضليعا فى الادب ففى كتاب الموشح للمرزبانى[4] « ان قاسم بن جندل الفزارى – وكان عالما – قال لابن ميادة : والله لقد جددت بشعرك وذكرت به وانى لأراه كثير السقط ، فقال ابن ميادة : يا ابن جندل انما الشعر كنبل فى جفيرك ترمى به الغرض فطالع وواقع وعاضد وقاصر » ، فما ابلغ

---

(١) معجم الشعراء (٢٢٨) .

(٢) المصدر نفسه وانظر عنه النجوم الزاهرة (١/٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩) وعن ابنه رياح (٣٥٢ – ٣٥٣) .

(٣) من أشهر شعراء العصرين الاموى والعباسى تحفل كتب الادب بذكره ورواية شعره وهو من شعراء الحماسة نقلت له مقطوعة فى موضع وبيتان فى موضع آخر من كتاب الحماسة وترجم له الخطيب التبريزى فى شرحه وذكر له نسبا وضيعا وأشار الى سبب تسمية أمه ميادة حيث هجى بسبب ذلك هجاء مقذعا على ما جاء فى ترجمة التبريزى له واشار أبو زكريا الخطيب – كما اشار غيره – الى الاختلاف فى اسم أبيه الى غير ذلك ، انظر شرح ديوان الحماسة لابى زكريا الخطيب التبريزى ط القاهرة (٣/ ٢٨ ، ٢٩٩) وانظر البيان والتبيين للجاحظ ط الحديثة (١/١٨٩ و ٣/١٤٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٨ – ٢٠٩) ، ومعجم الشعراء ١٢٤ ، والاغانى ط دار الكتب (٢/٢٦١) والامالى للقالى ط الاخيرة (١/٩٨ ، ١٩٥) والتنبيه على أوهام أبى على القالى فى أماليه للبكرى (٣٢) وعن بعض شعره الذى يتمثل به نهاية الارب للنويرى (٣/٨٢) .

(٤/٢٢٨) .

هذا التعريف للشعر وما أحسنه ؟ ، وقد عنى المرزبانى بشرح هذه الكلمة فى كتابه ، ولعثمان بن حيان هـذا أخبار غير قليلة فى كتب الادب ان دلت على شيء فانما تدل على هـوس واندفاع واستعجـال وضعف وتردد ، وهـو الذى دفعـه الاستعجـال فأمر بخصاء المخنثين فى المدينـة قبل التثبت من عبـارة وردت فى كتاب لسليمان ابن عبدالملك يأمره باحصاء المخنثين[١] ، ولعثمان هذا قصة أخرى مع ابن أبى عتيق - وهو من احفاد أبى بكر ومن وجهاء زمانه فى المدينة وكان مطبوعا على الفكاهة وحب النكتة - وهذه القصة تشعرك بضعفه وتردده وأنه كان منقـادا لابن أبى عتيق متأثرا بمذهبـه فى المرح والمجـون حتى استطاع أن يصـرفه عن الاوامر التى أصدرهـا فى تحريم الغناء ومطاردة القيان والمطربات[٢] ، وفى مجلسه فاتح مرة بدويا من بنى مرة فى الاصهار اليه على ابنته على صورة اعتبرها البدوى ضربا من الاستخفاف به فتغـافل قائلا : لعلك تريد ناقتى أيها الامير فأكد له عثمان طلبه ولم يسع البدوى الا ان يعيـد جوابه ، وانتهى الامر بشتم البـدوى وطرده ولا ذنب له غير رقة الاحساس ولطف الشعور ، الى هذا ونحوه مما يدل على ضرب من غلظ الطبع وبلادة الاحساس[٣] .

آخر القسم الاول من الجزء الاول من الكتاب ويليه القسم الثـانى فى بقية تاريخ العصر العباسى وعصر المغول فى العراق وبالله المستعان .

مؤرخ العراق ابن الفوطى

الجزء الثاني

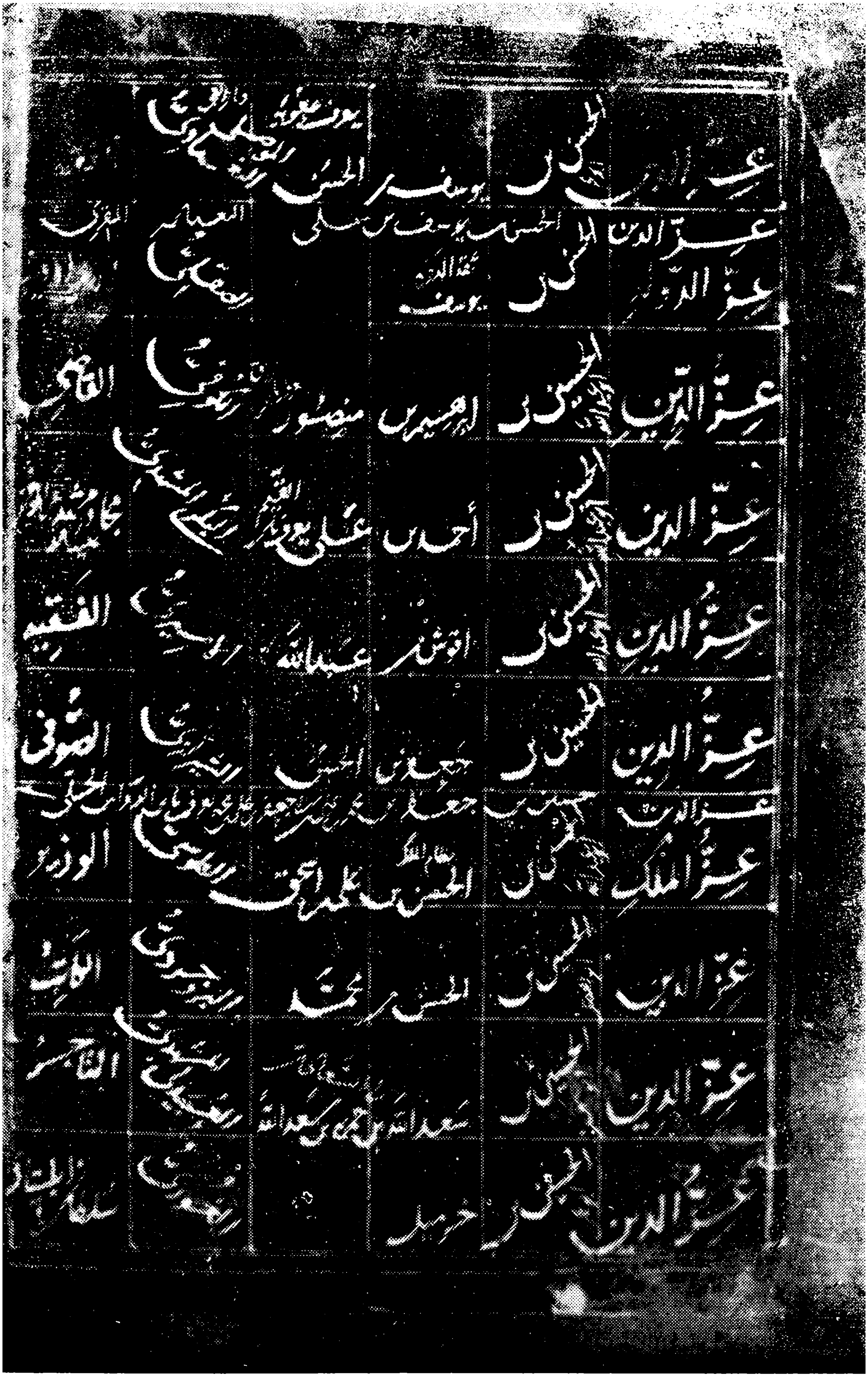
سيشرع بعون الله فى وقت غير بعيد بنشر الجزء الثانى من كتاب « مؤرخ العراق ابن الفوطى » حيث يتناول البحث عصر المؤرخ المذكور وسيرته ومشيخته وأصحـابه وآثاره الى غير ذلك .

---

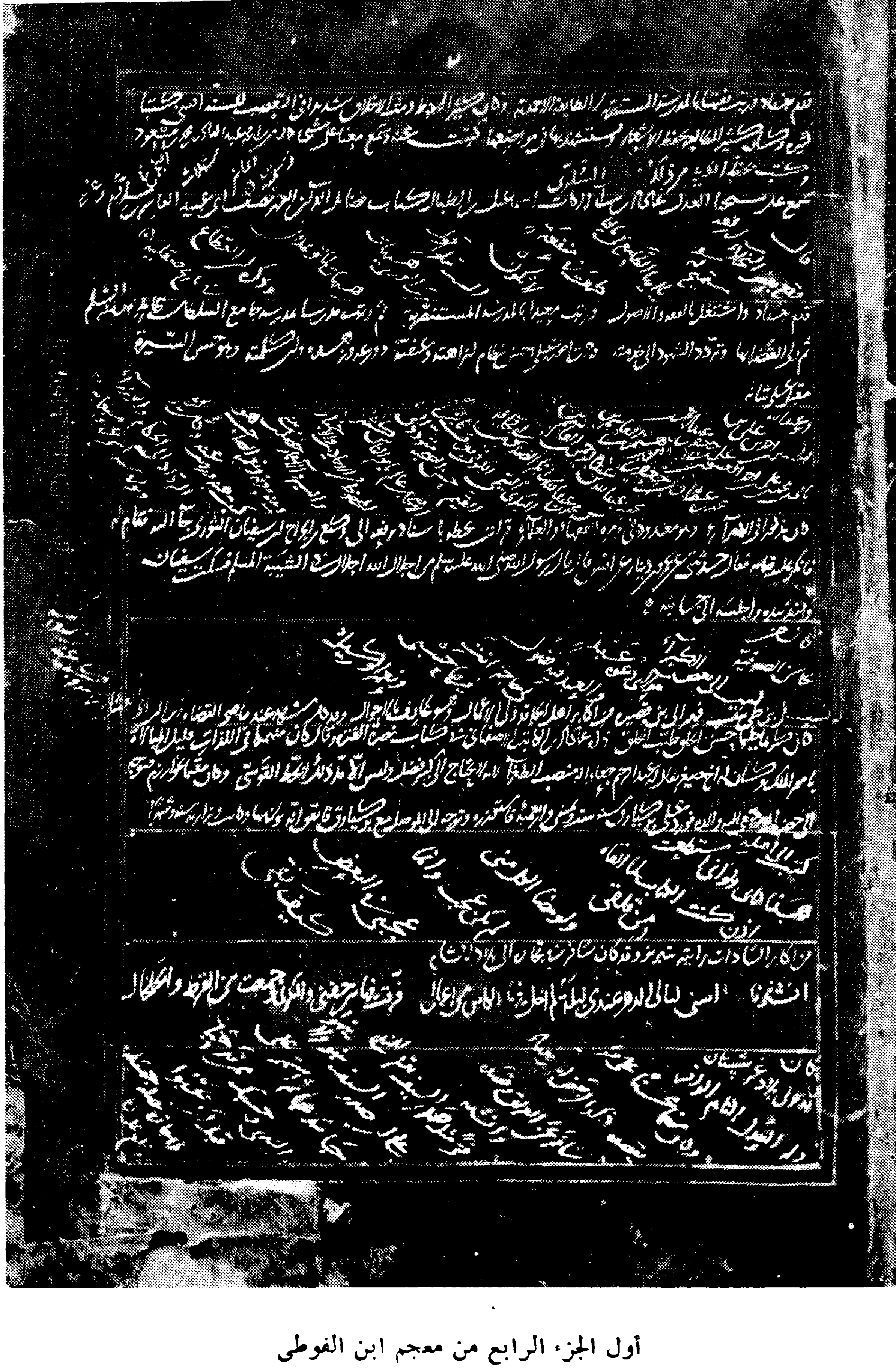
(١) جمع الجواهر فى الملح والنـوادر أو ذيل زهر الآداب للحصرى القيروانى (٢٤٢) .

(٢) المصدر المذكور (٤٤ - ٤٥) .

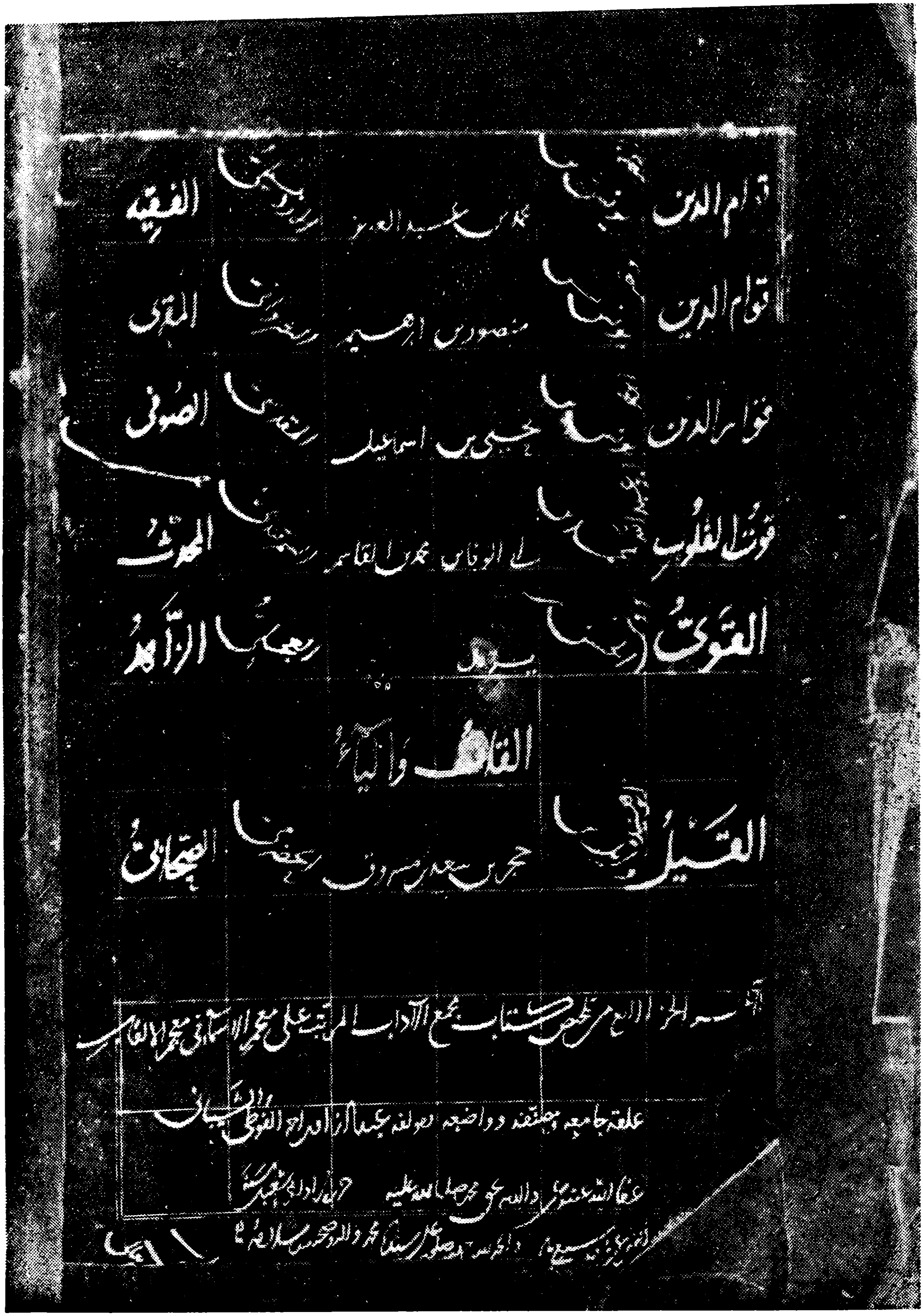
(٣) انظر عن قصته مع البدوى التنبيه علي اوهام القالى للبكرى (٣٢) .



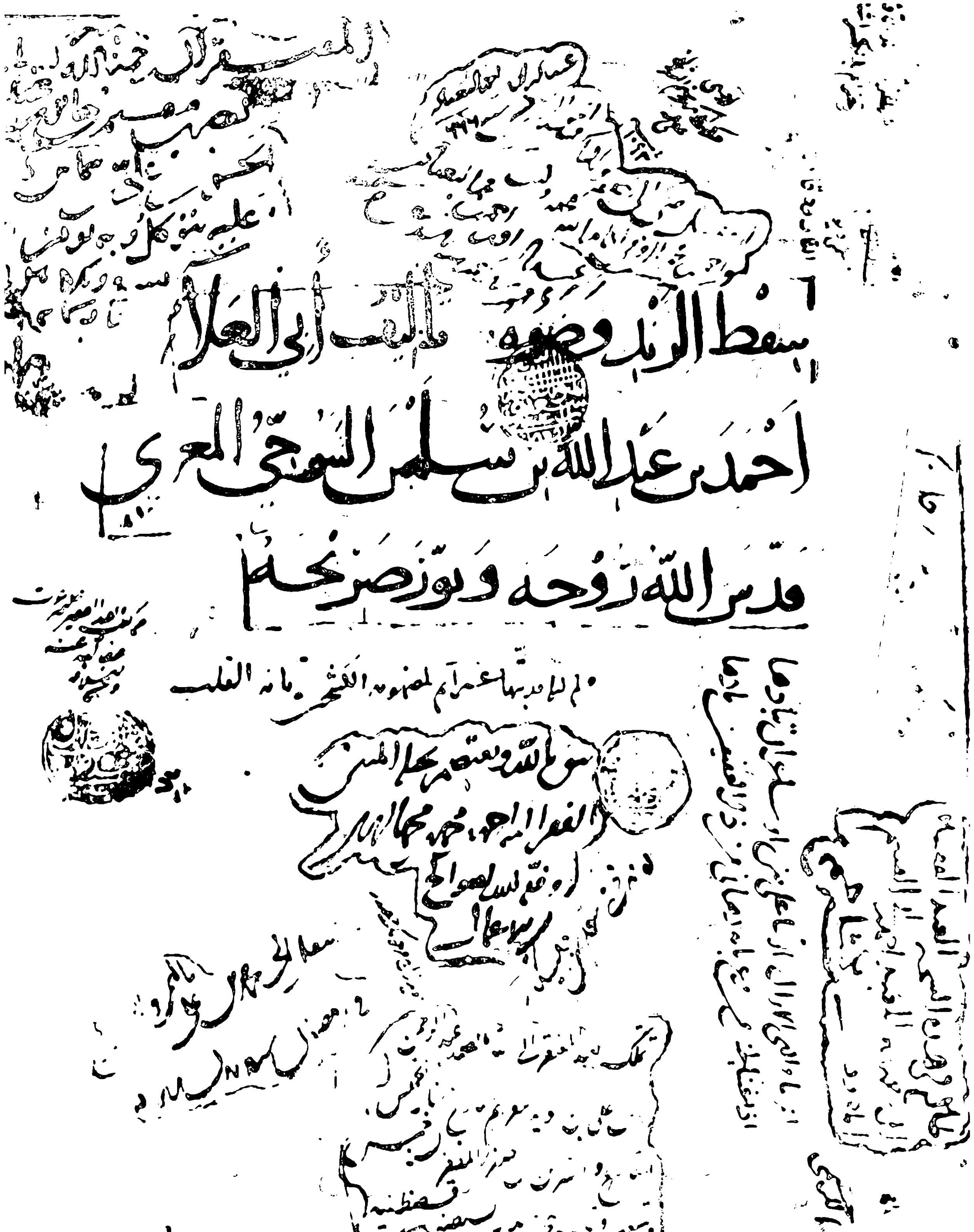
أول الجزء الرابع من معجم ابن الفوطي



أول الجزء الرابع من معجم ابن الفوطي
بخط المؤلف



خط ابن الفوطي كما يرى في آخر نسخة الأصل


سقط الزند وضوؤه تأليف أبي العلاء
أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري
قدس الله روحه ونور ضريحه

نسخة قديمة من سقط الزند عليها خط ابن الفوطي .

فهارس عامة

فهرس الكتاب

فهرس الكتاب

فهرس الكتاب

فهرس الكتاب

فهرس الاعلام

فهرس الاعـــلام

الفـــاء

القـــاف

الكاف ـ اللام

الميم

النـــون

الهـاء ـ الواو

اليـــاء

فهرس

الفرق والقبائل والجماعات

البـاء

التـاء

الفاء ـ القاف

الكاف ـ اللام

الميـــم

النون ـ الهاء

الواو ـ اليـــاء

فهرس

البلدان والأمكنة والبقاع

المستدركات

لم يسلم الكتاب من بعض الاغلاط المطبعية مع بذل الجهد فى التصحيح ومع ماظهرته ادارة مطبعة التفيض وعمالها من رحابة صدر يحمدون عليها . وقد تدوركت تلك الاغلاط وصححت حسب الجدول الآتى وبقيت غلطات مطبعية طفيفة تركنا الاشارة اليها اعتمادا على فطنة المطالعين

الصفحة	السطر	
٥	الهامش	صوابه الثامن
٦	٤	« اثر
٤٨	٥	« القلاقل
٥٧	١٨	« موسى بن عيسى بن موسى بن محمد
٦٠	١٦	« لأن ابراهيم
٦١	١٧	« مباشرة العمل
٧٢	١٦	« مفقود
٧٦	٣	« ابن عبدالعزيز
٧٨	٥ من الهامش	« مصنف الحاوى
٨٤	٩	« ذلـوا
٨٨	١١	« كونوا النمرقة الوسطى » وردت هذه الكلمة فى نهج البلاغة على انها من اقوال الامام على وعليها شرح لابن ابى الحديد (٤/٢٨٩) .
١٠٣	٨	صوابه المدينـة
١٠٣	٢٢	« التيمى
١١٠	٢٠	« اعناقنا
١٢٣	٢١	تحذف « بصاحبها » ويحل مكانها « بصاحب صقلية »
١٢٦	١٤	تضاف « لهم » بعد « ثانية »
١٢٨	٦	صوابه مسلموا
١٣٠	٣	« الا أن

الصفحة	السطر	
١٣٥	٣ من الهامش	صوابه ٣٠٣
١٣٩	٢	« ابن هبيرة
١٣٩	٣	« الساسانية
١٤٢	٣ من الهامش	« مع ابى
١٤٣	٢ من الهامش	تضاف « من » بعد « شعره »
١٤٤	٦ من الهامش	صوابه ولاه المنصور
١٤٤	١٧	« تم
١٥٣	١ من الهامش	صوابه نائبا عنه
١٥٤	٥	تحذف « فى جزيرة العرب من الشام والجزيرة » ويحل مكانها « من جزيرة العرب والشام والجزيرة »
١٥٥	٩	صوابه الصق
١٥٦	١٠	« العـــلوية
١٥٧	١٨	« فى القطر المصرى
١٥٩	٢٠	« جىء بآل على
١٦٢	١٧	« الى الخلافة
١٦٣	٣ من الهامش	« عمرو
١٦٥	الاخير من الهامش	« لابن
١٦٨	٧	« أبو عمرو
١٧١	٧ من الهامش	« هتيم
١٧١	٩ من الهامش	« فرحبوا
١٧٢	٦	« ولائه
١٧٤	٥ من الهامش	« التنبيه
١٧٤	١٤	يحذف هذا السطر ويحـل مكانه « عزل عن جميع الولايات التى تولاها ، عزل عن المدينة وعن الجزيرة وعن الشام »
١٧٥	٩	تحذف كلمة « الحجازيين »
١٧٥	١٨	صوابه وبين هذين
١٧٦	٣ من الهامش	احذف «فى» من « فى كتاب »
١٧٩	١١	صوابه قبـــائل
١٨٧	٣ من الهامش	« معـه

الصفحة	السطر	
١٨٩	٨	صوابه قنسرين
١٩١	١ من الهامش	ضع رقم ١
١٩٤	١٢	تحذف « عبدالله » ويحل مكانها « عبدالملك أخيه »
١٩٤	١٤	تحذف « عبدالله » ويحل مكانها « عبدالملك »
٢٠٣	٦ من الهامش	صوابه جعفرا
٢٠٩	٤ من الهامش	« التبصير
٢١٦	٣ من الهامش	تبدل « الاروام » بـ « الروم »
٢١٧	١٠	صوابه استولوا
٢١٨	٢	تبدل « الاروام » بـ « الروم »
٢٢٣	٥	صوابه بنائم

الكتب والمراجع

اسم الكتاب	المؤلف
الاثنا عشرية فى المواعظ العددية	ابن قاسم العاملى
الاحتجاج	الطبرسى
الاحكام السلطانية	الماوردى
الاخبار الطوال	
اخبار ابى نؤاس	ابو هفان
الآداب السلطانية	ابن الطقطقى
الارشاد	الشيخ المفيد
الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى	السلاوى
الاستيعاب	ابن عبدالبر
الاشتقاق	ابن دريد
الاشربة	ابن قتيبة
الاغانى	ابو الفرج الاصبهانى
الامالى	القالى
الامالى	الطوسى
الامامة والسياسة	
الامثال	الميدانى
الاموال	القاسم بن سلام
الانتقاء	ابن عبدالبر
الانساب	السمعانى
احسن التقاسيم	المقدسى
احياء العلوم	الغزالى
اخبار الرجال	الكشى
ازهار الرياض	شهاب الدين التلمسانى
اصول الكافى	الكلينى
اعلام الورى	الطبرسى
انباه الرواة	القفطى
انساب الاشراف	البلاذرى

اسم الكتاب	المؤلف
بحار الانوار	المجلسى
البخــــلاء	الجــاحظ
البداية والنهاية	ابن كثير
بغـية الوعــاة	السيوطى
البلدان	ابن خرداذبة
البيان والتبيين	الجــاحظ
البيان المغرب	ابن عذارى المراكشى
التـــــاج	منسوب الى الجاحظ
تأريخ الامم والملوك	الطبرى
تأريخ بغداد	الخطيب البغدادى
تأريخ الخلفاء	السيوطى
تأريخ اليعقوبى	ابن واضح اليعقوبى
تذكرة ابن حمدون	
تذكرة الخواص	سبط ابن الجوزى
تذكرة الاولياء (فارسى)	فريدالدين العطار
تعليقات على منهج المقال	البهبهـــــانى
التنبيه على اوهام ابى على القالى	البكرى
التنبيه والاشراف	المسعودى
تهذيب التهذيب	ابن حجر
ثمار القلوب	الثعــــالبى
جامع اشتات النبات (مخطوط)	الشريف الادريسى
جمع الجواهر فى الملح والنوادر او ذيل زهر الاداب	الحصرى
جمهرة النسب	ابن دريد
الحـــاوى (مخطوط)	الجزائرى
الحماسة	ابو تمام
حياة الحيوان	الدميرى
خزانة الادب	عبدالقادر البغدادى
خلاصة الاقوال	العلامة الحلى

اســم الكتاب	المؤلف
خلاصة الكلام فى امراء البيت الحرام	ابن دحلان
درة الغواص	الحريرى
الدرة النجفية	البحرانى
الذخيرة	ابن بسام
رحلة ابن جبير	
رسالة فى الانساب	
سرح العيون	ابن نباتة
السهم المصيب	الملك عيسى الايوبى
سيرة ابن هشام	
شـــذور العقود	ابن الجوزى
شرح اصول الكافى	محمد صالح المازندرانى
شرح ديوان الحماسة	الخطيب التبريزى
شرح المقامات	الشريشى
شرح نهج البلاغة	ابن ابى الحديد
شفاء الغرام فى أخبار البلد الحرام	الفاسى
صفوة الصفوة	ابن الجوزى
طبقات ابن سعد	
طبقات الصوفية	الشعرانى
العبر	ابن خلدون
العرب والرد على الشعوبية	ابن قتيبة
العقد الفريد	ابن عبدربه
عمدة الطالب	ابن عنبـــة
عين الادب والسياسة	ابن هذيل
عيون الاخبار	ابن قتيبة
غاية الاختصار (انساب)	
الغــــرر	الوطواط
الغيبــــة	الطوسى
فتوح البلدان	البـــلاذرى
الفرق بين الفرق	البغـــدادى

اســم الكتاب	المؤلف
فرق الشيعة	النوبختى
الفصول المختارة من العيون والمحاسن	الشيخ المفيد
الفصول المهمة	ابن الصباغ
فوات الوفيات	الكتبى
الفهرست	ابن النديم
الفهرست	الشيخ الطوسى
الكامل	ابن الاثير
الكامل	المبرد
كتاب صفين	المنقرى
كتاب الولاة وكتاب القضاة	الكندى
كشف الغمة	على بن عيسى الاربلى
كتاب بغداد (الجزء السادس)	ابن طيفور
لباب الآداب	اسامة بن منقذ
اللمع	ابو نصر السراج الطوسى
مجمع الاقوال	الاسترابادى
مجمع البحرين	الطريحى
المحاسن والمساوىء	منسوب الى البهيقى
مرآة الزمان	سبط ابن الجوزى
المرقبة العليا	المـالقى
مروج الذهب	المسعودى
مستدرك الوسائل	الشيخ النورى
مطالب السؤول	محمد بن طلحة
المعـارف	ابن قتيبة
معالم العترة	الجنابذى
معاهد التنصيص	العباسى
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب	عبدالواحد المراكشى
معجم البلدان	ياقوت الحموى
معجم الشعراء	المرزبانى
محاضرات الراغب الاصبهانى	

اسم الكتاب	المؤلف
مقاتل الطالبيين	ابو الفرج الاصبهانى
مقالات الاسلاميين	ابو الحسن الاشعرى
مقدمة ابن خلدون	
الفوائد السنية	اللكنوى
المقصد المرام فى عجائب الاهرام (مخطوط)	ابن مماتى
الملاحم والفتن	رضى‌الدين بن طاووس
ملحق اخبار القضاة	ابن حجر وسبطه
الملل والنحل	الشهرستانى
منافرات العرب	ابو عبيدة
مناقب الاتراك	الجاحظ
مناقب آل ابى طالب	ابن شهراشوب
مناقب المكى	
مناقب ابن البزاز	
منهج المقال	الاسترابادى
الموطأ	مالك بن انس
منهج الدعوات	ابن طاووس
مهذب تأريخ دمشق	ابن عساكر
ميزان الاعتدال	الذهبى
النبراس	ابن دحية
نشر اللئالىء	ابن ابى جمهور الاحسائى
النجوم الزاهرة	ابن تغرى بردى
نزهة الالبـــاء	الانبارى
نكت الهميان	الصفدى
نور الابصار	الشبلنجى
نهاية الارب	النويرى
الورقة	ابن الجراح
الوزراء والكتاب	الجهشيارى
الوسائل	الحر العاملى
وفـــاء الوفـا	السمهودى
وفيـــات الاعيان	ابن خلكان
اليتيمة	الثعالبى